دانتي اليجييرى

الكوميديا الإلهية

الجزء الأول
الجحيم

دار الخلود
للنشر والتوزيع

٢٠٦٢٥٥٣

الكوميديا الإلهية

الجحيم

▪ الكتاب: الكوميديا الإلهية ـ الجحيم

▪ المؤلف: دانتي اليجييري

▪ الناشر: الخلود للنشر والتوزيع

42 سوق الكتاب الجديد ـ العتبة ـ القاهرة

تليفون: 0181607185 ـ 25919726 فاكس: 25102954

E-mail: dar_alkholoud@yahoo.com

رقم الإيداع: 2020/4198

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر ولا يجوز نهائياً نشر أو اقتباس أو اختزال أو نقل أى جزء من الكتاب دون الحصول على إذن كتابى من الناشر

مقدمة

ولد دانتى فى فلورنسا عام ١٢٦٥، كان من أبناء الطبقة الوسطى أحب وهو فى التاسعة من عمره طفلة تقاربه فى السن فكان لهذا الحب دوره الحاسم فى حياته كلها تلقى دانتى تعليماً سطحياً وغير كاف ولكنه طور هذا العلم عن طريق التفانى والعمل حتى بلوغه سن النضج فى الرابعة والعشرين من عمره اشترك فى المعارك التى خاضتها فلورنسا ضد الدول المجاوة، حيث كانت فلورنسا تعيش حالة أزمة سياسية واقتصادية حادة تزوج عام ١٢٩٦ وأمضى أعوام حياته الأخيرة فى فيرونا ودفن فيها استمر دانتى فى كتابة الكوميديا الالهية أربعة عشر عاماً وقد أضيفت كلمة الالهية الى عنوانها بعد موت الشاعر من قبل المعجبين به..

أما بالنسبة لعمله هذا فقد كان رؤيا للوجود غير الأرضى وقد كتب الباحثون كثيراً حول تأثر دانتى بالفلسفة الاسلامية ومضى بعضهم الى البحث عن تأثر دانتى فى كتابة الكوميديا الالهية بكتاب الشاعر ابى العلاء المعرى رسالة الغفران والبعض استبعد ذلك وأكدوا تأثره بقصةالعراج التى ترجمت الى اللاتينية فى حياته فلاشك أن دانتى سعى الى غايات تعليمه فلم يكتب عملاً أخلاقياً ودينياً فحسب ،بل علمياً أيضاً أضف الى ذلك أن الكوميديا الالهية عمل شخصى

يصور فيه حب باتريشيا المدرك والمصوغ حسب قوانين الاتجاه الشعرى الجديد.

تنقسم الكوميديا الالهية الى ثلاثة أجزاء هى «الجحيم ،المطهر ، الجنة» ويتألف كل جزء من ثلاث وثلاثين أغنية وينقسم كل جزء الى تسعة فصول وفصل عاشر إضافى والقصيدة كلها مكتوبة على شكل مقاطع «ثلاثيات» وينتهى كل جزء منها بكلمة النجوم. ويعد قسم الجحيم الأشهر فى هذه الملحمة

●●

لقد باتت موهبة دانتى الخلاقة وقدرته المدهشة على انتقاء الرمز المحدد الذى يحتاج إليه أشد مضاء بسبب ميل الشاعر الى الايجاز فمثلاً فى الجحيم يرى عذاب محبى اللذة ثمة اعصار عاصف يرمز للأهواء حيث يجرف المعذبين وكأنهم أوراق الخريف المتساقطة تطاردها الريح ،حيث يلفت انتباه دانتى ظلان يتعانقان فى رقة لايفترق أحدهما عن الاخر ولوللحظة من الزمن فيتحدث اليهما فيسمع قصة فرانشيسكا التى أحبت أخا زوجها فقتل الزوج الاثنين معاً. لقد صوردانتى هذه القصة من خلال فرانشيسكا التى أحبت أخا زوجها من خلال عاطفتها الجياشة فالمحبان كانا كائنين أرضيين قبل الموت يعانيان آلامهما ويرشفان كؤوس المرارة فالزوج القاتل سيلقى جزاءه فى السماء، أما باولو فلن يفترق عن فرانشيسكا أبدا ولكى يؤكد الشاعر ذلك الشعور بالتعاطف مع فرانشيسكا يروى القصة على لسانها أما باولو فيظل صامتاً يؤيد أقوالها بنشيج مكبوت وينهى دانتى هذه القصة بصيغة غامضة حيث تروى فرانشيسكا

حادثة موتها ملمحة الى مصرعها المذل المهمين. فالعاشقان قتلا فى اللحظة التى أدرك كل منهما حبه للآخر ،ثم تأتى الخاتمة فبعد أن يسمع دانتى الذى عرف قلبه آلام الحب، قصة فرانشيسكا يسقط على الأرض فاقد الوعى ويلفنا من جديد صوت الاعصار الذى يجرف العاشقين فى باطن الأرض ليواصلا الدوران فى الجحيم الى الأبد.

تبدأ القصة بدانتى المفقود فى غابة مظلمة، ويمثل ذلك عنده إحساسه بتفاهة حياته، والشر الذى كان يراه فى مجتمعه. وفى يوم جمعة صحو، وبعد ليلة من التجوال المؤلم، يتقابل مع الشاعر الرومانى فيرجيل الذى يعده بأن يخرجه من تلك الغابة ويقوده إلى رحلة فى العالم الآخر.

ويدخلان الجحيم وهو حفرة فظيعة على هيئة مخروط عميق فى باطن الأرض، وفى الحفرة تسع دوائر، حيث يريان جموعًا من الأفراد، يعانون العذاب الذى تصبه فوق رؤوسهم الوحوش الخرافية، والشياطين والمخلوقات الأخرى، وذلك عقابًا على خطاياهم. والملعونون المعذبون هؤلاء شخصيات تاريخية معروفة جيدًا، بعضها من عصر سابق لدانتى غير أن معظمهم من عصر دانتى نفسه.

ويصف دانتى الجحيم بقوله:

«وجدت نفسى وأنا فى منتصف طريق حياتنا فى غابة مظلمة كانت الجادة فيها غير واضحة ومفقودة»..

وبينما كان دانتى يجول فى هذه الظلمة إذ التقى بڤرجيل "أستاذى ومرشدى الذى أخذت عنه وحده الأسلوب الجميل الذى شرفت به". ويخبره ڤرجيل أن السبيل السليمة الوحيدة للخروج من الغابة هى

اجتياز الجحيم والمطهر؛ فإذا ما صحبه دانتى فيهما فسيقوده إلى أبواب الفردوس، "حيث يتولى إرشادك من هو أجدر منى وأكرم". ويضيف إلى هذا فى صراحة أنه جاء ليقدم العون إلى الشاعر بأمر بياتريس. ويمران خلال فتحة فى سطح الأرض إلى أبواب الجحيم، نقشت عليها هذه الألفاظ المريرة: "من خلالى يدخل الإنسان المدينة المحزنة؛ ومن خلالى يدخل الإنسان الآلام السرمدية؛ ومن خلالى يدخل الإنسان بين الأجناس الضالة. لقد حركت العدالة خالقى الأعلى؛ وصنعتنى القوة الإلهية هى والحكمة العليا والحب الأزلى. ولم يخلق قبلى سوى الأشياء الأزلية، وأنا باقية أبد الدهر؛ فتخلوا عن كل آمالكم يا من تدخلون هذه الدار!".

●●

والجحيم فتحة تحت الأرض تمتد إلى مركزها. ويصورها دانتى بخيال قوى يكاد يبلغ الغاية فى الاكتئاب: فهى هاوية سحيقة مظلمة مرعبة، بين صخور ضخمة قاتمة؛ تتصاعد من منافذها الأبخرة والروائح الكريهة، وتجتاحها السيول الجارفة، وبها بحيرات ومجار؛ وعواصف من المطر، والثلج، والبرد؛ ومشاعل من لهب؛ وتزمجر فيها الرياح والزمهرير الذى يجمد فيه الدم والجسد؛ وبها أجسام معذبة، ووجوه كالحة مقطبة؛ ويشقها صراخ وأنين يقف لهما الدم فى العروق. وفى أعلى مكان فى هذه الفتحة الجهنمية يقيم من لم يكونوا أخياراً أو أشراراً، ومن وقفوا على الحياد بين الخير والشر. أولئك يعاقبون بآلام خسيسة، تلسعهم الزنابير، ويأكلهم الدود، ويحرق قلوبهم الحسد والندم، وهؤلاء يزدريهم دانتى الذى لم يقف على الحياد فى يوم من الأيام.



الرحمة والعدالة تزدريانهم، ونحن لا نتحدث عنهم، بل نلقى نظرة عليهم ونمر بهم". ويعمل الجائلان إلى نهر أكرون فى باطن الأرض، ويعبره بهما كارون الذى يعمل فى ذلك المكان من أيام هومر فإذا عبراه وجد دانتى نفسه فى المحيط الخارجى للجحيم حيث يقيم الصالحون الذين لم يعمدوا، ومنهم فرجيل وجميع الصالحين من عبدة الأوثان، وجميع اليهود الصالحين إلا عدداً قليلاً من أبطال العهد القديم الذين أطلقهم المسيح حين زار هذا المحيط الخارجى ورفعه إلى السماء. وكل ما يعذب به هؤلاء هو رغبتهم الأبدية فى مصير خير من مصيرهم، وعلمهم بأنهم من ينالوا هذا المصير. وفى هذا الموضع من الجحيم شعراء وثنيون يعظمهم كل المقيمين فيه - هومر، وهوراس، وأوفد، ولو كان؛ وهؤلاء يرحبون بفرجيل ويحلون دانتى المكان المقدس بينهم، ثم يقول دانتى: وأنظر إلى أعلى "فأرى سيد العارفين يجلس بين أسرة الفلاسفة" أى أرسطو يحيط به سقراط، وأفلاطون، ودمقريطوس، وديجين، وهرقليقوس، وأنكسغوراس وأنبادقليس، وطاليس، وزنون، وشيشرون، وسنكا، وإقليدس، وبطليموس، وأبقراط، وجالينوس، وابن سينا، وابن رشد «الذى ألف الشرح العظيم» وما من شك فى أنه لو كان دانتى مطلق الحرية فى رأيه لوضع فى الجنة هذه الفئة النبيلة كلها، ومن بينها فلاسفة المسلمين المخالفين له الدين.

ثم يقوده فرجيل إلى الدائرة الثانية، حيث تتقاذف الرياح العاتية الذين ارتكبوا خطايا جسدية شهوانية لا يستريحون منها أبداً. وهنا يشاهد دانتى باريس، وهلين، وديدو، وسميراميس، وكليوباترا، وترستان، وباولو، وفرانسسكا. وقصة فرانسسكا كما يرويها دانتى

تتلخص فى أن فرانسسكا دا بولنتا الجميلة أريد لها أن تتزوج جيانسيتو مالا تستتا الشجاع المشوه لتقضى بزواجها على نزاع قام بين أسرة بولنتا سادة رافنا، وأسرة مالتستا سادة ريمينى. هذا هو الجزء المؤكد فى القصة، أما بقيتها فغير مؤكدة. فهناك رواية يقبلها الكثيرون تقول إن پاولو الوسيم أخا جيان سيتو يدّعى أنه هو الخطيب، وأن فرانسسكا تعاهده على أن تتزوج به، ولكنها تجد فى يوم العرس أنها تزف على الرغم منها إلى جيان سيتو. ثم لا يمضى إلاّ القليل من الوقت حتى تستمتع بحب باولو؛ ويقبض عليها جيان سيتو ويقتلها فى تلك اللحظة.. وتُقَص فرانسسكا داريمينى قصتها وهى تتأرجح فى الريح خيالاً بلا جسد إلى جانب روح حبيبها غير المجسد:

●●

"إن أشد ما يحزن الإنسان أن يذكر أيام الهناء حين يقترب منه الشقاء... كنا فى يوم من الأيام نتسلى بقراءة لانسلت، وكيف استبد به الهوى. وكنا فى تلك الساعة وحدنا ولا يوجد بالقرب منا ما نرتاب فيه. وكثيراً ما كانت أعيننا تتبادل النظرات فى أثناء هذه القراءة، وذهب اللون من خدودنا وتبدلت صورتها. ثم وقعت أعيينا على نقطة فى الكتاب واحدة، وذلك حين وصلنا إلى تلك القبلة المشتهاة التى طبعها فى هيامه ونشوته فتى برح به الوجد. وفى تلك اللحظة طبع وهو يرتجف قبلة على شفتىّ، طبعها ذلك المحب الذى لن يفارقنى قط. لقد كان الكتاب وكاتبه كلاهما مبعوثين من عند الحب. ولم نقرأ شيئاً فى صحفه بعد ذلك اليوم".

●●

ويتملك الأسى دانتى حين يسمع هذه القصة فيغمى عليه، ثم يفيق فيجد نفسه فى الدائرة الثالثة من الجحيم، حيث يستقر من كان ذنبهم النّهم فى حمأة تحت عاصفة دائمة من الثلج، والبرد، والمياه القذرة، وحين ينبح فى وجوههم سر بيروس ويمزقهم إرباً بأنيابه الثلاثية. ثم يهبط فرجيل ودانتى إلى الدائرة الرابعة، حيث يقيم أفلوطس؛ وهنا يلتقى المبذرون والبخلاء ويقتتلون، ويلقى بعضهم على بعض أثقالاً ضخمة فى حرب سيسفية.

ويسير الشاعران بأزاء نهر استيكس المظلم الذى يغلى ماؤه، حتى يصلا إلى الدائرة الخامسة؛ حيث يقيم من كان ذنبهم الغضب ملطخين بالأقذار، يضربون أنفسهم ويمزقون أجسادهم. والذين كان ذنبهم الكسل والتراخى يغمرون فى ماء البحيرة الأستيجية الآسن، وتعلو سطحها الطيفى فقاعات من زفيرهم. وينقل فليجاس على سطح البحيرة حتى يصلا فى الدائرة الثالثة إلى مدينة ديس، أو الشيطان، حيث يشوى الملحدون فى قبور ملتهبة؛ ثم يهبطان إلى الدائرة السابعة، وهناك يريان من ارتكبوا جرائم العنف تحت راية المنوتور يكادون على الدوام يغرقون فى نهر من الدناء مضطرب صاخب، ويرميهم القنطورون بالسهام كلما علت رؤوسهم فوق ماء النهر. ويريان قسم من هذه الدائرة المنتحرين ومنهم بيرو دل فنى، وفى قسم آخر يريان من ارتكبوا جرائم العنف ضد الله، أو الطبيعة، أو الفن، يقفون حفاة فوق رمال حامية، وتسقط على رؤوسهم كسف من النار. ويلتقى دانتى بين السدوميين بمعلمه القديم برونتو لاتينى - وهو مصير لا يليق بشخص كان هادياً لدانتى وصديقاً له وفيلسوفاً.

وتظهر عند طرف الدائرة الثامنة هولة مروعة تحمل الشاعرين وتنحدر بهما إلى هاوية المرابين؛ وفى أحد أخوار هذه الهاوية يشاهدان طائفة عجيبة من الآلام السرمدية يعذب بها من يغوون النساء، والمتملقون والمتجرون بالوظائف الدينية. وهؤلاء المتجرون يعلقون من أرجلهم فى حفر لا تظهر منها إلا سيقانهم، ويلحس اللهب أقدامهم تدليلاً لهم. ومن بين هؤلاء المتجرين البابا نقولاس الثالث (١٢٧٧ ـ ١٢٨٠) ويندد دانتى أشد التنديد بسوء أعمال هذا البابا وغيره من البابوات؛ ويصور نقولاس هذا صورة فذة جريئة فيقول إن البابا يحسب أن دانتى هو بنيفاس الثامن (المتوفى عام ١٣٠٣)، وأن قدومه إلى الجحيم متوقع فى أية لحظة من اللحظات. ويتنبأ نقولاس بأن كلمنت الرابع (المتوفى عام ١٣١٤)، سينضم إليهم بعد زمن قليل. وفى الخور الرابع من الدائرة الثامنة يقيم من يدعون معرفة الغيب، ورءوس أولئك الأقوام مثبتة فى أعناقهم ومتجهة نحو ظهورهم. ويطل الشاعران من جسر ـ "ماليبلج" ـ فوق الخور الرابع فيريان من تحتهما مختلسى الأموال العامة يسبحون إلى أبد الدهر فى بحيرة من القار فى درجة الغليان. أما المنافقون فلا ينقطع مرورهم حول الخور السادس فى أردية من الرصاص مطلية بالذهب. ويشاهد فى الممر الوحيد الذى يخترق هذا الخور قيافى مصلوباً وملقى على الأرض بحيث لا يستطيع أحد اجتياز الطريق إلا إذا وطئ جسده. وفى الخور الرابع يعذب اللصوص بأفاع سامة؛ وهنا يتعرف دانتى على عدد من الفلورنسيين، ويشاهد عقد قائم فوق الخور الثامن لهيباً يحرق جلوده مثيرى السوء، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب؛ ويرى من بين هؤلاء أديسيوس المخادع. وفى الخور التاسع

يستقر النمامون والعاملون على الانشقاق تنتزع أطرافهم طرفاً بعد طرف.

وفى الخور العاشر من الدائرة الثامنة يرقد المزورون، والمزيفون، والكيميائيون الكاذبون، يئنون من أوجاع مختلفة، وتملأ الهواء من حولهم رائحة كريهة هى رائحة العرق والصديد، وأنين المعذبين يملأ الهواء بأصوات كقصف الرعد.

وينتهى مطاف الشاعرين بالدائرة التاسعة وهى الدرك الأسفل من الجحيم، ومن عجب أن توصف بأنها هوة واسعة من الجليد؛ وفيها يدفن الخونة فى الجليد إلى أذقانهم، وتتجمد دموع الألم فتصبح قناعاً متبلوراً فوق وجوههم. ومن بين هؤلاء يرى كونت أجولينو دلا كراردسكا الذى خان بيزا مشدوداً أبد الدهر إلى رجييرى كبير الأساقفة، الذى سجنه هو وأبناءه وأحفاده وتركهم كلهم يموتون جوعاً. والآن يستند رأس أجولينو على رأس كبير الأساقفة، ويظل رجييرى إلى الأبد يضع رأس أجولينو وفى مركز الأرض أى فى قاع فتحة الجحيم الآخذة فى الضيق يرقد الشيطان (لوسفر) الجبار مدفوناً فى الجليد إلى وسطه يرفرف بجناحين ضخمين مثبتين فى كتفيه، ويذرف من وجوهه الثلاثة التى تقسم رأسه دموعاً من الدم المتجمد من شدة الزمهرير، ويمضغ فى كل فك من فكوكه الثلاثة أحد هؤلاء الخونة: بروتس، وكاسيوس، ويهوذا.

وقصارى القول أن نصف الأهوال التى كانت تزعج الأنفس فى العصور الوسطى قد جمعت فى هذه القصة الدموية. وكلما أمعن الإنسان فى قراءة صحفها الرهيبة ازداد رعباً على رعب حتى تطغى عليه نتيجة هذا الرعب آخر الأمر فلا يعود يطيقها. وإن ذنوب

الإنسان وجرائمه فى هذا العالم وفى جميع عوالم الكون وسلامه لأقل من غضب الإله وانتقامه بالصورة التى يتخيلها الشاعر. وإن فكرة دانتى عن الجحيم لهى منتهى ما وصل إليه لاهوت العصور الوسطى من فظاعة. لقد كان اليونان والرومان القدامى يصورون جحيماً يسمونها Hades أو avenrus تتلقى جميع الموتى من الآدميين. وكان مقرها مكاناً عظيماً مظلماً تحت الأرض لا يمكن تمييز شىء فيه، ولكنهم لم يصوروا هذه الجحيم بأنها مكان للتعذيب؛ وكان لابد من أن تمر قرون طوال من الهمجية، والاضطراب، والحرب قبل أن يتقول الإنسان على خالقه فيعزو إليه صفتى الانتقام السرمدى والقسوة التى لا ينضب لها معين.

ويخفف من روعنا أن نعلم أن دانتى وفرجيل قد مرا من خلال مركز الأرض، وأنهما قلبا اتجاه رأسيهما وأقدامهما، وأنهما يتحركان إلى أعلى نحو الجهة المقابلة لبلادنا من الأرض. ويجتاز الشاعران قطر الأرض كله فى سرعة الأحلام التى تهزأ بم رالزمان، ويخرجان إلى النصف الجنوبى منها فى صباح يوم عيد الفصح، ويشربان فى وضح النهار، ويقفان عند اسفل الجبل المدرج وهو المطهر.

●●

لقد كانت وبقيت الكوميديا الإلهية ل"دانتى"، لغاية القرن التاسع عشر، تتمتع بخصوصيتها الأدبية النادرة والفريدة. ولقد كانت تتمتع وتحظى، فى الوسط الأدبى الأوروبى، بطابعها الأدبى اللاتينى الرفيع، كمرجع أساسى للوطنية الإيطالية، والعبقرية المسيحية للقرون الوسطى. ولقد حظيت فى الوقت نفسه باهتمامات نقدية عديدة جعلت منها، أو حاولت إن صح التعبير، أن تكون نشيدا للإنسانية

جمعاء، تلك التى سيحررها "دانتى" من جاهلية القرون الظلامية، لتصبح نبراسا للعقل المتحرر الآتى. وبهذا الخصوص، فإن نظرتنا لهذا الزعم "الإبداعى الخالد"، تختلف تماما، الشىء الذى سنوضحه بالتحليل والتبرير، فى سياق هذه الدراسة وخاتمتها. ولنعد أولا وقبل كل شىء، فى الشروع لتبيين المصادر والموارد التى استقى منها "دانتى" نموذج صور وأفكار "الكوميديا الإلهية". ومستثنين فى هذه الأثناء المراجع الإغريقية واللاتينبة التى لعبت بالفعل دورا كبيرا فى تطعيم الكوميديا بأبطالها الشهيرين وآفاقها "الأسطورية".

بالفعل لقد بقى نصيب لا يستهان به من المصادر الحقيقية خفيا، لقرون عديدة، كما هى العادة فيما يتعلق بالمصموت عنه، داخل التراث الأوربى، لغاية ما فجّر، القس والباحث الإسبانى "دون م?يل أسين بلاسيوس، ١٨٧١-١٩٤٤" قنبلة خطابية فيما يتعلق بالمسكوت عنه، حين أشار لأول مرة لمرجعية النصوص التراثية الإسلامية للكوميديا الإلهية. و"بلاسيوس" هذا يعد من المختصين الإسبانيين، بالمخطوطات العربية الإسلامية، الشىء الذى سنبينه بالتفصيل فيما بعد. وبعد وفاته تناول الموضوع فى مستهل الخمسينات للقرن العشرين المستشرق الإيطالى "كيدو بللاتى ششولى"، فى دراسة قيمة، ذكر فيها، على سبيل المثال، كيف وصلت ل"دانتى" "رسالة الغفران" المعرية. ولقد ذكر بهذه المناسبة، كسلفه "بلاسيوس"، ذاك الدور الأساسى الذى لعبه ملك قشتالة "ألفونس العاشر، ١٢٢١-١٢٨٤" الملقب بالحكيم، فى نقل التراث العربى الأندلسى ترجمة إلى اللغة القشتالية، والفرنسية القديمة فى تلك الفترة. وعلى هذا الدرب نفسه، سار الباحث الفرنسى "رنيه ?ينون، ١٨٨٦-١٩٥١" الذى أصبح

يسمى ب " عبد الواحد يحيى"، بعد انخراطه فى الطرق الصوفية، موضحا بتفصيل أدق، كيفية وصول النصوص العربية الأساسية، التى بنى عليها "دانتى" رسالته السماوية. وفى هذا السياق، تعرض لظاهرة النقل عند "دانتى"، وأوضح أهمية تأثير التراث العربى عليه. ولقد انتبه إلى هؤلاء الباحثين الغربيين، عدد لا يستهان به من الباحثين العرب، منهم المؤيد ومنهم الرافض، ومنهم من بقى فى المنزلة بين المنزلتين. ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: زكى مبارك، وشوقى ضيف، بنت الشاطئ، جرجى زيدان، وطه حسين. ولنعد من جديد للنخبة الأوربية للوقوف بنوع من التحقيق مع آراء "رنيه ?ينون". لقد تناول هذا الكاتب بالبحث، ظاهرة التصوف الإسلامى من ناحية، كما ظاهرة المذاهب الباطنية من جهة أخرى، تلك التى كانت متفشية فى أوروبا، خلال القرون الوسطى. وهو يرى، فى اعتماد "دانتى" على "ڤرجيل"، فى نشيده السابع من "الإنيادة"، إشارة مباشرة، لتلك الدوائر "الڤرجيلية" التى كانت حلقاتها السرية، متواجدة حقا، لدى بعض النخب المثقفة آنذاك. ويعزز هذه الإشارة، أو هذه الملاحظة، بخصوص الدوائر الباطنية، ما ساقه الباحث والمؤرخ الفرنسى "هنرى فوڤيت"، فى دراسة له وافية عن الكوميديا الإلهية، حين عرض بالشرح لمسألة الرموز الرقمية الثلاثية، ومضاعفاتها التى استخدمها "دانتى"، فى بناء رسالته السماوية. أنظر المراجع التى وثقناها بهذا الخصوص، وكذلك بحثه الضخم " دانتى، مدخل إلى دراسة الكوميديا الإلهية". وبالعودة من جديد إلى "رنيه كينون"، فإنه يرى اعتمادا على أبحاث "بلاسيوس"، بأن النص المرجعى الحقيقى الذى اعتمد عليه "دانتى" يتمثل بالأساس، فى مؤلف محى الدين بن عربى، "كتاب

الأسـرار" بـالإضـافـة إلى مـجـمـوعـة مـحـى الـدين بن عـربـى "الـفـتـوحـات المكية". بل يـضيف مـرجـعـا نـادرا آخـر، ألا وهـو الحكـايـات الـشـعـبـيـة الأنـدلسية عن مسـألـة المعـراج، التى كانت جد متفشية فى الأوساط الشعبية آنذاك. ومن جانبه، يقدم المستشرق "هنرى كوربان"، المختص فى مـيـدان الـتـصـوف الإيـرانـى بـشـكـل خـاص، مـعـتـمـدا هـو الآخـر عـلـى نـتـائج " أسـين بلاسيوس"، المقارنة بين الكوميديا الإلهية والمراجع الإسـلامـيـة. و" أسـين بلاسـيـوس" كـان قـد أوضـح فى كـتـابـه "كـومـيـديـا دانتـى والمصـادر الإسـلامـيـة"، أوجه الـشـبـه المتـعـددة، الـتـى تـتـفـق فـى الشكل كما فى المضمون بين هـذه وتلك. وهذا بالتغاضى مؤقتا، على كل من الآثـار، أو المقـاطع، الـواردة فـى كـتـبـه الأخـرى، ك"الـولـيـمـة" و"الحياة الجديدة". ومن أوجه المقارنة هذه نسوق مثلا:

فـيـمـا يـتـعـلـق بـالحـكـايـات الـشـعـبـيـة، ثـمـة كـتـاب قـديـم لمؤلف عـربـى مجهول، كان قد ترجم إلى اللاتينية فى (القرن الثانى عشر)، قد خرج إلى الـوجـود مـؤخـرا، تحـت عـنـوان " كـتـاب سُلّم مـحـمـد" وتـرجـمـتـه الـفـرنـسـيـة نـقـلا عن الـلاتـيـنـيـة مـتـوفـرة لـديـنـا الآن، أم الأصـل الـعـربـى فمفقود، وهو يعزز أطروحة "بلاسيوس".

ومما سـقـط من مـقـدمـة هـذا الـكـتـاب المـطـبـوع أخـيـرا، وبـقـى فـى نصوص قديمة أخرى، نقف على حيوانات تعترض طريق حاج، وتتمثل فى أسد وذئبة. (فيما يتعلق بالنص الشعبى)

فى مستهل الكوميديا الإلهية، تعترض المسافر الراوية ثلاثة حيوانات: أسد وذئب وفهد.

فرجيل بعث كمرشد ل"دانتى" كما بعث جبريل كمرشد لرسول الإسلام محمد.. الجحيم قد ورد فى النصين المذكورين أعلاه بشكل

متماثل، كتصوير الجحيم على شاكلة خزان عميق يتألف من أطباق وأدرج دائرية.

كل طبق ينقسم بدوره إلى أطباق أخرى، لتصل أخيرا إلى الجحيم المتواجد تحت مدينة القدس فى النصين.

وللخروج من الجحيم من أجل الصعود نحو الفردوس، يعمد "دانتى" من أجل ذاك إلى ثلاثة أنواع من الوضوء، وهو الوضوء نفسه الذى تعتمده الحكاية الإسلامية، معرفة إياه كوضوء روحى من أجل التعريج إلى الفردوس.

فى كلا النصين: نقف على امرأة تعترض طريق الرسول محمد فى النص العربى (وهى رمز للإغراء الدنيوى) وأخرى تعترض طريق دانتى فى سفره، تمثيلا للإغراء نفسه، الذى اشرنا إليه.

الحراس الذين يستأذن منهم، فى الدخول إلى الجنة أو النار، يتواجدون فى النصين.

إن السلم الذهبى الذى نجده فى الكوميديا ذاك الممتد من "زحل" إلى السماء الأخيرة، هو السلم نفسه "المعراج"، الذى يعرضه جبريل فى النص العربى للعروج إلى السماوات.

إن هندسة الأجواء السماوية، التى تتم عبرها رحلة المعراج، تتواجد هى نفسها، وبنفس العدد، فى كلا النصين.

كلا النصين ينتهيان عند سدرة المنتهى، بحضرة النور الإلهى الشعشعانى. ثم يختم ملاحظاته عن تواجد عدة وجوه من المفكرين والعلماء المسلمين، فى كلا النصين قائلا:" وكل هذا التشابه ليس محض صدفة".

وأخيرا إن المعنى التمثيلى فى الرسالتين يتلخص فى المعنى الأخلاقى، وهو يشير فى كلا النصين إلى أهمية إحياء الروح وتطهيرها، وملخص الرحلة وسعادتها، تكمن فى معرفة الله.

لقد كانت هذه المقابلة النصية، هى أول مقارنة عقدناها عبر الملاحظات القيمة التى أدلى بها "رنيه ينون". وحتى لا نقف عند هذا الحد، ولو حدا بنا هذا البحث، إلى تكرار بعض الشواهد والملاحظات هذه، التى سبق لنا وذكرناها، فى معرض هذه الدراسة. ولسوف نعمد من جديد، إلى نص آخر للمستشرق الإيطالى، المختص فى المخطوطات العربية والأدبيات الإسلامية "كيدو بللاتى" حول ما سماه فى بحثه ب"الحضور الإسلامى ومؤثراته فى أعمال دانتى الليجييرى". ويرى هذا الباحث بأن الإسلام يؤكد حضوره، فى مجموع ما أنتجه "دانتى" من مراسلات، ورسائل شعرية. ويرى بأننا نقف فى الكوميديا الإلهية، على اسم رسول الإسلام، وأسماء رجال حكومة ورجال دين، كما على رجال أدب وفلسفة وعلوم من أمثال: "الرسول محمد، وعلى بن أبى طالب، وصلاح الدين الأيوبى، وابن سينا، وابن رشد. كما نقف له فى مصادر أخرى، من أمثال "الوليمة"، على أسماء شخصيات إسلامية ك:" العالم الفلكى أبو المعاشر، والعالم الفلكى الفرغانى، والعالم الفلكى البطروجى. ومن مجموعته المسماة ب"الرسائل"، والتى يستهلها بالتهنئة لوصول الملك "هنرى السابع" إلى إيطاليا، نقف له على موقف افتخاره بهذا القادم الجديد، الذى يأمل فيه أن يخلص أرض إيطاليا من كل تواجد عربى. ثم يعرض لتلك الوجوه التى سبق وأشرنا إليها فى الرسالة السماوية، ويخلص منها ليتوقف عند تلك الأزمة المباحثية الممتدة ما بين ١٩١٩ و ١٩٤٩.

ويعرض بالمناسبة، من وجهة نظره الخاصة، لتلك الضجة التى أثارها الباحث الإسبانى "دون مى يل أسين بلاسيوس". ويذكر بهذا الخصوص، مؤلفاته الهامة المتعلقة بهذا الموضوع، ك"المظاهر الإسلامية للجنة والنار فى الكوميديا الإلهية" وكذلك "الإسلام المُمَسّح" و"دانتى والإسلام" و" تاريخ ونقد للجدال". و"بلاسيوس" كان قد أخرج أول أعماله سنة ١٩١٩ والثانى السابق الذكر سنة ١٩٢٩ . وبالفعل لقد أثارت هذه الدراسات المستحدثة على الساحة النقدية التراثية، ضجة كبرى لدى المهتمين. وإذا صح التعبير، نقول بأنها قد أثارت ردود فعل كبيرة فى أوروبا عموما، وإيطاليا بوجه خاص، فى هذه المرحلة التى عقبت الحرب العالمية الأولى، حيث كانت إيطاليا بصدد الاحتفاء بالذكرى المأوية لمفكرها الوطنى الخالد "دانتى". ومن جديد يطرح المستشرق "كيدو بللاتى" مسألة تلك الحجج القاطعة، التى وردت عند الباحث "دون مى يل أسين بلاسيوس" عبر المصادر الإسلامية التى استند عليها ومنها:

القرآن الكريم كأصل ومصدر لقصة المعراج.

الأحاديث النبوية.

السيرة النبوية، لابن إسحاق والطبرى.

حكايات المعراج المستقاة من القصص الشعبى.

كتاب الإسراء لمحى الدين بن عربى.

كتاب عالم الرجوع للأفغانى "حكيم سنائى" .

رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى.

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسى.

قصص الأنبياء للثعالبى، التى ورد فيها، كل ما يتعلق بهذه التشكيلات السماوية وطبقاتها ودرجاتها، والواردة أيضا فى"كتاب السلم المحمدى.

وكل هذه الكتب كانت متواجدة ترجماتها، قبل القرن الثالث عشر. وخصوصا أن المكتبة "الطُّلَيْطلِيّة" التى كانت متواجدة تحت حكم الملك القشتالى "ألفونس العاشر" كانت تزخر بالنصوص العربية المنقولة إلى اللاتينية، والقشتالية، والفرنسية العامية آنذاك. ويرى هذا الباحث فى ميدان الإسلاميات، بأنه من الضرورة بمكان، إضافة النصوص الشفهية المتعلقة بأدبيات المعراج، التى كنت شائعة فى الأوساط الشعبية آنذاك. ويقصد التى ضاعت بسبب قلة وندرة الكتابة، فى هذه المرحلة من القرون الوسطى الأوربية. وبخصوص هذا المصدر الشفهى يرى الباحث بأن "دانتى" قد يكون مما لا شك فيه، أنه تلقى شفهيا بعض هذه الروايات عبر أصدقائه الذين كانوا متواجدين بمملكة "قشتالة" وبالخصوص صديقه الشخصى "بنيتو لاتينى" الذى كان يشغل منصب السفارة، بين "الڤاتكان" و"قشتالة". وبالإضافة لكل هذا، هنالك من يمضى لغاية الافتراض بأن "دانتى" كانت له معرفة، ولو مبدئية، باللغة العربية. والدليل الذى يساق بهذا الخصوص، بعض المفردات كما بعض الأبيات الشعرية، التى وردت حرفيا فى "الكوميديا الإلهية" بصيغتها العربية الصريحة، بأبجدية لاتينية. ونسوق منها على سبيل المثال لا الحصر.

●●

قد نقصر الحديث على أولى مشاهد الكوميديا الإلهية ولعله أهم مشاهدها.. وهو معاينة الجحيم وأطوار الرحلة الرهيبة ضمن ساحاته بصحبة فرجيل. إن أناشيد الملحمة الإيطالية تصور جحيم «سقر» على أنه حفرة هائلة لها شكل مخروط عملاق مؤلف بدوره من تسع دوائر وطبقات متداخلة - وطبقات يعلو بعضها بعضا.

وكلما انحدرت طبقة فهى فى درك أسفل آية على أن ساكنيها اقترفوا ذنوبا أكثر فداحة وأوجب بتغليظ العقاب. تحدد الملحمة موقع حفرة الجحيم الهائلة على أنه تحت أراضى بيت المقدس وأن أدنى نقطة فيها تمثل مركز كرة الأرض..

هناك تسود ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج المرء يده لم يكد يراها حقت اللعنة على سكان هذا الدرك الذين يروون حكايات ذنوبهم وخطاياهم على مسمع من شاعر الكوميديا الذى لا تخطئ مسامعه أيضا أصداء الندب والعويل، من شدة ما يعانون من الألم وأيضا من فرط الندم على ما جنته أيديهم فيما سبق من حياة.

على أبواب الجحيم يقرأ الشاعر الزائر لافتة تقول:

- لا أمل لكم ولا رجاء يا من تدخلون من هذا الباب.

تلك إذن هى لعنة اليأس - فالقنوط هو أول ما يطالع الزائر عند مداخل الجحيم. ولكن ما هذا الرواق القريب الفسيح؟ إنه رواق.. الانتظار وفيه يعرف الزائر أن المنتظرين فيه - ربما أبد الدهر - هم أهل اللا موقف.. الذيم لم يقترفوا شرا فى حياتهم الأولى لكنهم أيضا لم يتخذوا فيها موقفا محددا من شأنه فعل الخير أو الخطر أو للدفاع عن قيمة أو لتكريس مبدأ يمكث فى الأرض أو ينفع الناس..

أمرهم عجب.. أى عجب.. لا الجحيم يريدهم ولا الفردوس يرحب بهم، لذلك فقد حقت عليهم لعنة غريبة اسمها سأم الانتظار. ثم ما هذا النهر المتلاطم يكاد يضطرم بالحمم ويتريص بالخطر؟.. ثمة سفينة يقودها شيطان من خدم الجحيم اسمه شارون (وهل هناك غيره؟) .

وظيفته هى نقل الآلاف من الأرواح الملعونة إلى حيث تلقى العذاب.. بعدها تنتقل رحلة دانتى بين طبقات الجحيم يطالع الدرك الذى يضم الذين ارتكبوا أخطاء بحق أنفسهم ومن تحته درك أدنى يضم الذين ارتكبوا ذنوبا وخطايا ألحقت أضرارا بالآخرين.. ومن تحته مذنبو الكبائر الذين لم يتورعوا عن قتل النفس التى حرم الله سبحانه إلا بالحق، أو أنكروا وجود المولى تبارك وتعالى أو كانوا يأكلون أموالهم بينهم ربا بالباطل .

وباستغلال حاجة المستضعفين كم أن المشاهد مرعبة والظلمات متكاثفة وأهل الجحيم يجأرون ألما وأعوان الخدمة فى الجحيم لهم أشكال عجيبة يطالعها الشاعر فى رعب وعجب: منهم نصف حصان ونصف إنسان.. أو نصف امرأة ونصف طير.. حتى الأشجار ليست بالأشجار: لقد التقط الشاعر الزائر غصنا منها وحين كسره إذا بفرع الشجرة يقطر بالدماء.

هل هناك درك أسفل وأدنى من مستوى القتلة والسفاحين والمرابين والملاحدة؟ نعم هناك الدرك الثامن من الجحيم انفيرنو حيث الغشاشون والمنافقون ومن يرتكبون بغاء الجسد وأيضا بغاء الروح والفكر. يستوى فى ذلك من تبيع جسدها أو من يبيع رأيه وروحه وفكره فى أسواق الطمع والرياء المنضوية أبدا فى الحياة الدنيا.

أما أسفل مراتب الجحيم ـ الدائرة رقم ٩ فقد تصورها الشاعر الزائر وقد خصصت لأحقر الخونة على مر التاريخ قابعون فى قعرها وقد تجمدوا فى قوالب من جليد.. أشهرهم يهوذا الذى خان السيد المسيح.

ومعه أيضا بروتوس الذى خان ولى نعمته القائد الرومانى يوليوس قيصر.. ومع هؤلاء جميعا يضم الدرك الأسفل من النار إبليس أولوسيفر ـ رمز كل ما هو شر وكل ما هو خطيئة وهو الذى وسوس فى نفوس البشر بالغواية حتى اقترفوا كل ما يعاقبون عليه فى جوف «سفر» (الإنفيرنو) من ذنوب.

. لم يعد إذن من زيادة لمستزيد.. تشابكت أيدى الشاعر الزائر وأيدى دليله الشاعر فرجيل فكان أن طفا الاثنان من القاع إلى السطح حيث ألفيا شاطئا آمنا فاتخذا طريقهما صوب أعراف المطهر حيث تتحول أبيات الكوميديا الإلهية من شعر ينضح كآبة وتشاؤما إلى نشيد يشع بالأمل:. كيف لا والمطهر هو السبيل المفضى بالشاعر إلى روح الحبيبة بياتريس التى ستأخذ بيده إلى سدرة المنتهى عند الملأ الأعلى حيث السلام الأبدى وحيث النعيم والخلود.

الرموز.. الرؤى.. الدلالات

زمن الكوميديا الإلهية بأناشيدها المئة يستغرق أربعة أيام فقط.. وهناك بطلان يرتبطان بهما وكلاهما يحمل اسم دانتى: الأول هو دانتى الشاعر مبدع هذا العمل الكبير.

والثانى هو دانتى المسافر فى رحلة الخيال عبر مشاهد العالم الآخر الثلاثة وهو هنا يرمز إلى البشرية كلها.. إلى فضول الإنسان،

إلى أن يلقى نظرة مهما كانت موجزة أو خاطفة على عالم ما بعد الحياة. وبقدر ما ان دانتى الخيالى هو رمز البشرية فى حال شغفها الفضولى فإن بياتريس، التى تدل على الفردوس وهى رمز البشرية فى أرفع مراتب سموها الروحى:

كم أحبها الشاعر بعمق وإخلاص لكنها رحلت فى ميعة الخامسة والعشرين فآثر أن يخلد ذكراها فى سطور ملحمته الكبرى، وربما خالط إبداع الشاعر نوعاً من أنانية الثأر لنفسه من مبغضيه الذين أساءوا إليه فحكموا عليه بالنفى من فلورنسة ها هو ينتقم منهم فيذكر كل واحد باسمه ويعرض فى أشعاره ما ارتكبه خصومه من أخطاء وخطايا ولا يتورع عن أن يضعهم فى قاع جهنم وكأنه يحقق ما يوصف فى معاجم النقد بأنه «العدالة الشعرية».

حيث يعمد الفنان إلى إنصاف من يهوى وإلى إدانة من لا يجب (هكذا فعلها نجيب محفوظ فى روايته بعنوان «أمام العرش» التى حاكم فيها - بريشة الفن الرفيع سلسلة من زعماء بلده وأصدر عليهم ما شاء له الله والفن أن يصدر من أحكام).

لقد اهتم نقاد دانتى بجزء الجحيم فى ملحمة الكوميديا.. بعضهم اهتم بدقة المشاهد وروعة التصوير وبأسلوب الشعر.. والبعض الآخر اهتم بالمغزى الأخلاقى الذى حققه الشاعر بغير مواعظ خطابية زاعقة أو مباشرة ويتمثل هذا المغزى فى أن الإنسان لا يدرك نقاء المطهر ولا بهاء الفردوس إلا بعد أن يعاين بنفسه ما آلت إليه - فى غياهب الجحيم - أحوال الخطاة والمذنبين والمكابرين والمنكرين والمنافقين والمتاجرين فى الأجساد والنفوس والمواقف والآراء.

●●

العمل فى ذاكرة الإنسانية

شأن أى عمل إبداعى كبير.. تعكس الكوميديا الإلهية عدة أوجه للأهمية.. سواء بوصفها عملا شعريا كان بمثابة البناء التأسيسى فى معمار اللغة والثقافة الإيطالية، أو بوصفها عملا أخلاقيا من مستوى رفيع .

حيث تعبر عن صراع الخير والشر وتنتصر لنصر الخير فى الإنسان وتدين آفات الخطايا التى يرتكبها البشر وفى مقدمتها النفاق.. أو بوصفها وثيقة سياسية تاريخية عبرت عن التيارات التى كانت تتفاعل وتضطرم فى شبة جزيرة إيطاليا على عهد دانتى والتى أصابت الشاعر شخصيا فى حياته ومستقبله حين أبعدته عن مدينته المحببة ورفضت عودته إلى ربوعها .

على أن جمهور النقاد والمحللين لاحظو مدى إقبال القراء عبر العصور على جزء «الجحيم «من ثلاثية الكوميديا الإلهية ومنهم من يعزو ذلك إلى قدرة الشاعر فى إجادة عرض المواقف ورسم صورة شديدة الجذب من حيث غرابتها وجدّتها لأحوال ساكنى نار الله الموقدة وإتقان حبك المواقف الدرامية وفنية تصوير الضعف الإنسانى وربط شخوص الجحيم برموز السياسة والتاريخ.

فضلا عن مهارة الشاعر فى استخدام جميع الحواش البشرية فى مضمار العرض والتصوير بين مشاهد مرعبة للنظر وروائح تتقبض معها النفس وأصوات تتناهى أصداؤها، وسط دياجير المكان نادبة بالعويل، فضلا عن أفراد كانوا بشرا أو كانوا سادة أو طغاة فى حياتهم الأولى.. ولكنهم تجمدوا وسط ركام الثلج.. لأنهم كانوا من القوم الخائنين.

المبـدع

دانتى من أبناء فلورنسه، وهى من أجمل مدن إيطاليا إذ تزدان بأبدع فنون المعمار بل توصف أحيانا بأنها عاصمة الرينسانس - عصر النهضة والاستنارة التى كانت التمهيد الزمنى والحضارى والعلمى لكل ما تميزت بل وتفوقت به أوروبا فى العصر الحديث، عاش فى الفترة بين عامى ١٢٦٥ و١٣٢١ وكان فى طليعة مثقفى عصره ومن أعلام من كتبوا باللاتينية فى مجالات الفلسفة والعلوم الدينية وأصول الحكم وعلم التاريخ.

لكن لعل أهم إسهاماته بالنسبة لوطنه هو أنه كتب ملحمته الكبرى باللغة الإيطالية، وبفضل هذا الانجاز فقد اتاح للإيطالية ما يمكن أن نسميه «الفطام» عن اللاتينية ومن بعدها استقلت اللغة الإيطالية ونضجت واشتد عودها لغة قائمة بذاتها للعلم والثقافة والفكر والإبداع.

يكاد قارئ الكوميديا الإلهية، فى أصلها أو فى ترجماتها الرصينة - يستشعر خيطا أثيرا من شجن يتردد فى أوصال العمل الفنى الكبير.. إنه طائف الحنين الدافق إلى مسقط رأس الشاعر فى فلورنسا بعد أن حكموا عليه بالنفى إلى خارجها.. وربما جاءت كوميديا دانتى لتعبر عن شعور مركب بوطأة المنفى:

فالمبدع الإيطالى منفى عن مراتع صباه الأولى وموئل غرامه المشبوب ومواقع ذكرياته منذ فترات النشأة واليفاعة.. ثم ها هو يكتب عملا إبداعيا عن منفى الروح التى تجتاز رحلة طويلة من معاناة المشاهد واجتياز الأعراف من ظلام الجحيم عبر برزخ المطهر إلى

حيث تؤوب الروح إلى ملاذ الفردوس كى تخلد إلى سلام تظلله نعمة الأمل فى الغفران.

●●

يذكر محمد الخولى أنه فى خضم أدب الرحلات تتعدد الموضوعات ، وتتنوع أغراض الرحلات وأشكالها، ويحصل الاختلاف أو الائتلاف بين الشكل والمضمون ، حيث يتوضع أدب الرحلات بين الخيال والواقع وقد تكون الرحلات حقيقية دينية كالرحلة السماوية الأولى من الجنة إلى الأرض بهبوط آدم ثم رحلته من الهند إلى مكة المكرمة، وقد سلك طريقا غير الطريق التى سلكتها حواء من جدة إلى مكة المكرمة قبل لقائهما على جبل عرفات، وانتقالهما إلى وادى مِنى حيث تحققت الأمانى بينهما.

وقد تكون الرحلات أو علمية وجغرافية كرحلة ابن بطوطة ورحلة السندباد البحرى فهذه الرحلات المقيدة بقيد الزمان والمكان فضلاً عن الإدراك الحسى الذى تميزت به من وصفٍ لأقوام محسوسين وجغرافية أوطانهم وطبائعهم وتكويناتهم الجسمانية والنفسية والاجتماعية وسلوكياتهم الحياتية . وقد تكون خيالية أو خارقة للعادة معبرة عن الإحساس الداخلى فهى فوق مقدرة الناس العاديين على إدراكها بحواسهم فصلاً عن إدراكها بخيالهمً ، فتكون معجزةً محيرةً لهم .

ومن المعجزات رحلة الإسراء والمعراج التى اختصً بها نبى الهدى محمد تلك الرحلة التى أذهلت طغاة المشركين فسلموا بما حصل بعد جدال أدى إلى الإيمان ، وشكل الإسراء والمعراج نقلة روحية تبعتها نقلة أدبية أسفرت عن الكثير من النصوص الأدبية التى بنيت على

موضوع الرحلة الروحية غير الجسدية ، وفى هذا الموضوع أملى أبو العلاء المعرى رسالة الغفران كجواب على سؤال ورده من ابن القارح الحلبى ، ولاقت رسالة المعرى شهرة ، وقامت الرسالة بسياحة عبر الترجمة انطلاقا من اللغة العربية إلى غيرها من اللغات العالمية .

وتكررت الرحلة التخيلية بعد ٢٦٥ عاماً على يد شاعر إيطاليا الكبير دانتى أليغيرى الذى طبق بمؤلفه الكوميديا الإلهية الآفاق فى محاولته إيجاد أجوبة عن تساؤلات تشغل العقل البشرى منذ القدم ومحاولة إدراكه لما بعد الموت وتقييمه نتائج صراعه الداخلى والخارجى بين الخطيئة والتوبة والثواب والعقاب والعدالة والظلم والرحمة واللعنة.

وكى تكون الموازنة بين الجحيم فى رسالة الغفران والجحيم فى الكوميديا فى الإلهية أقرب إلى الموضوعية يتحتم علينا التعرض لمؤلفات كان لها قصب السبق فى هذا المضمار وكانت الباعث والمحرض ـ لكلا العملين الأدبين الفريدين ، بل كانت المنهل لهما فى الشكل العام وبعض التفاصيل فى الخاص ، سواء أكان ذلك التحريض أو المساهمة جزئية أم كليةً على الرغم من الفجوة الزمنية الكبيرة بينها ، فأحدهما سابق للآخر.

والآخر كان مشعلاً لإنارة طريق الأول للوجود ومعرفاً به نافثاً عنه غبار النسيان .

فأبو العلاء ولد عام ٩٧٥ وكانت وفاته عام ١٠٥٧م . ودانتى ولد عام ١٢٥٦ وكانت وفاته عام ١٣٢١م ، فهناك مسافة زمنية قدرها مئتان وخمسة وتسعون عاماً .

فكيف حدث هذا التلاقى فى الإطار العام لكلا الرحلتين وهل اقتبس اللاحق من السابق ؟

لعل الإجابة تحملها فى طياتها هذه الدراسة البسيطة .

- أَبو العَلاء المَعَرى (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ - ١٠٥٧ م) فى سطور:

أحمد بن عبد الله بن سليمان ، التنوخى المعرى . شاعر وفيلسوف ، ولد ومات فى معرة النعمان ، كان نحيف الجسم، أصيب بالجدرى صغيراً فعمى فى السنة الرابعة من عمره . قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ فأقام بها سنة وسبعة أشهر، وهو من بيت كبير فى بلده، ولما مات وقف على قبره (٨٤) شاعراً يرثونه ، إذا أراد التأليف أملى على كاتبه على بن عبد الله بن أبى هاشم، وكان يحرم إيلام الحيوان ، ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة ، وكان يلبس خشن الثياب ، أما شعره وهو ديوان حكمته وفلسفته ، فثلاثة أقسام: (لزوم ما لا يلزم) ويعرف باللزوميات ، و(سقط الزند) و(ضوء السقط) وقد ترجم كثير من شعره إلى غير العربية وأما كتبه فكثيرة وقد فهرسها فى معجم الأدباء . وقال ابن خلكان: "ولكثير من الباحثين تصانيف فى آراء المعرى وفلسفته " ومن تصانيفه كتاب (الأيك والغصون) فى الأدب يربو على مئة جزء ، (تاج الحرة) فى النساء وأخلاقهن وعظاتهن ، أربعمئة كراس و(عبث الوليد) شرح به ونقد ديوان البحترى ، و(رسالة الملائكة) صغيرة ، و(رسالة الغفران)، و(الفصول والغايات)

و (رسالة الصاهل والشاحج) و(رسالة الحروف) و(الرسالة الإغريضية) و(الرسالة المنيحية) .

- دانتى إليغيرى (1321 - 1265) Dante Alighieri فى سطور:

شاعر إيطالى ، يعد من الشخصيات الأبرز فى عالم الأدب الذى أعُجب بخياله الدينى وإنجازه الفكرى ، ولد دانتى فى فلورنسا ، حيث عاصر فى شبابه أحداثها الخطيرة ، ودفع ثمنها .

كان لقاؤه فى عام ١٢٧٤ مع بياترس Beatrice المرأة التى أحبها ، ومجدها فى أعماله الأخيرة .

على الرغم من أن أعمال دانتى تكشف عن معرفتة الموسوعية التى ضمت جميع علوم عصره إلا أن ، القليل يعرف عن نشأة دانتى الثقافية .

وأول أعمال دانتى الأدبية كانت " رواية السيرة الذاتية "La Vita Nova وبعد وفاة بياترس Beatrice بقليل كتب "الحياة الجديدة The New Life ". مزاوجاً بين الشعر والنثر عبر دانتى عن حبه لبياتريس Beatrice وعن عزيمته المطلقة فى كتابة عمل جديدٍ بأن يكون تذكاراً لها .

دانتى كان ناشطاً فى الحياة الساسية العاصفة فى فلورنسا ، وانتخب واحداً من الحكام الستة أو قضاة فلورنسا السابقين حيث شغل هذا المنصب لشهرين .

فى فلورنسا أصبح التنافس بين حزبى Guelph و Ghibellines حاداً جداً وضمن حزب Guelph نفسه، وكان دانتى أحد المنشقين عنه ، نفى دانتى فى عام ١٣٠٢ خارج فلورنسا لسنتين وغرم بدفع غرامة باهظة ، وفى حال فشله سيحكم عليه بالموت حال عودته إلى فلورنسا .



قضى دانتى جزءاً من عقوبة نفيه فى فيرونا Verona والجزء الأخر فى مدن الشمال الإيطالى .

وفى عام ١٣١٦ عرضت فلورنسا على دانتى العودة وفق شروط خصصت للمجرمين ، على أن يطلب المغفرة والسماح ، لكن دانتى رفض العودة ، ما لم يرد إليه شرفه وكرامته ، وقضى آخر سنى حياته فى منفاه فى مدينة رافينا Ravenna إحدى مدن الشمال الإيطالى .

- رحلة أبى العلاء المعرى الأدبية فى رسالة الغفران:

أول ما ينبغى التذكير به أن المعرى لم ينشئ كتابه من تلقاء نفسه ، وإنما كرد على رسالة وصلته من ابن القارح ?تتضمن ، إلى جانب مواضيع مختلفة ، حديثا عن عدد من الزنادقة والمبتدعين .

وحسب عادة القدماء ، فإن المعرى افتتح رسالته بالإشادة بفضل ابن القارح: زوقد وصلت الرسالة التى بحرها بالحكم مسجور، ومن قرأها مأجور، إذ كانت تأمر بتقبل الشرع ، وتعيب من ترك أصلا إلى فرع. وألفيتها مفتتحة بتمجيد، صدر عن بليغ مجيد ... وفى تلك السطور كلم كثير، كله عند البارى - تقدس - أثير. فقد غرس لمولاى الشيخ الجليل - إن شاء الله - بذلك الثناء، شجر فى الجنة لذيذ اجتناء .... وتجرى فى أصول ذلك الشجر، أنهار تختلج من ماء الحيوان، والكوثر يمدها فى كل أوان؛ من شرب منها النغبة فلا موت.. ويمد إليها المغترف بكؤوس من العسجد، وأباريق خلقت من الزبرجد.

هكذا انطلق فى وصف الجنة . الكلمة الطيبة التى صدرت عن ابن القارح تمجيدا لله ، تولدت منها شجرة طيبة ، وهذه الشجرة بدورها

أفسحت المجال لظهور الجنة... ولإنشاء رسالة الغفران ؛ على الأقل قسمها الأول والأهم (ما يقرب من مئتين وخمسين صفحة) ، الذى يصف فيه المعرى، إضافة إلى مشهد القيامة، تجوال ابن القارح فى الفردوس وزيارته لأصحاب السعير. أما القسم الثانى، أى الرد على ما جاء فى رسالة ابن القارح

(زهاء مئتى صفحة) ، فإنه لا يبدأ إلا عندما يفرغ المعرى من وصف الجنة والنار.

بعد هذا التذكير، يتبين لنا أن استحضار الآخرة ووصفها عبارة عن استطراد ، ولعله لم يكن فى حساب المعرى، فلم يأت على الأرجح نتيجة تخطيط مسبق. فكأن المعرى أخذ على غرة وفوجئ بفيض الكلام ، فانساق مع حركته بنشوة عارمة . بدأ بالحديث عن الشجرة الطيبة فنسى موضوعه ، أى الرد على تساؤلات ابن القارح ، وانخرط فى عرض طويل لمشاهد من العالم الآخر.

إن المقدمة التى كان من المنتظر أن تتركز فى بضعة أسطر أو بضع صفحات قد تمددت وتضخمت وصارت فى غاية الأهمية ، بحيث أن القارئ يندهش ويحتار عندما يصل المؤلف إلى القسم الثانى، إلى الموضوع (الأساس) للرسالة ، ألا وهو الرد على ابن القارح. هكذا فإن مركز الرسالة، يعنى القسم الثانى، صار بالنسبة لنا ثانويا وهامشيا، بينما القسم الأول، الذى هو مجرد استطراد، صار ذا أهمية بالغة.

إذاً فرسالة الغفران رحلة أدبية طويلة فى عالم الخيال بدايتها على طريق الغفران عند أبى العلاء انطلاقا من الكلمة الطيبة التى تشبه الشجرة الطيبة ذات الأصل الطيب ، والفروع الممتدة نحو الأعلى التى تعطى ثمارا نافعة ، وهى رمز الخير المتوافر فى جنات

النعيم ، وتنتهى الرحلة إلى الفاجعة بالكلمة الخبيثة التى تؤدى إلى الجحيم.

وتقوم رحلة المعرى على الكثير من الحوارات الأدبية مع الشعراء والأدباء والناس العاديين الذين سبقوا المعرى إلى العالم الآخر، وتزخر بصور أحوال أولئك الراحلين حسبما تخيله المعرى، وفيها محاكمات تستمد أحكامها بناء على بينات مما قاله الشعراء السابقون ، وتتخذها حجة تقرير مصيرهم ، فإما إلى النعيم وإما إلى الجحيم باعتبار حصائد ألسنتهم لأن الجزاء من جنس العمل إلا ما ستر الله وغفر.

رسالة الغفران رحلة تخيلها أبو العلاء فى الجنة وفى الموقف وفى النار كى يحل - فى عالم خياله - مسائل ومشاكل ضاق بها فى عالم واقعه ، من العقاب والثواب وتناسخ الأرواح والغفران .... مع كثيرٍ من المسائل الأدبية واللغوية ، يوردها مورد الساخر تارةً ، والناقد اللغوى المتبحر تارةً أخرى وليس العالم الغيبى فيها إلا قالباً عاماً لا رمزية فيه لعب فيه خيالُ أبو العلاء دوراً فريداً فى الأدب العربى .

وفى الرسالة كثير من الحكايات العارضة التى من شأنها أن تضعف القيمة الفنية القصصية للرسالة .

لا شك أن رسالة الغفران تشبه الكوميديا الإلهية لدانتى فى نوع الرحلة وأقسامها وكثير من مواقفها .

إذ أن الدراسات الاستشراقية المقارنة بين الرحلتين أسفرت عن اكتشاف التشابه الكبير بين نصوص الكتابين ، وأورد المستشرقون نصوصا من "الكوميديا" تكاد تكون منقولة بالنص من رسالة المعرى

صاحب فضل السابق على اللاحق، مع ملاحظة أن دانتى قلب الموضوع رأسا على عقب، فرحلة المعرى فى رسالة الغفران تبدأ بزيارة الجنة ثم زيارة الجحيم ، ورحلة دانتى فى "الكوميديا الإلهية " تبدأ بالجحيم أولا، ويحاور المعرى فى رحلته "ابن القارح" ويحاور دانتى فى رحلته الشاعر الرومانى فرجيل.

ظل الإيطاليون يفتخرون على الأدباء العالميين بالكوميديا الإلهية عدة قرون، ويدعون أنها إبداع إيطالى غير مسبوق فى عالم الأدب ، ولكن الفرحة الإيطالية لم تستمر إلى ما لا نهاية، فقد اكتشف المستشرق الإنجليزى نيكلسون مخطوطة رسالة الغفران للمعرى، ونشر ملخص الجزء الأول منها سنة ١٩٠٠م، ثم نشر ملخص الجزء الثانى سنة ١٩٠٢م ، وبذلك أتيحت للباحثين فرصة الاطلاع على رسالة الغفران بعد ضياعها عدة قرون من الزمن. ونشر رسالة الغفران إبراهيم اليازجى سنة ١٩٠٧م ، فى مطبعة هندية فى القاهرة، ثم نشرها كامل كيلانى عن طريق دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٢م ، ثم حققتها بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن ونشرتها دار المعارف المصرية سنة ١٩٥٠م ، ثم نشرها خليل هنداوى فى بيروت عن دار الآداب سنة ١٩٦٥م، وصدرت لها عدة طبعات أخرى .

بعد الاطلاع على رسالة الغفران بدأت بحوث الأدب المقارن ، فكشفت علاقة رسالة الغفران بما قبلها وما بعدها من رحلات بين الواقع والخيال ، فتذمر الإيطاليون من اكتشاف مخطوطة رسالة الغفران ، وشعروا بزوال أحقيتهم فى الريادة الأدبية بالكوميديا نصا وفكرة وروحا. ووقعت ضجة كبرى سنة ١٩١٩م ، ففى تلك السنة نشر المستشرق الإسبانى بلاسيوس دراسة عنواها "الإسلام والكوميديا

الإلهية" إذ أثبت أن "الكوميديا الإلهية" لدانتى الإيطالى تقوم على الاقتباس من "رسالة الغفران" للمعرى ، فغضب الإيطاليون واعترضوا، وادعوا: انه لا يوجد دليل على معرفة دانتى للغة العربية التى كتبت فيها رحلة المعرى ، وادعوا أن رحلة المعرى كانت مغمورة منسية على الصعيد العالمى .

إلا أن كثيرين من الباحثين يعقدون مقارنة بين المعرى ودانتى الإيطالى فيرون أن الأول بكتابه رسالة الغفران ألهم الثانى كتابه الكوميديا الإلهية ، إلا أن هذه المقارنة ، كما يقول كيليطو، لاجدوى منها لأن دانتى لم يكن بوسعه الإطلاع على رسالة الغفران التى لم تترجم إلى أية لغة، بل لم تحدث حتى فى الأوساط الأدبية العربية نقاشاً من شأنه إثارة فضول الإيطاليين أو غيرهم من الأوروبيين". إلا أن عملية التقريب بين العملين كان لها مفعول سحرى مباشر، إذ خرجت رسالة الغفران من عزلتها الطويلة ورفعت من ثمنها لدى فئة واسعة من المتأدبين العرب وغير العرب إلى حد أنه يمكن القول بدون مبالغة أن دانتى أثر فى المعرى. أجل كتب دانتى الكوميديا الإلهية لثلاثة قرون بعد رسالة الغفران ، ومع ذلك فإن تأثيره واضح فى نظرتنا لمؤلف المعرى وطريقة تناولنا له .

إننا نقرأه باحثين فى صفحاته ومنقبين فى أرجائه عن دانتى! لم يعد بإمكاننا تناوله كما تناوله القدماء ، وبالأحرى كما نظر إليه المعرى . فى رسالة الغفران لا يلتقى ابن القارح بالشعراء العرب فقط، وإنما أيضاً بالشاعر الإيطالى . أن دانتى حاضر فى كل مشهد منها، والحوار بينه وبين المعرى لا يتوقف لحظة. لم نعد قادرين على قراءة رسالة الغفران بدون الكوميديا.

ـ موازنة بين شخصيتى أبى العلاء ودانتى:

وإذا كان الدافع لكتابة رسالة الغفران دافعاً تصادفياً اتفاقياً، تمثَّل فى رسالة ابن القارح إلى المعرى، وفى نمو فكرة رسالة الغفران إبان البدء فى تدوين رسالته الجوابية ـ أى أن رسالة الغفران لم تكن فى ذهن أبى العلاء عندما بدأ ردَّه ، بل تبلورت بعد أن بدأ ردَّه ـ فإن دافع دانتى لكتابة الكوميديا الإلهية دافع محض ذاتى. فالشقاء المذكور تطور لدى دانتى ، على ما يبدو ، إلى درجات قصوى ، آخذاً صورة جحيم أرضى ، ملىء بالعذابات الجَوَّانية المريرة. وهذا ما دفع دانتى إلى نشدان الخلاص الذاتى وطلبه ؛ وكان لهذا انعكاسه فى الكوميديا الإلهية . "فلقد تنقَّل فى الجحيم ومستوياته ، إلى المطهر ومستوياته، إلى النعيم ومستوياته، التى تنتهى بالنعمة الإلهية ، والنور الإلهى الخالص ، والسعادة الأبدية ، والاتصال الشامل بالفضائل والمعرفة الكلية ." وكان التنقل الخيالى الموصوف مترافقاً مع التنقل الوجدانى الذاتى عبر تلك المراحل والمستويات.

وبالطبع يمكن القول إن أبا العلاء المعرى مفكِّر حقيقى، وإن أدوات المعرفة لديه هى العقل والحواس. أما دانتى فليس مفكِّراً، وإنتاجه الأدبى ليس إنتاجاً فكرياً، بل هو نتاج طبيعته وبنيانه الدينى الذى يفرض نفسه على عقله وحواسه. فالعقل والحواس لديه موضوعان فى خدمة طبيعته الدينية، ولا يمتلكان أى استقلالية. وفى الكوميديا الإلهية تدل صورة دانتى الضائع فى غابة مظلمة على عدة أمور: "الانفصال الروحى عن الله، والفوضى فى إيطاليا ، والحياة الشريرة التافهة" . وضياع دانتى ضياع بسيكولوجى حقيقى؛ بينما لا يمكن التحدث عن أى ضياع لدى أبى العلاء المعرى الذى كان مالكاً زمام

أمره. والتردّى فى الأحوال الاجتماعية والأخلاقية والسياسية فى البيئة التى تتحوّطه أدى به إلى إعمال الفكر، ونقد الواقع الحياتى القائم، أى إلى التفكير والتنظير البنَّاء، وليس إلى استقطابه أو إلحاقه فى تيارها إلى الحدّ الذى يصبح فيه مستلباً، غير قادر على الخلاص من شباكها. فى حين أن وقوع دانتى فى شباك بيئته، وتورطه فى الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، أدّت إلى تحوله إلى جزء منها. وكأنى به فى الكوميديا الإلهية ناطق بلسانها، ولكن بطريقة لا تعتمد التفكير والتنظير البنَّاء، بل تقفز قفزاً إلى العالم الغيبى؛ وهى تدل على إخفاق فى التعامل مع المعطيات البيئية القائمة.

وتصورات دانتى عن الشرق العربى تدل على نقص فى معرفته، ونقص فى مقدراته الفكرية. وهو يدلّل على تزمُّته، وعلى أن تزمته موقف داخلى دائم ودالّ على نقص المعرفة وعدم القدرة على إكمال المعرفة، وعلى وجود عطب شامل فى القدرة على التفكير الموضوعى.

وروح دانتى مجبولة على هيئة غريزة مكوَّنة من مادة مضغوطة، لا تنفك عن الانطلاق المتواصل الذى هو المتنفَّس الوحيد لها، فتقرِّر، دون تدخل حقيقى من العقل، "أن العشاق الزناة فوق المحتالين والنصابين، لأن ذنوبهم هى تطبيق خاطئ للحب، الذى هو خير بحدّ ذاته، بينما الاحتيال شر بأكمله"، و"إن تأكيدنا على الاستقرار، وكوننا ضد العنف، يؤدى بنا إلى اعتبارنا سارق البنك أكثر من أمين الصندوق الهارب. ودانتى يذكِّرنا أن خيانة الثقة أسوأ أخلاقياً من الأخذ بالقوة السافرة." وما هذه الأحكام الأخلاقية غير إعادة إنتاج للأخلاقية الموجودة فى الواقع العيانى ، وأن يكون المرء عاشقاً زانياً لا

يعنى أنه غير منتمٍ إلى طائفة المحتالين والنصابين، وما هو غير أخلاقى يحتال على القانون الأخلاقى الذى أقرَّه وآمن به. وبالمثل، فإن الذى يأخذ بالقوة السافرة ينطوى على استعداد بسيكولوجى يؤدى به إلى خيانة الثقة. والإشكال الحقيقى ليس أن يكون المرء على هذه الشاكلة، بل أن يكون مدفوعاً بقوة بسيكولوجية ذاتية تؤدى به إلى الإتيان بتلك السلوكات الواقعة فى نطاق الأخلاقية. وليس من المعقول تقبُّل دعوات دانتى الرافضة للعنف إذا لم يكن غض الطرف عن العنف الموجود فى بسيكولوجياه الذاتية ممكناً.

القول فى أثر رسالة الغفران فى الكوميديا الإلهية:

عندما يفكر المرء فى اطِّلاع دانتى (١٢٦٥-١٣٢١) على رسالة الغفران للمعرى (٩٧٤-١٠٥٨) وتأثره بها فى مؤلَّفه الكوميديا الإلهية فإنه يكتشف، فى أعقاب القراءة النقدية، التباينَ الكبير بين الشاعرين والكاتبين؛ وهو يكتشف، كذلك الأمر، أن قراءة دانتى لمؤلَّف المعرى لا يمكن أن تكون قراءة باعثة على رضائه.

فالمعرى فى رسالة الغفران مفكِّر، وخيالُه واقع تحت سلطان التفكير الحر، ومؤلَّفه ينتمى إلى فترة زمنية فى التاريخ العربى مختلفة تماماً، من حيث مضمونها الثقافى والفكرى، عن الفترة الزمنية ذاتها فى التاريخ الأوروبى. وطبيعة المعرى طبيعة مفكِّر حقيقى، وأهدافه فى رسالة الغفران تتفاوت، من البحث التأملى الدقيق، إلى تحطيم القهر الاجتماعى، إلى الهزء والتهكم. والكتاب ذاته فكرى خيالى، ونقدى أدبى، وذو غايات محددة وواعية لذاتها. وأفكار المعرى مفصولة عن فكره: أى إن فكر المعرى قادر على رؤية أفكاره؛ وطاقة التفكير الموضوعى لديه حاكمة، ولا توجد أية طاقة

أخرى تتحكم بها. والمرونة الفكرية الكلِّية التى يتمتع بها تجعله قادراً على رؤية الماضى والحاضر، وعلى الاستشراف المستقبلى.

فى مقابل هذا كله، كان خيال دانتى ذاتياً، وصوفياً مدرسياً (سكولستياً)؛ ومؤلَّفه الكوميديا الإلهية ينتمى إلى العصور الوسطى انتماءً حقيقياً. ودانتى لا ينتمى إلى عالم الفكر، بل إلى عالم التصوف المدرسى الذى فرضته عليه بيئة القرون الوسطى؛ وهو نتاج لبيئة لاهوتية، وناطق بلسانها ـ وهى البيئة التى كوَّنته وشكَّلته، إلى درجة يمكن معها التشكيك فى أصالته كمفكر قادر على الانفصال عن بيئته ورؤيتها رؤية موضوعية، وبالتالى توافر القدرة على نقدها البنَّاء. ونتاجه الأدبى غير معتمد على التفكير الواعى لذاته؛ وأفكاره فاقدة للاستقلالية، وموضوعة فى خدمة طبيعته الصوفية المدرسية. وافتقاد دانتى للمرونة الفكرية افتقادٌ كلِّى، وهو مأخوذ بالتصورات الصوفية المدرسية، وعائد بها إلى التصورات التى رافقت نشأتها الأولى. وهى نقطة ليست فى صالحه أبداً، وهى تدل على أصولية حقيقية وتطرف جَوَّانى عميق.

٤ ـ التشابهات التى دفعت إلى القول بالاقتباس:

من خلال دراسة متأنيةٍ مدققة لجحيم الغفران عند المعرى تبدو لنا الصور التالية فى الجحيم وهى:

١ ـ صورة التعذيب باللهب:

شقيق الخنساء (صخر) والنار تضطرم فى رأسه وأخته الخنساء تطل عليه من أقصى الجنة من مكان مطل على جهنم وتقول: أحببت أن أنظر إلى صخرٍ فاطلَّعت فرأيته كالجبل الشّامخ والنار تضطرم فى

رأسه، فقال لى؟ لقد صحَّ مزعمك فىَّ يعنى قولى:

و إن صخراً لتأتم الهداة به

كأنه علمٌ فى رأسه نار

وفى جحيم دانتى تقابلنا صورة المعذبين باللهب والنار تحيط بهم:

كذلك الأمر فى هذه الشعلات الملتهبة

فلا أحد يستطيع أن يرى اللص

فكل شعلة تلف لصاً كما لو كان يتخفى

قال مرشدى وقد لاحظ دهشتى:

"فى هذا اللهب توجد أرواحٌ ، فكل خاطئ لف نفسه بشعلة عذابه"

٢ ـ صورة إبليس ساخراً وهو يضطرب فى السلاسل والأغلال:

فيطلَّع فيرى إبليس، لعنه الله، وهو يضطرب فى الأغلال والسّلاسل ومُقامعُ الحديد تأخذه من أيدى الزَّبانية . فيقول: الحمد لله الذى أمكن منك يا عدو الله وعدوَّ أوليائه! لقد أهلكت من بنى آدم طوائف لا يعلم عددها إلاّ الله. فيقول: من الرجل؟ فيقول: أنا فلان ابن فلانٍ من أهل حلب، كانت صناعتى الأدب، أتقرَّب به إلى الملوك. فيقول: بئس الصَّناعة إنَّها تهب غفَّةً من العيش، لا يتَّسع بها العيال، وإنَّها لمزلَّةٌ بالقدم وكم أهلكت مثلك! فهنيئاً لك إذ نجوت ، فأولى لك ثمَّ أولى! ..

وإبليس يسمع ذلك الخطاب كلُّه فيقول للزَّبيانية: "ما رأيت أعجز منكم إخوان مالكٍ! " فيقولون: " كيف زعمت ذلك يا أبا مرّة؟ " فيقول: " ألا تسمعون هذا المتكلِّم بما لا يعنيه؟ " قد شغلكم وشغل غيركم عمّا هو فيه! فلو أنَّ فيكم صاحب نحيزةٍ قويَّةٍ، لوثب وثبةً حتى يلحق به

فيجذبه إلى سقر. فيقولون: لم تصنع شيئاً يا أبا زوبعة! ليس لنا على أهل الجنَّة سبيلٌ .

فإذا سمع، أسمعه الله محأَّبه، ما يقول إبليس، أخذ فى شتمه ولعنه وإظهار الشَّماتة به.

فيقول عليه اللَّعنة: ألم تنهوا عن الشَّمات يا بنى آدم؟ ولكنَّكم، بحمد الله ، ما زجرتم عن شىء إلاَّ وركبتموه. فيقول ، واصل الله الإحسان إليه: أنت بدأت آدم بالشَّماتة، والبادىء أظلم .

ألا ترى أن موقف إبليس وما نطق به أبو العلاء على لسانه موقف الساخر المتهكم وكأنه ليس فى شغل عنهم بعذابه وما نزل به من النقم ، فضلاً عن ضعف تصوير عذاب أبى الخطايا ، وفى هذا تعريض من أبى العلاء لأمرٍ ما .

و مثله تعريض دانتى فى مشهد مناظرة حواره وفرجيل مع كابانيوس فى جحيم الكوميديا عندما يستهزئ بالمطر النارى والعذاب النازل به:

- من هذا الشبح الجبار المستلقى على الإفريز ، وبوجهه يقابل النار محتقراً

كأن المطر النارى لا ينال منه ؟

عندئذٍ تحدث مرشدى بلهجةٍ شديدة

ما اعتدت سماعها منه قبلاً:

" إيه كابانيوس . إن سفاهتك المتكبرة

جعلتك تتألم كأن النار في

داخلك . غضبك وحده هو

العذاب المناسب لكبريائك " .

ثمَّ يعود إلى كلام الأخطل ليؤكد استهزاءه فيقول: أنت القائل هذه الأبيات:

ولست بقائمٍ كالعير أدعو

قبيل الصُّبح: حيَّ على الفلاح!

فلست بصائمٍ رمضان طوعاً

ولست بآكلٍ لحمَ الأضاحي

ولكنِّي سأشربها شمولاً

وأسجدُ عند مُنبلجِ الصباح؟

أليس حرياً به أن يتوسع في تصوير ندمه وعذابه على أن يذكر تجديفه وهو في الجحيم .

٣ ـ فكرة تحريم الماء والرزق على الكافرين في جهنم:

يقول إبليس " وإنَّ لي إليك لحاجةً ، فإن قضيتها شكرتك يد المنون.

فيقول: إنّي لا أقدر لك على نفعٍ ، فإن الآية سبقت في أهل النَّار، أعني قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ففي جحيم الغفران يتحدث أوس بن حجر إلى ابن القارح عما يكابده من ألوان العذاب فيقول: " قد بلغني أنَّ نابغة بني ذبيان في

الجنَّة ، فأسأله عمَا بدا لك فلعلَّه يخبرك ، فإنَّه أجدر بأن يعى هذه الأشياء، فأمَّا أنا فقد ذهلت: نارٌ توقد، وبنانٌ يعقد ؛ إذا غلب علىَّ الظَّمأ، رفع لى شىءٌ كالنّهر، فإذا اغترفت منه لأشرب ، وجدته سعيراً مضطرماً ، فليتنى أصبحت درماً... ولقد دخل الجنَّة من هو شرَّ منِّى ، ولكنَّ المغفرة أرزاقٌ " .

وقول أبى كبير الهذلى: «كيف لى أن أقضم على جمرات محرقات ، لأرِدَ عَذاباً غَدقات ؟ إنما كلام أهل سقر ويلٌ وعويل ، وليس لهم إلا ذلك حويل».

أما فى جحيم الكوميديا فيقول سينون اليونانى البائس لماستر المتورم وهما يتخاصمان ويتلاومان فى العذاب ويتضاربان أمام دانتى وفرجيل وقد أنهكه عذاب العطش وناره التى تشوى لسانه:

٤ ـ عذاب الجوع الأبدى:

وإذا هو برجلٍ يتضوّر، فيقول: من هذا؟ فيقال: الأخطل التَّغلبىّ ، فيقول له: ما زالت صفتك للخمر، حتى غادرتك أكلاً للجمر ، كم طربت السَّادات على قولك:

أناخوا فجرّوا شاصياتٍ كأنَّها
رجالٌ من السُّودان لم يتسربلوا
فقلت: اصبحونى، لا أبا لأبيكم
وما وضعوا الأثقال إلاّ ليفعلوا
فصبوا عقاراً فى الإناء كأنَّها
إذا لمحوها، جذوةٌ تتأكّل
وجاؤوا ببيسانيَّةٍ هى، بعدما

يعلُّ بها السّاقى، ألذُّ وأسهل

تمرُ بها الأيدى سنيحاً وبارحاً

وتوضع باللّهم حىًّ، وتحمل

فلذَّت لمرتاحٍ، وطابت لشاربٍ

وراجعنى منها مراحٌ وأخيل

فتوقف أحياناً، فيفصل بيننا

غناء مغنٍّ، أو شواءٌ مرعبل

فما لبَّثتنا نشوةٌ لحقت بنا

توابعها ممّا نُعلّ وننّهل

تدبُّ دبيباً فى العظام كأنَّه

دبيب نمالٍ فى نقاً يتهيّل

فقلت: اقتلوها عنكم بمزاجها

وحبَّ بها مقتولةً حين تقتل

فقال التَّغلبى: إنّى جررت الذّارع، ولقيت الدَّارع، وهجرت الآبدة، ورجوت أن تدعى النَّفس العابدة، ولكن أبت الأقضية. فيقول، أحلَّ الله الهلكة بمبغضيه: أخطأت فى أمرين، جاء الإسلام فعجزت أن تدخل فيه، ولزمت أخلاق سفيه؛ وعاشرت يزيد بن معاوية، وأطعت نفسك الغاوية، وآثرت ما فنى على باقٍ، فكيف لك بالإباق؟

قال أوكما يقرض الجائع الخبز اليابس ـ هكذا غرز الخاطئ أنيابه فى قفا الآخر

عند قاعدة الجمجمة ملتهماً غذاءه الكريه.

لقد التهم تيديوس فى ساعة غضبه

رأس ميناليبوس بوحشية ليست أشد من وحشية من التهم الجمجمة وشرب الدم.

رفع الخاطئ شدقه عن وليمته المرعبة

ومسحهُ بشعر الرأس المدمّى

الذى لم يبقَ شىء من قفوته

يجب أن أعرّفك بنفسى أنا الكونت أوغلينو ?وهذه الوليمة المقدسة هى رئيس الأساقفة روغيرى

وسأخبرك الآن لما أنهش رأسه

صورة بشار بن برد وهو يغمض عينيه حتى لا ينظر ما نزل به من النقم فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نارٍ، وإذا هو بشَّار بن بردٍ قد أعطى عينين بعد الكمه ، لينظر إلى ما نزل به من النَّكال.

فيقول له ، أعلى الله درجته: يا أبا معاذٍ ، لقد أحسنت فى مقالك ، وأسأت فى معتقدك ، ولقد كنت فى الدّار العاجلة أذكر بعض قولك فأترحّم عليك، ظنًّا أنَّ التَوبة ستلحقك ، مثل قولك:

ارجع إلى سكنٍ تعيش به

ذهب الزَّمان وأنت منفرد

ترجو غداً، وغد كحاملةٍ

فى الحىِّ لا يدرون ما تلد!

فيقول: فما فعل بشَّار بن بردٍ؟ فإنَّ له عندى يداً ليست لغيره من ولد آدم كان يفضِّلنى دون الشعراء " ، وهو القائل:

إبليس أفضل من أبيكم آدمٍ

فتبيَّنوا يا معشر الفجار

النَّار عنصره، وآدم طينةٌ

والطِّين لا يسمو سموَّ النَّار

لقد قال الحقَّ، ولم يزل قائله من الممقوتين .

سدومية إبليس فى العذاب:

يقول إبليس لأبى: إنِّى لا أسألك فى شىءٍ من ذلك، ولكن أسألك عن خبرٍ تخبرينه: إنَّ الخمر حرِّمت عليكم فى الدُّنيا وأحلَّت لكم فى الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنَّة بالولدان المخلَّدين فعل أهل القريات ؟ فيقول: عليك البهلة! أما شغلك ما أنت فيه ؟ أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

ألا ترى أن هذه السخرية الفظة قد أفلتت من أبى العلاء وكشفت كنه معتقده ، وما فيه من فساد وكأنه يتمنى إتيان الفاحشة فى الجنة . وكأن أبا العلاء فى نفسه شىء دفين قد نطق به إبليس بلسان علائى ، يريد أن يقيس هل اللواط مباح فى الجنة كالخمر بعد أن منعت فى الدنيا وهو يرسف فى الأغلال والعذاب وليس له شغلٌ إلا التأمل والتندر ، ألا ترى أنه التجديف بعينه . يواربه ويواريه بقرع الباب والإجابة عليه .

التعاطف والإشفاق على المعذبين:

يخلو الأصمعى بحوريتين من حور الجنة فيتذكر قول امرئ القيس فى أم الحويرث وأم الرباب فيشفق عليه من خلوده فى العذاب يقول:

أعزز علىَّ بهلاك الكندىِّ، إنِّى لأذكرُ بكما ـ الحوريتين ـ قوله:

كدأبك من أمِّ الحويرث قبلها

و جارتها أم الرباب بمأسلِ

إذا قامتا تضوَّع المسك منهما

نسيم الصّبا جاءت بريا القرنفل

وقوله:

كعاطفتين من نعاج تبالةٍ

على جؤذرين، أو كبعض دمى هكر

إذا قامتا تضوَّع المسك منهما

وأصورةٌ من اللَّطيمة والقطر

ويُقَبِلُ على كلّ واحدةٍ منهما يترشَّف رضابها ويقول: إنَّ امرأ القيس لمسكينٌ مسكينٌ !

و في هذه الصورة نلحظ تعاطف أبي العلاء مع امرئ القيس الخاطئ وشفقته عليه بلسان الأصمعي حيث تتشابه العاطفة هنا مع دانتي عندما أشفق على العرافين الذين تخصصوا بقراءة المستقبل وهو ما تحرمه الوحدانية المسيحية ?لمخالفته تصورها وعجائبيتها للمستقبل ، ومع أن دانتي وضع العرافين في الجحيم في المكان الذي يرضى الوحدانية المسيحية إلا أنه شعر بالشفقة عليهم مثلما شعر تجاه كثير من الخطاة وعقاب العرافين هو بأن أعناقهم انفتلت وصارت وجوههم إلى الوراء ، مما اضطرهم إلى السير خلفاً ، إشارة إلى أن العرافين لا يدركون شيئاً عن المستقبل ، إضافة إلى ما يسامون من ألوان التقطيع والطعن والفتل والمسخ:

فيا قارئى أعانك الله على فهم
قصيدتى والاستفادة منها،
قلْ لى بربك كيف أمسك الدمع
وأمامى صورة إنسانيتنا
وقد تشوهت ، حتى أن دموعهم
تساقطت حزناً على أردافهم
بكيت وأستندت إلى وجه صخرة
وبكيت حتى قال مرشدى:
"أما تزال كالآخرين ؟ لا مكانَ
للشفقة هاهنا ، هل هناك
أبأس وأتعس من ذاك الذى
يعترض ويحزن على ما حكم الله ؟

وكذا فى صورة أخرى للتعاطف مع الخاطئين حيث تكتسب نوعاً من الاعتراض على هذه الأحكام الجائرة التى لا تتناسب مع الذنب حيث عوقبوا بهذا العقاب الأليم لمجرد عاطفة الحب بينهم .. و... !

لأيها المخلوق الحى اللطيف الطيب
لو أن ملك الدهور صديقُنا ويقبل
رجاءنا لرجوناه أن يمنحك السلام
أنت يا من تشفق علينا

لقد دفعنى الحب وإياه إلى موت واحد سمعت هذه النفوس المجروحة ، فزويت ما بين حاجبى ، وبقيت فترة هكذا ، إلى أن قال سيدى أخيراً:" بمَ تفكر ".

وحين أمكننى الإجابة قلت: " يا للحسرة أى أفكارٍ عذبة، وأى رغبة خضراءجياشة

دفعت بالعاشقين لهذا المصير المحزن

التفت إلى هاتين الروحين وقلت:

إنَّ ما تعانينه يا فرانشيسكا

يثير شفقتى وألمى.

عندما كانت هذه الروح تتكلم ، بكت

الروح الأخرى بجانبها نائحة

فاهتصرنى الأسى كأننى أحتضر

وهويت كما يهوى الميت .

الغفران:

فى رسالة الغفران يغفر للشاعر ووينقل إلى جنة الفردوس ببيت شعر ذكر الله فيه وقال كلمة حق وصدق وأخلص فيها النية ، فيغفر له ، بقصيدة أو بنتفة أو بيت تكون شفيعة له ومخففة عنه العذاب ، ومنقطع عمله إلا منها فعبيد بن الأبرص يقول لابن القارح وقد سأله بم غفر له وهو ليس من المسلمين ؟

السلام عليك يا أخا بنى أسد. فيقول:وعليك السلام، وأهل الجنّة أذكياء، لا يخالطهم الأغبياء، لعلّك تريد أن تسألنى بم غفر لى؟

فيقول: أجل، وإنّ فى ذلك لعجباً! أألفيت حكماً للمغفرة موجباً، ولم يكن عن الرَّحمة محجَّباً؟ فيقول عبيدٌ: أخبرك أنّى دخلت الهاوية، وكنت قلت فى أيّام الحياة:

من يسأل الناس يحرموه

وسائل الله لا يخيب

وسار هذا البيت فى آفاق البلاد، فلم يزل ينشد ويخفّ عنى العذاب حتى أطلقت من القيود والأصفاد، ثم كرّر إلى أن شملتنى الرحمة ببركة ذلك البيت، وإنَّ ربّنا لغفور رحيم .

هل يوجد إنسان بلا خطيئة ؟ ألم يقل المسيح عليه السلام ؟ "من كان بلا خطيئة فليرجمها بحجر" انظر إلى المعذبين فى جحيم الكوميديا نساء ورجال وأطفال يعذبون لأنهم بلا خطايا وحسناتهم لا تشفع لهم ولأنهم ولدوا قبل المسيح:

ألم بلا عذاب يصدر عن

نساء ورجال وأطفال ، وتنهدات

بعد تنهدات تحمل صنوف الألم

عندئذ قال مرشدى: " لم تسألنى

عن هذه الأرواح التى تتعذب أمامك ؟

قبل أن نتابع أريدك أن تعرف

أنهم بلا خطايا ، وفضائلهم

لا تكفى لشفاعتهم ، فهم لم يعرفوا

نعمة المعمودية، باب الإيمان،كما تعتقدون.

ولدوا قبل مجىء المسيح

فلم يعبدوا الثالوث المقدس

وأنا نفسى واحد منهم.



فسبب هلاكنا هو هذه النقائص

ولا شىء غيرها ، عذابنا أننا

نعيش بلا أمل أبد الدهر ".

ولنقبل جدلا بعذاب الرجال والنساء ، ولكن الأطفال ما ذنبهم ، ولم يبلغوا سن التكليف والرشد ليحاسبوا ، ثم إن سن التكليف مطلوب حتى فى الشرائع المدنية .

وما يؤيد هذا الكلام ما جاء على لسان القديس بطرس ، أى إن البراءة والصلاة والصوم لا تتم إلا بعد التكليف والتكليف هو البلوغ وظهور أول شعرة فى الذقن:خطيئتهم أنهم بلا خطايا كى يشتروا غفراناً أكثر ويتحقق الربح لباعة الدين ، وحسناتهم لا تكفيهم لشراء صكوك الغفران الكنسية، فهم محكوم عليهم بالعذاب الأبدى، لا لشىء إلا لفقرهم المادى .

لا نجد البراءة والإيمان أبداً

إلا فى الأطفال الصغار ، ولكنهما

يهربان قبل أن تظهر أول شعرة فى الذقن.

ما إن يلثغ الفتى حتى يبدأ الصوم والصلاة

فى البيت ٣٧ تبرز الوحدانية المسيحية والتطرف إلى أبعد الحدود فهى ترفض أى معتقد سوى معتقدها ووفق تصورها للعالم وتفسيرها لقوانين الكون والحياة ، أى وفقاً لمصالحها الذاتية ومنافعها.

وشتان ما بين الغفرانين أفق رحب يمتد من قبل إلى الإسلام إلى ما بعده ، وأفق ضيق لا يحتمل أخاه فى المسيحية الوحدانية . ودانتى بعرضه هذه الصور عن الغفران إنما يعرض وينقد هذا الاستغلال

ويفضحه من قبل البابوات لرعاياهم بإصدارهم صكوك غفران بدعواهم الزائفة بإدخال الخاطئين الجنة ، لملء خزائن كنائسهم الخاوية ، من جيوب الفقراء المعدمين ، وليس من جيوبهم المتخمة من أموال رعاياهم .

كان أشخاص ألف ليلة وليلة ينقذون حياتهم برواية حكاية من الحكايات، فإن أشخاص الغفران، ومعظمهم شعراء، ينالون المغفرة بفضل بيت من الشعر، أو أبيات قلائل أنشؤوها تعظيما للدين أو حثا على عمل الخير. إن الجودة الفنية للأبيات لا تكفى لفسح مجال الفردوس، لا بد أن يكون مضمونها منسجما مع تعاليم الدين. وينبغى أن لا ننسى أننا بصدد نص أدبى يندرج فى نوع قوامه المصير الأخروى، وإلا فإن النقاد القدماء لم يكونوا فى معظمهم يعيرون كبير انتباه لعقيدة الشاعر، فكان اهتمامهم ينصب بالدرجة الأولى على مهارته فى النظم وبراعته فى الصناعة الشعرية. والحال أن فردوس المعرى لا يلجه إلا الشعراء المشهود لهم بالجودة والتفوق؛ ليس فى رحابه مكان لشاعر ردىء أو ضعيف، بل إن جحيم المعرى لا يقطنه إلا فحول الشعر كامرئ القيس، والشنفرى، وبشار بن برد.

الشخص الوحيد الذى يراه ابن القارح فى الجحيم والذى لا ينتمى إلى فئة الشعراء هو إبليس؛ ولكنه ليس بغريب عن الشعر فى رسالة الغفران حيث يبدو أبا الشعراء وملهمهم. ألم يقل أحد الملائكة لابن القارح إن الشعر سقرآن إبليس.

لا يندهش ابن القارح عندما يرى فى النار شعراء عاشوا قبل نزول الوحى، أو الشاعر(بشار) الذى اشتهر فى الإسلام بآراء خاصة. لكنه

يتحير عندما يلتقى فى الجنة بشعراء كان يتوقع أن تكون النار مأواهم. الحطيئة مثلا، الذى آذى الناس بخبث هجائه، وصل إلى الشفاعة بسبب صدقه فى قوله:

أبت شفتاى اليوم إلا تكلما

بهجر، فما أدرى لمن أنا قائله

أرى لى وجها شوه الله خلقه

فقبح من وجه، وقبح حامله

أما عبيد بن الأبرص، فيقول لابن القارح: زلعلك تريد أن تسألنى بم غفر لى؟ فيقول: أجل، وإن فى ذلك لعجبا! ألفيت حكما للمغفرة موجبا، ولم يكن عن الرحمة محجبا؟ فيقول عبيد: أخبرك أنى دخلت الهاوية، وكنت قلت فى أيام الحياة:

من يسأل الناس يحرموه

وسائل الله لا يخيب

وسار هذا البيت فى آفاق البلاد، فلم يزل ينشد ويخف عنى العذاب حتى أطلقت من القيود والأصفاد؛ ثم كرر إلى أن شملتنى الرحمة ببركة ذلك البيت، وإن ربنا لغفور رحيمس.

إن الخلاص يتم ببيت واحد، كما حدث للتهامى الشاعر الذى أشرنا إليه آنفا. كل الشعراء الوارد ذكرهم فى الغفران مدينون بشهرتهم لقصيدة أو أبيات معدودة؛ من خلال مقاطع ترددها كل الألسن، تتقرر جودتهم وتتحدد صورتهم، فيتم بمقتضاها وحسب الحالات توزيعهم فى الفردوس أو الجحيم. بهذا المعنى فإن الشاعر ليس سجين ديوانه أو مجموع شعره بقدر ما هو سجين قطعة أو

شظية منه تسمه إلى الأبد. إن الآخرة كما صورها المعرى مأهولة فقط بأشخاص جازفوا بالقول وتحملوا تبعاته؛ ولهذا ليس للبكم مقام فى الغفران، فكأن من ينطوى على نفسه ويلوذ بالصمت لا يستحق أن يبعث، وليس جديرا حتى بنيران جهنم...

عودة الأشياء إلى حالها بعد اهتلاكها:

وتمرُّ إوزّةٌ مثل البختية، فيتمنّاها بعض القوم شواءً، فتتمثّل على خوانٍ من الزُّمردُ، فإذا قضيت منها الحاجة، عادت، بإذن الله إلى هيئة ذوات الجناح .

تقابل هذه الصورة فى الكوميديا الإلهية فى نهاية الجحيم وبوابة المطهر حيث يقود فرجيل دانتى إلى الشاطئ وأن يغسل يديه بندى الصبح الجديد .... وأن يلف خصره بقصبة طرية تنمو فى الطين الناعم للساحل وينهض دانتى الذى كان راكعاً أمام كاتو وتحدث المعجزة ، عندما يكسر فرجيل القصبة ويلف بها خصر دانتى ، وتنمو على الفور قصبة جديدة مثلها تماماً .

وعندما وصلنا الشاطئ المنعزل

الذى لم ير بحّاراً وصل إليه استطاع بمهارته أن يعود بالشراع والمجذاف

وهناك ، كما قال الأتيكى ، طوق خصرى

بقصبة. ولكن ما أن قطعها ـ يااللعجب ـ

حتى رأيت مكانها تماماً،

قصبة أخرى تشق الأرض وتنتصب.

أشكال الحوار فى الجحيمين:

الحوار فى الغفران يقوم به المعرى بلسان ابن القارح ، أما فى جحيم الكوميديا فيغلب عليها الحوار بين دانتى والخاطئين المعذبين ، وبين فرجيل والخاطئين ، وأحياناً أخرى يدور الحوار بين الشخصيتين دانتى المؤلف ومرشده فى الجحيم فرجيل حول سياق الرحلة ورمزية عناصرها العامة والعبرة من خطايا هؤلاء المعذبين وما اقترفته أيديهم من أعمال لا ترضى المشيئة الإلهية ولا الكنيسة فى إطار الرحلة العام ، وتعدد حوار يسجل دانتى اعتراضاته على الكنيسة والوحدانية المسيحية وأحكامها الجائرة والظالمة النابعة من قوانينها المتغيرة بتغير الأزمنة ووفقاً لمصالح بابواتها، مستخدمًا التصريح تارة والرمز تارةً والمواربة فى كثير من الأحيان ، ففى صورة كابانيوس ?يجد مخرجاً بأن يجعل مرشده فرجيل يقول لكابانيوس:

من هذا الشبح الجبار المستلقى على الإفريز ، وبوجهه يقابل النار محتقراً

كأن المطر النارى لا ينال منه ؟

فأجاب هو نفسه ، وقد سمع ما قلت

عنه لمرشدى وسيدى: " هكذا أنا

حياً وهكذا أنا ميتاً

ولو أرهقَ جوبيتر صانع دروعه

الذى وضع فى يده الغاضبة الصاعقة

التى رمانى بها فى آخر أيام حياتى .

ولو أرهق بقية الآلهة ، واحداً واحداً

واشتغلوا فى كير "مونجيلو"?

صائحاً النجدة يافولكان؟الطيب
كما فعل فى فيغرا ، غذ هرع
إلىَّ وهاجمنى بكل قواته السماوية
فلن يفرح قلبه بأدنى نصرٍ علىَّ ".
عندئذٍ تحدث مرشدى بلهجةٍ شديدة
ما اعتدت سماعها منه قبلاً:
" إيه كابانيوس . إن سفاهتك المتكبرة
جعلتك تتألم كأن النار فى
داخلك . غضبك وحده هو
العذاب المناسب لكبريائك ".

تعدد أدوار الحوار مع الخطائين فى جحيم الغفران وجحيم الكوميديا:

حوارية جحيم الغفران حوارية رتيبة تنطبق على جميع المواقف والمشاهد ، المحاور هو نفسه المؤلف أبو العلاء بلسان ابن القارح يحاور الخاطئ المعذب - بل الشاعر لأنه جاءه لغاية نحوية أدبية بلاغية صرفية وليس لغاية دينية طلباً للعبرة والموعظة والمآل الذى آل إليه - يستنطقه يناقشه ويستفهم منه عن مسألة شعرية اختُلِف فيها أو مسألة نحوية أو صرفية أو بلاغية أو عروضية تحتاج إلى إيضاح غموض وترجيح وجه دون آخر .

أما حوار دانتى مع الخاطئين المعذبين فيدور حول خطيئته التى أدت به إلى هذا المصير الأسود ومايلاقيه من ضنك ، فضلاً عن قدرة

الخاطئين على استشراف الأحداث التى ستقع فى المستقبل فى فلورنسا وطن الشاعر وتحذيره منها لنقلها إلى أصحابها .

إظهار الشماتة بالخاطئين:

صخر الغى ، وأين حصل تليدك؟ شغلك عنه تخليدك، وحقّ لك أن تتساه، كما ذهل وحشىٌّ دمى نساه.

والأخطل التغلبى:

فيقول أحل الله الهلكة بمبغضيه ـ أخطأت فى أمرين ـ جاء الإسلام فعجزت أن تدخل فيه ، ولزمت أخلاق سفيه ، و" عاشرت يزيد بن معاوية " وأطعت نفسك الغاوية ، وآثرت مافنى على باقٍ فكيف لك بالإباق ؟

فيزفر الأخطل زفرة تَعْجَبُ لها الزبانية ، فيقول آه على أيام يزيد ..

أصناف الخاطئين والمعذبين فى الجحيمين:

فى جحيم رسالة الغفران الخاطئين والمعذبون هم شعراء وأدباء من الإنس والجن هم سادة وأعلام فى قبائلهم وعشائرهم ـ باستثناء إبليس ـ بل هم فحول الشعراء وأوائل طبقاتهم وليسوا أناساً عاديين بل ذاع صيطهم وانتشر وطبق الأفاق كأصحاب المعلقات مثل عنترة العبسى وعروة بن الورد، أما فى الجحيم الكوميديا الإلهية فالخاطئون المعذبون تختلف شرائحهم وطبقاتهم من العوام إلى الملوك والنبلاء ورجال الدين والبابوات إلا من لم يكن وحدانياً مسيحياً والسدوميين واللصوص والقتلة ، يعذب كل منهم فى طبقته ودائرته وبالعذاب المناقض لخطيئته ، فالشيطان مثلاً يعذب بالزمهرير وليس بالنار لأنه من جنسها والزمهرير هو العذاب الأشد فى الطبقة السفلى من

الجحيم، وكذا يهوذا الاسخريوطى لجرمه الأعظم بمشاركته فى تسليم المسيح حسب المعتقد المسيحى ، فعذابه بالزمهرير وهو أشد عذاباً من النار .

الأثر الإسلامى الكوميديا الإلهية:

إن التشابه بين رسالة أبى العلاء وكوميديا دانتى قد يكون راجعاً إلى أنهما كليهما قد أفادا من حكاية الإسراء والمعراج كما وردت فى الأحاديث الإسلامية ، وفى هذه الحالة يكون لأبى العلاء فضل الإفادة أدبياً من التراث الإسلامى قبل دانتى .

وقد يكون أبو العلاء متأثراً بمصدر فارسى فى رحلته وهو كتاب (أرده ويراف نامه) وفيه حكاية رحلة الموبد الزاردشتى (أرده ويراف) إلى الجحيم والأعراف والجنة ، بل لا يبعد أن يكون المصدر الفارسى المذكور أصلاً لما سار بين المسلمين من خرافات حول الإسراء والمعراج.

مشابهات عديدة فى التفاصيل بين كتاب "المعراج" الذى يشرح عروج الرسول محمد ﷺ وبين "الكوميديا الإلهية" للشاعر العالمى الكبير دانتى:

دليل النبى ﷺ هو جبريل الذى يريد أن يتولى ما كلفه الله به من مهمة "أن يرى النبى فى هذه الليلة عجائب عظيمة من أسرار ملكوته وقدرته"، و"أن الله يحبه حباً جعله يريد له أن يرى كل أنواع الناس الذين يعيشون والذين ماتوا"، وهذا تماماً هو ما يقوله فرجيل لدانتى وهو يصحبه فى أرجاء الجحيم فى الأناشيد الأولى من "الجحيم".

●●●

الأنشودة

1

أفاق دانتى فى منتصف طريق حياته فوجد نفسه فى غابة مظلمة ضالا سواء السبيل، حيث قضى ليلة فى عذاب شديد ومع ذلك اعتزم أن يقصّ علينا ما لقيه فيها من خير وشر، تقدم دانتى فرأى جبلا أضاءت الشمس قمته، فاتجه نحوه محاولاً أن يرتقيه ولكن اعترض طريقه ثلاثة وحوش، رمز الخطايا التى تحيد بالبشر عن الطريق القويم، فتولاه رعب شديد، وأوشك أن يرجع القهقرى وفى لحظة يأسه ظهر أمامه شبح بدا من طول صمته أبحّ الصوت، وكان ذلك شبح فرجيليو شاعر اللاتين، علا وجه دانتى الحياء، عندما أدرك أنه أمام ذلك الروح العظيم، عطف فرجيليو على دانتى وأزال مخاوفه، وأوضح له أن من المتعذر عليه سلوك الطريق الذى أراده لارتقاء ذلك الجبل، ما دامت هذه الوحوش واقفة له بالمرصاد، ولم تظهر بعدُ القوة التى سوف تقضى عليها، وتنقذ إيطاليا المهيضة، وأشار أنه لابد من اتباع طريق آخر، حتى يرى فى الجحيم نفوس الآثمين يلقون صنوف العذاب، ويدرك أصل الشقاء فى الدنيا، ويشهد فى المطهر عذاب النفوس التائبة التى تأمل بلوغ الفردوس بعد تطهرها، وقال إنه بعد اجتياز الجحيم والجانب الأكبر من المطهر سيتركه فى رعاية من هو أجدر منه بالصعود إلى مدارج الفردوس وتقدّم فرجيليو إلى الأمام وسار دانتى من ورائه.

١ ـ فى منتصف طريق حياتنا، وجدتُ نفسى فى غابة مظلمة، إذْ ضللتُ سواءَ السبيل.

٤ ـ آه، ما أصعب وصف هذه الغابة الموحشة الكثيفة القاسية، التى تُجدّد ذكراها لى الخوف.

٧ ـ إنها شديدة المرارة حتى لايكاد الموت يزيد عنها، ولكن لكى أتناول ما وجدتُ هناك من خير، سأتكلم عن أشياء أخرى رأيتها فيها.

١٠ ـ لا أحسن أن أقول كيف دخلتها، فقد كنتُ مثقلاً بالنوم فى اللحظة التى حِدْتُ فيها عن طريق الصواب.

١٣ ـ ولكن بعد أن بلغتُ أسفل تلٍّ ينتهى عنده ذلك الوادى، الذى مزّق مرآه قلبى من الخوف،

١٦ ـ نظرتُ إلى أعلى، ورأيتُ منكبيه وقد كستهما أشعة الكوكب الذى يهدى الناس فى كلّ طريق.

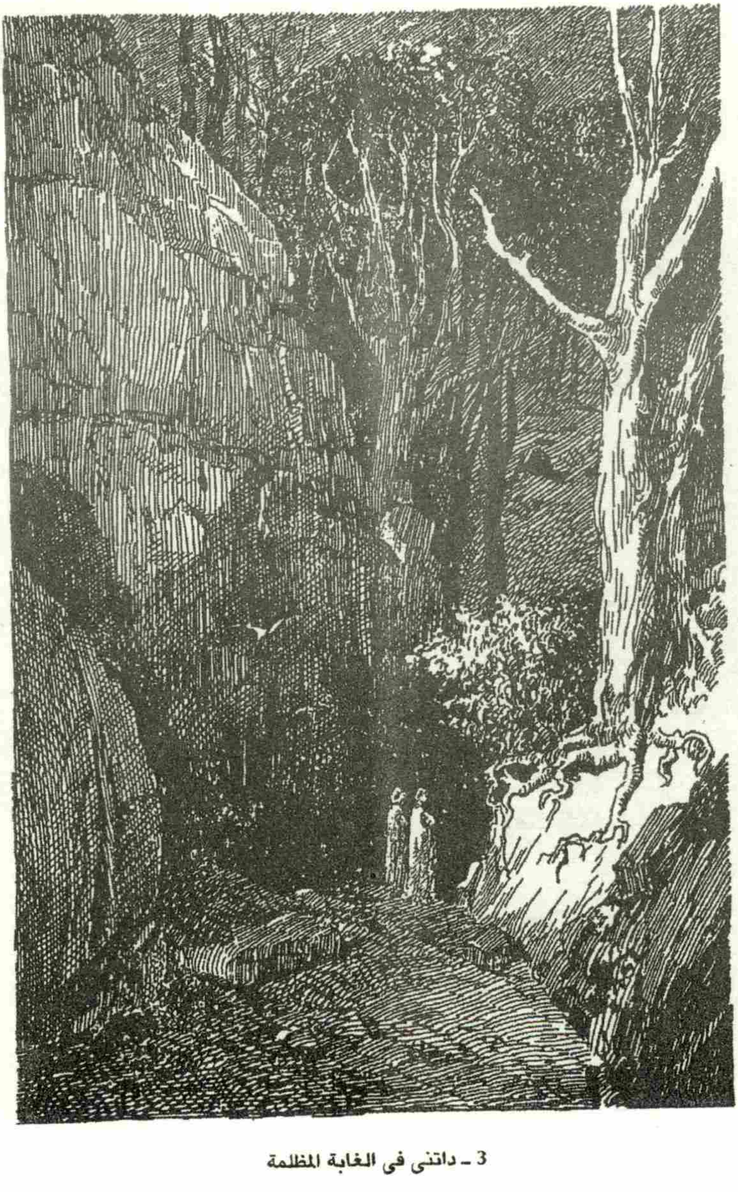
١٩ ـ عندئذ هدأ قليلاً الخوف الذى بقى فى بحيرة قلبى طوال الليلة التى قضيتها فى أسى شديد.

٢٢ ـ وكَمنْ خرج لاهث الأنفاس من البحر إلى الشاطئ، فيلتفتُ إلى المياه الرّهيبة، ويتأمل.

٢٥ ـ هكذا التفتتْ روحى إلى الوراء وكانت لاتزال لائذةً بالفرار، لكى تُحملق فى الطريق الذى لم يدَعْ أبدًا إنسانًا حيًا.

٢٨ ـ وبعد أن أرَحتُ قليلاً جسدىَ المكدود، عدْتُ إلى المسير فى المرتقى القفر، وكانت قدمى المرتكزة هى السفلى دوامًا.

٣١ – وانظرْ، عند وَشك بداية المرتقى فهدةً خفيفةً سريعةَ الحركة، كانت مغطاةً بجلدٍ أرقط.



3 ـ دانتي في الغابة المظلمة

٣٤ ـ لم تبتعد من أمام وجهى بل أعاقت طويقى طويلاً حتى اتجهتُ مرات عديدةً لكى أرجع القهقرى.

٣٧ ـ كان الوقت أوّل الصباح، وقد صعدت الشمس إلى أعلى مع تلك النجوم، التى صاحبتها حينما حرّك الحبّ الإلهىّ.

٤٠ ـ لأوّل مرة، تلك الأشياء الجميلة، وهكذا كانت ساعة النهار والفصل الحبيب سببًا فى أن أؤمل خيرًا

٤٣ ـ فى ذلك الوحش ذى اللون الزاهى، ولكن ليس إلى حدٍّ يغلب عنده ما نالنى من الخوف، حينما رأيت أسدًا بدا لى.

٤٦ ـ وظهر هذا أنه قادم نحوى، برأسٍ مرفوع وجوعٍ غاضب، حتى بدا الهواء يرتعد منه.

٤٩ ـ وذئبةٌ بدَتْ فى ضمورها مليئةً بكل الشهوات، وقد جعلتْ كثيرين يعيشون فى شقاء،

٥٢ ـ ألقتْ علىَّ عبئًا كثيرًا، بالرعب الذى شعَّ من عينيها، ففقدتُ الأملَ فى بلوغ القمة.

٥٥ ـ وكمَنْ يحرص على الكسب، ويحين الوقت الذى يُصيبه بالخسران، فتصبح كل أفكاره بكاءً وحزنًا،

٥٨ ـ هكذا جعلنى الوحش عدوّ السلام، الذى دفعنى ـ وهو يتقدم نحوى ـ إلى الوراء قليلاً قليلاً، حيث تصمت الشمس.

٦١ ـ وبينما كنت أهبط مندفعًا إلى الموضع الخفيض، ظهر أمام عينىّ، مَنْ بدا لطول صمته أبحّ الصوت

٦٤ ـ ولما رأيته فى الفراغ الكبير صِحتُ به: «كن رحيمًا بى، كائنًا مَنْ كنت، شبحًا أو إنسانًا حيًّا!»

٦٧ ـ فأجابنى: «لست إنسانًا، وكنتُ من قبل إنسانًا، وكان أبواى من لمبارديا، وكانت مانتوا وطنهما معًا.

٧٠ ـ وُلدتُ فى عهد يوليوس ولو أن هذا كان متأخرًا، وعشتُ فى روما أيام أغسطس الطيب، فى عهد الآلهة المزّيفين الكاذبين.

٧٣ ـ كنتُ شاعرًا، وتغنيتُ باسم ذلك العادل ابن أنكيسيس، الذى جاء من طروادة، بعد أن التهمت النيران إليوم الشامخة.

٧٦ ـ ولكن لِمَ تعود إلى مثل هذا الضيق ولماذا لا ترتقى الجبلَ السعيد، الذى هو لكلّ سعادةٍ مبدأٌ ومنبع؟

٧٩ ـ أجبته بجبين علاه الحياء: «إذا أفأنت حقًا فرجيليو، ذلك النبع الذى يفيض بالكلام نهرًا كبيرًا؟

٨٢ ـ يا مَنْ أنت لسائر الشعراء فخرٌ ونبراس، عسى أن ينفعنى الآن الدرسُ الطويل والحبّ الشديد الذى جعلنى أبحث فى كتابك.

٨٥ ـ أنت أستاذى ومَرْجعى، وأنت وحدك مَنْ قبستُ عنه الأسلوب الجميل، الذى أضفى علىّ المجد.

٨٨ – انظر إلى الوحش الذى أرجعنى القهقرى، أعنّى عليه أيها الحكيم الذائع الصيت، لأنه يبعث الرَّعدة فى عروقى وفى نبضات القلب».

٩١ ـ أجابنى إذْ رآنى أجهش باكيًا: «إذا أردتَ النجاة من هذا المكان الموحش، فأجدَى عليك أن تسلك طريقًا غيره».

٩٤ ـ لأن هذا الوحش الذى يبكيك، لايدع إنسانًا يمرّ فى طريقه، بل يُعوقه كثيرًا، إلى أن يقتله.

٩٧ ـ وله طبيعةٌ شريرة جدٌ ملتوية، حيث إن شهوته الجامحة لا تشبع أبدصا، ويُصبح بعد الطعام أجوع من ذى قبل.

١٠٠ ـ والحيوانات التى يلقّحها كثيرة، وسيزيد عددها بعدُ، حتى يأتى السلوقىّ الذى سيقتله وهو فى غمرة الألم.

١٠٣ ـ إنه لن يتغذّى بالأرض ولا الذهب، ولكن بالحكمة والحبّ والفضيلة، وسيكون شعبه بين الفلترو والفلترو.

١٠٦ ـ وسيكون منقذ إيطاليا المهيضة، التى مات فى سبيلها بجراحهم كميلا العذراء، وأويريالوس وتورنوس ونيزوس.

١٠٩ ـ وسيطارده فى كلّ المدائن، حتى يضعه من جديد فى الجحيم، الذى أطلقه الحقدُ منها قديمًا.

١١٢ ـ لذا أعتقد وأرى الخير لك فى أن تتبعنى، وسأكون دليلك، وسأُخرجك من هنا خلال عالمٍ أبدىّ.

١١٥ ـ حيث ستمع الصرخات اليائسة، وترى النفوسّ القديمة المعذّبة، تصرخ كل منها طالبةً الموتة الثانية.

١١٨ ـ ثم ترى أولئك الذين يرْضَوْن بين اللهب، لأنهم يأملون أن يأتوا يومًا إلى زُمرة السعداء.

١٢١ ـ فإذا أردتَ بعدئذ الصعود، فستجد نفسًا أخرى أجدر منى بذلك وسأدعك فى رعايتها عند رحيلى.

١٢٤ ـ لأن الحاكم المطلق الذى يحكم هناك فى العلياء، لايريد أن يأتى أحدٌ عن طريقى إلى مدينته، إذْ كنتُ خارجًا على شريعته.

١٢٧ ـ إنه يحكم فى كلّ مكان، ويسيطر هناك، هناك عالمه وعرشه الرّفيع، ما أسعد من اختاره إليه!»

١٣٠ ـ قلتُ له «أيها الشاعر، إنى أستحلفك باسم ذلك الإله الذى لم تعرفه ولكى تُجنّبنى هذا الشرّ وما هو أسوأ»..

١٣٣ ـ أستحلفك أن تقودنى إلى المكان الذى حدثتنى عنه الآن، حتى أرى باب بطرس القدّيس، وأولئك الذين تجعلهم يذوقون سوءَ العذاب».

١٣٦ ـ عندئذٍ تحرّك هو، وبقيتُ من ورائه.

***

الأنشودة

2

أخذ الليل يرخى سدوله، وسكنت كائنات الأرض واستراحت من عنائها، بينما ظل دانتى يستعد وحده لملاقاة أعباء رحلته التى تكتنفها الصعاب، وساوره الشك فى مقدرته على احتمال مشقات الطريق، وطلب إلى فرجيليو أن يتأكد من قدرته على احتمال أهوال الرحلة، وذكر إينياس والقدّيس بولس إلى العالم الآخر من قبل، وقارنهما بشخصه فخانته قواه، وآثر العدول عن هذه الرحلة الشاقة، ولكن فرجيليو أخذ يزيل مخاوفه، وعمل على إعادة الثقة إلى نفسه، وقصّ عليه كيف أن بياتريتشى عندما علمت بما أحاط به من الصعاب هبطت إليه من السماء وسألته أن يسارع إلى نجدة دانتى، وكان فرجيليو مستعداً لتلبية أمرها ولكنه سألها: كيف تركت السماء إلى هذه الهاوية، فأخبرته بما كان من وقوف العذراء ماريا على ما أصاب دانتى من المخاطر، فنادت لوتشيا، وخرجت بذلك على قوانين السماء وأعلمتها بالأمر، فانتقلت لوتشيا إلى مكان بياتريتشى، وسألتها أن تعمل على إنقاذ دانتى الذى أخلص لها الحب وبينما كانت بياتريتشى تقصّ على فرجيليو هذا الخبر، اغرورقت عيناها بالدمع، فما كان من فرجيليو إلا أن سارع إلى نجدة دانتى، ومازال فرجيليو بدانتى حتى بدّد مخاوفه، وعادت إليه شجاعته وثقته بنفسه، فتجدّدت رغبته فى

القيام بهذه الرحلة الخطرة، ومضى دانتى فى صحبة دليله وأستاذه تحدوهما رغبة واحدة.

١ ـ كان النهار آخذًا فى الزّوال، وأراخ الهواء القاتم كائنات الأرض من متاعبها، وكنتُ وحدى.

٤ ـ أستعدّ لاحتمال حرب تُثيرها الرحلة، ويبعثها الأسى، وهذا ما سيرويه عقلى الذى لا يُخطئ

٧ ـ يا ربات الشعر، يا أيتها العبقرية العليا، الآن ساعدننى! وأنت أيتها الذاكرة التى سجلتْ ما رأيتُ، هنا سيظهر نُبلك!

١٠ ـ بدأتُ: «أيها الشاعر الذى تقودنى: اختبرْ طاقتى، أهى قويّةٌ، قبل أن تعهد بى إلى الخطوة العالية!

١٣ ـ تقول إن أبا سيلفيوس، ذهب بجسمه إلى العالم الخالد، وهو مايزال بعدُ إنسانًا فانيًا.

١٦ ـ ولكن إذا كان عدوّ كلّ شرٍّ رقيقًا معه، وهو يفكّر فى طبيعة العمل العظيم الذى كان ينبغى أن يصدر عناه، ونوعه،

١٩ ـ فلا يبدُوَنَّ هذا غريبًا على إنسان يفهم، لأنه اختير فى السماء العليا، لكى يكون أبًا لروما المجيدة وإمبراطوريتها:

٢٢ ـ وهذه وتلك، ليقال الحقّ، قد خصّصنا للمكان المقدّس، حيث يجلس خليفة بطرس الأعظم.

٢٥ ـ وخلال هذه الرحلة، التى من أجلها أكسبَتهُ المجد، أدركَ أمورًا كانت سببًا فى إحرازه النصر وفى الرّداء البابوى.

٢٨ ـ ثم ذهب هناك الإناء المختار، لا يحمل إلينا الثقة فى ذلك الإيمان، الذى هو بداءةٌ نحو طريق الخلاص.



٣١ ـ ولكن لِمَ أذهبُ هناك؟ ومَنْ ذا الذى يمنحنى هذا؟ إنى لست إينياس ولا يولس لا أنا ولا غيرى يعتقد أنى بهذا جدير.

٣٤ ـ ولذا إذا استسلمتُ لك فى المسير، أخشى أن يكون ذهابى جنونًا: إنك حكيم، وتفهمنى خيرًا مما أتكلم».

٣٧ - وكالذى يرغب عما كان يرغب فيه، وبأفكارٍ جديدةٍ يغيرٌ قصدَه، حتى يصْدف تمامًا عما كان فيه بادئًا،

٤٠ ـ كذلك أصبحتُ على الشاطئ المظلم، لأنى عدلتُ ـ وأنا أفكر ـ عن المخاطرة التى كانت سريعة فى بداءتها.

٤٣ ـ أجابنى شبح ذلك العظيم: «إذا كنتُ قد أحسنتُ فهم كلامك، فإن نفسك يشينها الخور.

٤٦ ـ الذى يسيطر على الإنسان كثيرًا، حتى يصرفه عن جلائل الأعمال، كما يخطئ الحيوان النظر حينما يجفل.

٤٩ ـ ولكى تحرر نفسك من هذا الفزع، سأقول لك لم أتيت، وماذا سمعته، فى أوّل لحظة تألمتُ فيها من أجلك؟

٥٢ ـ كنتُ بين أولئك المعلّقة نفوسهم، ونادتنى سيدةٌ جميلةٌ مباركة، فسألتها أن تأمرنى.

٥٥ ـ تألقتْ عيناها أكثر من النجم، وبدأتْ تخاطبنى فى رقةٍ ولطف، وفى لغتها صوت الملائكة:

٥٨ ـ أيها الروح الكريم من مانتوا، الذى ما تزال شهرته باقيةً فى الدنيا، والتى ستبقى كدورة الزّمن،

٦١ ـ إن صديقى ـ وما هو للحظّ بصديق ـ قد اعترضته صعابٌ فى الطريق على الشاطئ القفر، فارتدّ من الرعب إلى الوراء.



٦٤ ـ وأخشى أن يكون ضلاله قد بلغ حداً، يجعل نهوضى لنجدته متأخرًا، حسبما سمعتُ عنه فى السماء.

٦٧ ـ تحرَّك الآن، وعاونه بكلامك الفصيح، وبما هو ضرورى لنجاته، حتى أصبح بذلك راضية النفس.

٧٠ ـ أنا بياتريتشى، التى أبعثك إليه، إنى آتيةٌ من مكان أرغب فى العودة إليه، لقد حرّكنى الحبّ الذى يجعلنى أتكلم.

٧٣ ـ وحينما أصبح فى حضرة المولى، سأُطنب لديه فى مديحك وعندئذٍ سكتتْ عن الكلام، فبدأتُ:

٧٦ ـ «ياربة الفضائل،التى بفضلها وحده، يسمو الجنس الإنسانى، على كل ما تحويه السماء ذات الحلقات الصغريات.

٧٩ ـ إن أوامرك تُسعدنى كثيرًا، وحتى لو كنتُ قد أطعتك فعلاً لبدوتُ متأخرًا، وليس لك سوى الإفصاح عن رغبتك.

٨٢ ـ ولكن أخبرينى عن السبب فى أنك لا تحذرين الهبوط إلى هذا المركز هنا أسفل، من المكان الفسيح الذى تتحرّقين شوقًا للعودة إليه»..

٨٥ ـ فأجابتنى: مادمتَ تحرص على المعرفة إلى هذا الحد، فسأخبرك بكلمات وجيزة، لم لا أخشى الدهول هنا.

٨٨ ـ يجب أن نخشى ـ حسبُ ـ تلك الأشياء التى لها القدرة على الإضرار بالناس، أما غيرها فلا؛ لأنها لا تبعث الخوف.

٩١ – لقد خلقنى الله برحمته بحيث لا يمسنى من بؤسكم أثرٌ، ولا ينالنى من هذه النيران لهيب.

٩٤ ـ وفى السماء سيدةٌ رقيقةٌ تتألّم لهذه العقبة التى أبعثك من أجلها، وبذلك خرجتْ على الحكم الدقيق هناك فى العلياء.

٩٧ ـ لقد نادتْ لوتشيا، لكى تُلبى أمرها وقالت: - «إن المخلص لك محتاجٌ إليك الآن، وإنى أوصيك به خيرًا».

١٠٠ ـ فنهضت لوتشيا، عدوّة كلّ غليظ القلب، وجاءت إلى الموضع الذى كنتُ فيه جالسةً مع راحيل العتيقة.

١٠٣ ـ وقالت : «بياتريتشى، يا مجدَ اللّه الحقّ، لم لا تسعفين ذلك الذى أحبك كثيرا، حتى خرج فى سبيلك من غمار الناس؟

١٠٦ ـ ألا تسمعين الأسى فى بكائه؟ ألا ترين الموت الذى يصارعه فوق نهر، لا يبزه البحر فى أهواله»؟

١٠٩ ـ لم يسارع أبدًا فى الدنيا قومٌ إلى خيرهم، ولم يتجنبوا أذى يصيبهم كما فعلت بعد النطق بهذه الكلمات.

١١٢ ـ فجئتُ هنا ـ أسفل ـ من مقرى السعيد، وقد وضعت ثقتى فى كلامك الأمين، الذى يشرفك ويشرف من سمعوه.

١١٥ ـ بعد أن قالت لى هذه الكلمات، لفتت نحوى عينيها المتألقتين بالدمع، فجعلتنى بذلك إلى المجىء أكثر سرعة.

١١٨ ـ وهكذا أتيت إليك كما رغبت، وأخذتك من أمام ذلك الوحش، الذى منعك من سلوك الطريق القصير إلى الجبل الجميل.

١٢١ ـ ما الأمر إذًا، ولماذا، لماذا تتوقف؟ لِمَ يسكن قلبك كل هذا الخور؟ ولم تعوزك الشجاعة والعزم؟

١٢٤ ـ ما دام مثل هؤلاء السيدات المباركات الثلاث، يرعين أمرك فى ساحة السماء، وتعدك كلماتى بخير عميم؟



١٢٧ ـ وكما تنحنى صغريات الزهور بصقيع الليل وتضم أكمامها، ثم تستوى على سيقانها وقد تفتحت كلها، حينما تكسوها الشمس اللون الأبيض،

١٣٠ ـ هكذا صنعت بشجاعتى الواهنة، وسرَتْ فى قلبى شجاعة الشجعان، حتى بدأت ـ كإنسان تحرر من الخوف.

١٣٢ - « إيه أيتها الرحيمة التى عاونتنى، وأنت أيها الكريم الذى أطعت سريعًا كلمات الصدق التى أفضَتْ بها إليك!

١٣٦ ـ لقد وجهت قلبى بكلماتك إلى الرغبة فى المسير، وبهذا رجعت إلى قصدى الأول.

١٣٩ ـ الآن سِرْ، فإن لكلينا رغبة واحدة: يا دليلى، وسيدى، وأستاذى».
هكذا خاطبته، ولما تحرك للمسير.

١٤٢ ـ دخلتُ الطريقَ الوعر القاسى.

***

الأنشودة

3

وصل الشاعران إلى باب الجحيم، وقرأ دانتى فى أعلاه وصف ما بداخله من العذاب، وعمل فرجيليو على تهدئة روع دانتى، ودخلا معًا إلى عالم الخفايا والأسرار، سمع دانتى صرخات المعذّبين وعويلهم، وقد أحدث دويًا أشبه بعاصفه هوجاء، فبكى من هول ما سمع، عرف دانتى أن هؤلاء هم الذين لم تكن لهم فى الدنيا الشجاعة لسلوك طريق الخير أو الشر، فلم يعصوا الله ولم يطيعوه، ولم يعملوا فى الدنيا إلا لمصلحتهم الذاتية، ولذلك طردتهم السماء حتى لا ينقصوا من جمالها، ولفظتهم أعماق الجحيم حتى لا يكون لمرتكبى الآثام إلى جانبهم سبيل إلى التفاخر عليهم ولهذا فإنهم يبقون فى مدخل الجحيم، وهم يحسدون الناس على الخير وعلى الشر ويحسدون من هم أسوأ منهم حالا، ولذلك فهم لا يستحقون الذكر فى الدنيا وتحتقرهم العدالة الإلهية. يطلب فرجيليو إلى دانتى أن يكف عن الكلام عنهم، ويسأله أن يتابع المسير ورأى دانتى حشدًا من هؤلاء الطغام يجرون عراة الأجسام فى أوسع دوائر الجحيم، وقد أطبقت عليهم الحشرات فتلسعهم وتدمى وجوههم ويختلط دمهم بدمعهم، ويسيل على الأرض، فتلتهمه ديدان كريهة مزعجة عند أقدامهم، وهذا هو جزاؤهم ثم رأى دانتى حشدًا من الهالكين عند ضفة نهر

اكيرونتى، ورأى كارون أول حراس الجحيم يعبر بهم النهر، واعترض كارون على وجود دانتى الإنسان الحىّ، فأوضح له فرجيليو أن هذه هى إرادة السماء وشعر دانتى بزلزال عنيف وهبت ريح عاتية تخللها برق ملتهب ففقد مشاعره وسقط على الأرض كمن أخذه النوم.

١ ـ «هنا الطريق إلى مدينة العذاب، هنا الطريق إلى الألم الأبدى، هنا الطريق إلى القوم الهالكين.

٤ ـ لقد حركت العدالة صانعىَ الأعلى، وخلقتنى القدرة الإلهية، والحكمة العليا والحبّ الأوّل.

٧ ـ لم يُخلق قبل شىء سوى ما هو أبدٌ، وإنى باقٍ إلى الأبد أيها الداخلون، اطرحوا عنكم كل أمل».

١٠ ـ هذه الكلمات رأيتها مكتوبة بلون داكن، فى ذروة باب، فقلت: «أستاذى، إن معناها قاس على نفسى».

١٣ ـ وأجابنى جواب خبير: «هنا ينبغى أن تطرح عنك كل شك، وهنا ينبغى أن يموت كل خور

١٦ ـ لقد وصلنا إلى المكان الذى أخبرتك أنك سترى فيه القوم المعذبين، الذين فقدوا غاية العقل».

١٩ ـ وبعد أن وضع يده فى يدى بوجه بشوش، فهدأ بذلك من خاطرى، دخل بى إلى عالم الأسرار.

٢٢ ـ دوّى هناك تنهدٌ وبكاء وصراخٌ عالٍ، فى جو بغير نجوم، فأسال ذلك لأوّل وهلة مدامعى

٢٥ ـ لغاتٌ غريبةٌ، وصرخات رهيبة، وكلماتُ أسى، وصيحاتُ غضب، وأصوات صماء عالية، ولطمات أيد تصاحبها.

٢٨ ـ أحدثت ضجيجا يدور على الدوام، فى هذا الجو الأبدى الظلام، كذرات الرمل حين تعصف بها زوبعة.

٣١ ـ قلت وقد حف برأسى الرعب: «أستاذى، ما هذا الذى أسمع؟ ومن هؤلاء القوم الذين يبدون وقد غلبهم الألم هكذا؟»

٣٤ ـ أجابنى: «هذه الصورة البائسة، تتخذها النفوس التعسة، لأولئك الذين عاشوا دون خزى، أو ثناء.

٣٧ ـ إنهم مختلطون بتلك الزمرة الطالحة من الملائكة، الذين لم يكونوا ثائرين ولا مخلصين لله، بل كانوا لأنفسهم.

٤٠ ـ لقد طردتهم السماء كى لا ينقص جمالها، ولا تقبلهم الجحيم العميقة، حتى لا يحرز الآثمون عليهم بعض الفخر»

٤٣ ـ قلت: «أستاذى! أىّ ألمٍ مرير يحملهم على هذا البكاء العنيف؟»

فأجابنى: «سأقول لك هذا بكل إيجاز.

٤٦ ـ ليس لهؤلاء فى الموت أمل، وحياتهم العمياء شديدة الضعة، فهم يحسدون كل المصائر الأخرى.

٤٩ ـ لا يدع العالمُ لهم ذكرا، وتزدريهم الرحمة، والعدالة: دعنا من ذكرهم ولكن انظر واذهب».

٥٢ ـ وأنا الذى كنتُ أنظر، رأيتُ علمًا يجرى بسرعة فائقة وهو يدور، حتى بدا لى إنه يعاف كل سكون.

٥٥ ـ وفى إثره جاء من القوم صف طويل، لم أكن أعتقد أبدًا أن الموت قد أهلك منهم هذا العدد.

٥٨ ـ وبعد أن تعرفت على بعضهم، رأيت وعرفت شبح ذلك الذى اقترف الرفض الأكبر جبنا وخورا.

٦١ ـ وسرعان ما أدركتُ فى ثقة، أن هذه كانت جماعة الأشرار، المكروهين من الله ومن أعدائه.

٦٤ ـ هؤلاء التعساء الذين لم يكونوا أحياء أبدا، كانوا عراة وأمعنت فى لسعهم الزنانير وذباب الدواب الذى كان هناك.

٦٧ ـ وأسال على وجوههم الدم الذى اختلط بدموعهم، وجمعته ديدان مزعجة عند أقدامهم.

٧٠ ـ وعندما مددت نظرى إلى الأمام رأيت قوما على شفة نهر كبير فقلت: «أستاذى، الآن دعنى أعرف من هؤلاء وأى

٧٣ – قانون يجعلهم يبدون متهافتين على العبور هكذا، كما أتبين فى خافت الضوء».

٧٦ ـ أجابنى: «ستصبح الأمور معروفة لك، حينما نوقف خطواتنا على ضفة أكيرونتى الحزينة».

٧٩ ـ وبطرف غضيض ساده الحياء، وخشية أن يَشْقُلَ كلامى عليه، منعت نفسى عندئذ من الكلام، حتى بلغنا ذلك النهر.

٨٢ ـ وهناك رأيت شيخًا أبيض ذا شعر عتيق يأتى فى سفينة نحونا، وهو يصيح: «ويل لكما، أيهاتان النفسان الخبيثتان!

٨٥ ـ لا تأملا فى رؤية السماء أبدًا، إنى آت لكى أقودكما إلى الضفة الأخرى، فى الظلمات الأبدية، فى النيران والجليد.

٨٨ ـ وأنت أيها الإنسان الحى هنا، باعد نفسك عن هؤلاء الموتى. ولكن حينما رآنى لم أحرك ساكنا.

٩١ ـ قال: «بطريق غيره وبموانئ أخرى ستبلغ الشاطئ، ولن يكون هنا عبورك»، أن زورقا أخف ينبغى أن يحملك».

٩٤ ـ قال له دليلى: «لا تغضبن يا كارون، هكذا أريد هنالك حيث يمكن أن يفعل ما يراد، ولا تسلنى على ذلك مزيدا».

٩٧ ـ عندئذ سكنت الوجنتان اللتان حفهما الشعر، من الملاح فوق المستنقع المكفهر، الذى كانت حول عينيه حلقات من لهب.

١٠٠ ـ ولكن تلك النفوس التى كانت مضناة وعارية غيرت لونها واصطكت أسنانها، حينما سمعت الكلمات القاسية،

١٠٣ ـ ولعنت الله وأهلها، والنوع البشرى، والمكانَ والزمانَ، وأصلَ وجودها وميلادها

١٠٦ ـ ثم تلاصقت كلها معًا، وهى تبكى بمرارة عند الضفة الملعونة التى ترتقب كل إنسان لا يخاف اللّه

١٠٩ ـ وكارون الشيطان، بعينين من الجمر، يجمعهم كلهم بإشارة واحدة، ويضرب بمجدافه من يبطئ منهم.

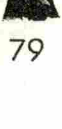
١١٢ ـ وكما تتساقط أوراق الخريف، واحدة بعد أخرى، حتى يرى الغصن على الأرض كل أورافه،

١١٥ ـ كذلك تقذف سلالة آدم الخبيثة بأنفسها، من هذه الضفة واحدة فواحدة، بإشارات كارون، كطير سمع النداء.

١١٨ ـ هكذا يسيرون على الموج الداكن، وقبل أن ينزلوا هناك، يتجمع هنا ثانيًا حشدٌ جديد.

١٢١ ـ قال أستاذى الرفيق: «يابنى، أولئك الذين يموتون، والله غاضب عليهم يجتمعون كلهم هنا من كل حدب وصوب.

١٢٤ ـ وهم متحفزون لعبور النهر، لأن العدالة الإلهية تهمزهم، فيتحول الخوف عندهم إلى رغبة.



١٢٧ - لا تمر من هنا نفس طيبة أبدا، ولهذا إذا كان كارون يشكو منك، تستطيع الان أن تعرف جيدا مغزى كلماته»

١٣٠ ـ وعندما انتهى قوله، اهتزّ السهل المظلم بعنف شديد، حتى إن ذكرى ما نالنى من فزع، تجعلنى بعد أتصبب عرقًا.

١٣٣ ـ لقد بعثت أرض الدموع ريحا عاتية، أبرقت ضوءًا قرمزى اللون غلب عندى كل المشاعر.

١٣٦ ـ فسقطت كرجل يأخذه النوم.

***



4 ـ قارب كارون

الأنشودة

4

آفاق دانتى من نومه على صوت رعد قاصف، فأخذ يدور ببصره فيما حوله لكى يعرف أين هو، وجد دانتى نفسه على حافة وادى العذاب السحيق، وحال الظلام دون أن يرى أعماقه. دخل الشاعران الحلقة الأولى من حلقات الجحيم، وسمع دانتى تنهدات المعذبين التى ارتعد لها الهواء فرقا ورعبًا، وكان ذلك هو اللمبو، مقر عظماء العالم القديم الذين ماتوا قبل ظهور المسيحية، ومقر من ماتوا ولم ينالوا التعميد المسيحى، وعذابهم أن يعيشوا تحدوهم الرغبة فى الخلاص دون أمل فى الحصول عليه. تساءل دانتى عن احتمال خروج بعض هذه النفوس من هذا اللمبو، فأخبره فرجيليو أن المسيح كان قد هبط هنا لإنقاذ بعض المعذّبين مثل آدم وموسى وداود وراحيل، وأدخلهم فى زُمرة السعداء. وفى أثناء المسير رأى دانتى نارًا تضىء الظلام، وهذا استثناء فى عالم الجحيم، وذلك لأن الشاعرين كانا مقبلين على جماعة من عظماء العالم القديم، رأى دانتى هوميروس وهوراس وأوفيديوس الذين قابلوه بالترحاب وأعدوه واحدًا منهم، فاعتزّ بذلك، وتقدّمت هذه الجماعة حتى وصلوا إلى قلعة شماء ذات سبعة أسوار، وهناك رأى دانتى بعض شخصيات الأساطير القديمة، مثل إليكترا وهيكتور وإينياس، وشهد بعض أبطال العالم القديم مثل

قيصر ولوتشيوس بروتس وصلاح الدين، وكذلك رأى بعض فلاسفة العالم القديم وعلمائه مثل سقراط وأفلاطون وديوسقوريدس وبطليموس وجالينوس، ورأى ابن سينا وابن رشد، وأخيراً خرج الشاعران إلى مكان أعوزه ما يبدد الظلمات.

١ ـ حطم النوم العميق فى رأسى رعد ثقيل، حتى هاجنى الفزع، كشخص صحا بعنف واستيقظ.

٣ ـ وحينما استويت قائماً، حركت عينى المرتاحة فيما حولى، ونظرت بإمعان لكى أعرف المكان الذى كنت فيه.

٧ ـ حقا لقد وجدت نفسى على الحافة من وادى الهاوية الأليم، الذى يتلقى دوى صرخات لا تنتهى.

١٠ ـ كان مظلما عميقًا ملبدًا بالسحب، حتى إنى حينما حدقت ببصرى فى أعماقه، لم أتبين فيه شيئا.

١٣ ـ وبوجه شاحب بدأ شاعرى: «الآن فلنهبط هنا ـ أسفل ـ فى العالم الأعمى، وسأكون أنا الأول، وأنت الثانى».

١٦ ـ قلت وقد لاحظت لون وجهه: «كيف أمضى وأنت خائف، وقد اعتدت أن تطمئنى عند الشك»

١٩ ـ أجابنى: «إن عذاب القوم الذين هم هنا فى أسفل، يرسم على وجهى ذلك الأسى الذى تحسبه خوفا،

٢٢ ـ دعنا نذهب، لأن الطريق الطويل يدفعنا إلى ذلك»، هكذا دخل وجعلنى أدخل إلى الحلقة الأولى، التى تحيط بالهاوية.

٢٥ ـ لم يكن هنا بكاء حسبما يسمع، ولكن كانت تنهدات، جعلت الهواء الأبدى يرتعد منها.

٢٨ ـ وصدر هذا عن ألم بغير تعذيب، نالته حشود كانت كثيرة وكبيرة، من الأطفال والنساء والرجال.

٣١ ـ قال أستاذى الطيب: «إنك لا تسأل: أى أرواح هذه التى تراها؟ الان أريد أن تعرف، وقبل أن توغل فى المسير،

٣٤ ـ إنهم لم يأثموا، وإذا كانت لهم فضائل فهى لا تكفى، لأنهم لم ينالوا التعميد، الذى هو باب للعقيدة التى تؤمن بها.

٣٦٧ ـ وإذا كانوا قد عاشوا قبل المسيحية، فإنهم لم يعبدوا الله كما ينبغى، وأنا نفسى واحدٌ من بين هؤلاء.

٤٠ ـ بمثل هذه العيوب أصبحنا من الهالكين، لا بخطيئة أخرى، وعذابنا الوحيد أن نعيش فى شوق لا يحدوه أمل».

٤٣ ـ أخذ بقلبى أسى مرير حينما سمعته، لأنى عرفت أن قوما ذوى قدر عظيم، كانوا معلقين فى ذلك اللمبو.

٤٦ ـ بدأت، وأنا راغب فى الوثوق من ذلك الإيمان الذى يغلب كل خطأ: «قل لى ياسيدى، أخبرنى أستاذى،

٤٩ ـ ألم يخرج أحد من هنا أبداً، بجدارته أو بفضل غيره، فأصبح بعد سعيدًا؟» وذاك الذى فهم كلامى الخفى.

٥٢ ـ أجاب: «كنت جديدًا على هذه الحال، حينما رأيت قادرًا، يأتى هنا، متوجًا بعلامة النصر.

٥٥ ـ وانتزع منا شبح أبينا الأول، وشبح ابنه قابيل، وشبح نوح، وموسى المشرع المطيع.

٥٨ ـ والبطريق إبراهيم، والملك داود، وإسرائيل، ومعه والده وأولاده، وراحيل، التى فعل إسرائيل من أجلها الكثير.

٦١ ـ وكثيرين غيرهم، وجعلهم سعداء، وأريد أن تعلم أنه لم تُنقذ من قبلهم أرواح بشرية».

٦٤ ـ لم نتوقف عن المسير بينما كان يتكلم، ولكنا مضينا فى اختراق الغابة ، أعنى غابة الأرواح المزدحمة.

٦٧ ـ لم يكن طريقنا قد استطال بعد، منذ أن أخذنى النوم، حينما رأيت نارًا، تغلب عالمًا من الظلمات.

٧٠ ـ وكنا لا نزال نبعد عنها قليلا، ولكن إلى حد لا يمنع من أن أتبين نوعًا أن قومًا أمجادًا شغلوا ذلك الموضع

٧٣ ـ قلت: «أنت يا من تمجد كل علم وفن، من هؤلاء أصحاب مثل هذا المجد، الذى يميزهم عن حال الآخرين؟».

٧٦ ـ أجابنى: «إن ذكراهم المجيدة التى يتردد صداها فى حياتك فى أعلى، تكسبهم فى السماء الفضل الذى يميزهم هكذا».

٧٩ ـ سمعت وقتئذ صوتًا يقول: «مجدوا الشاعر الأعظم: إن شبحه يعود وكان قد ارتحل».

٨٢ ـ وبعد أن توقَّف الصوت وسكت، رأيت أشباح عظماء أربعة قادمين نحونا، ولم يكن لهم مظهر الحزن ولا البشر.

٨٥ ـ بدأ أستاذى الطيب يقول: «انظر إلى من حمل بيده ذلك السيف، ويأتى أمام ثلاثة كأنه السيد.

٨٨ ـ ذاك هوميروس أمير الشعراء، والآخر الذى يأتى من بعده هو هوراتيوس الساخر، والثالث أوفيديوس والأخير لوكانوس

٩١ ـ ولأن كلا منهم يشترك معى فى الاسم، الذى نطق به الصوت الوحيد، فهم يشرفوننى ، وبذا يحسنون صنعًا».

٩٤ ـ هكذا رأيت المدرسة الجميلة مجتمعة: مدرسة ذلك السيد صاحب القصيدة العظمى، الذى يحلّق فوق الآخرين كالنسر.

٩٧ ـ وبعد أن تحادثوا معا قليلا التفتوا إلىّ بإيماءة تحية، فابتسم أستاذى لذلك.

١٠٠ ـ وأضفوا علىّ فوق ذلك مجداً أعظم لأنهم جعلونى واحداً من زمرتهم، فأصبحت السادس بين هؤلاء الحكماء.

١٠٣ ـ وهكذا ذهبنا حتى ذلك النور، ونحن نتحدث عن أمور يحسن السكوت عنها، كما حسن الكلام هناك حيث كنا.

١٠٦ ـ جئنا إلى أسفل قلعة نبيلة، محاطة سبع مرات بأسوار عالية، ومحمية من حولها بجدول جميل.

١٠٩ ـ هذا عبرناه كأرض صلبة، ودخلت سبعة أبواب مع هؤلاء الحكماء: ووصلنا إلى مرعى ذى خضرة نضرة.

١١٢ ـ كان هناك قومٌ ذوو عيون هادئة وقورة، وفى وجوههم أمارات سلطان عظيم: تكلموا نادراً، وبأصوات رقيقة.

١١٥ ـ وهكذا انتحينا إلى أحد الجوانب، فى مكان مكشوف مستشرف مضىء، يمكن أن يسروا منه جميعهم

١١٨ ـ وهناك قبالتنا فوق خضرة منقوشة، تبدّت لى النفوس العظيمة، التى شعرتُ فى نفسى بالفخر لرؤياها.

١٢١ – رأيتُ إليكترا: مع رفاق كثيرين، وعرفتُ من بينهم هيكتور، وإينياس، وقيصر المسلح بعينى الصقر.

١٢٤ ـ ورأيت كاميلا وبانتسيليا فى الجانب الآخر، ورأيت لاتينوس الملك، الذى جلس مع ابنته لافينيا.

١٢٧ ـ ورأيت بروتس، هذا الذى طرد تاركوينوس، ولوكريتزيا، وجوليا، ومارتزيا، وكورنيليا، وفى جانبٍ رأيت صلاح الدين وحيداً.

١٣٠ ـ وحينما رفعتُ عينىَّ إلى أعلى قليلاً، رأيت أستاذ الذين يعلمون يجلس بين أسرة فلسفية.

١٣٣ ـ وكلهم ينظر إليه، ويمجده الجميع: وهنا رأيت سقراط وأفلاطون، اللذين وقفا أقرب إليه من الآخرين،

١٣٦ ـ وديموقريطس، الذى يجعل العالمَ وليدَ الصدفة، وديوجنيس، وأنا جزاجوراس، وطاليس، وإيمبيدوقليس، وهيراقليطس، وزينون.

١٣٩ ـ ورأيتُ ذلك الطيب جامعَ الخصائص، أعنى ديوسقوريدس، ورأيت أورفيوس، وتوليوس، ولينوس، وسينيكا الخلقى،

١٤٢ ـ وإقليدس الهندسى، وبطليموس، وهيبقراطيس، وابن سينا، وجالينوس، وابن رشد، الذى صنع التفسير الكبير.

١٤٥ ـ ولا أستطيع أن أصورهم كلهم تماما، لأن الموضوع الطويل يدفعنى، حتى إنه كثيرًا مايقصر الكلام عن الواقع.

١٤٨ جماعة الستة تنخفض إلى اثنين وفى طريق آخر يقودنى الدليل الحكيم، خارج منطقة السكون، إلى الهواء المرتعد.

١٥١ ـ وأبلغ، مكانًا ليس به ما يضىء.

***

الأنشودة
5

هبط الشاعران إلى الحلقة الثانية، وهى بداءة الجحيم الحقيقى عند دانتى، ووجدا عند مدخلها مينوس قاضى الجحيم الذى يعترف له الآثمون بما ارتكبوا، فيحكم بإرسالهم إلى الموضع الذى يناسبهم، بلفّات ذنبه حول نفسه، اعترض مينوس على قدوم دانتى، ولكن فرجيليو أوضح له أن هذه هى إرادة السماء وسمع دانتى عويل الآثمين الذين غلّبوا العاطفة على العقل فى أثناء الحياة، وعقابهم أن تدور بهم عاطفة هوجاء، دون أمل فى راحة أو فى أن تخفّ عنهم حدّة الألم وأشار فرجيليو إلى بعض المعذّبين مثل سميراميس وهيلانة وكليوباترا وتريستانو ثم رأى دانتى اثنين يذهبان معًا، وقد ترفقت بهما العاصفة، وهما فرنتشسكا دار يمينى وباولو ملاتستا، داعاهما دانتى باسم الحب أن يقدما عليه، فلبيا النداء فى شوق ولهفة، كفرخى حمام ناداهما الهيام إلى العشّ الحبيب أبدى دانتى عطفه على هذين الآثمين، فبادلته فرنتشسكا ذلك العطف، وتمنت أن تكون صلاتها عند اللّه مقبولة من أجل سلامه، قالت فرنتشسكا إن باولو أحبها فلم تستطع إلا أن تبادله حبًا بحب، وإن الحب قادهما معًا إلى موت واحد سألها دانتى كيف أتاح لهما الحب إن يتعرفا على رغباتهما الخبيئة، فأجابته فرنتشسكا بأنهما كانا يقرآن يوما وبلذة

قصة جينفرا ولانتشلوتو، فتأثرا بهما، وقبل باولو فرنتشسكا، وفاجأهما الزوج، وقتلهما معًا، ولم يقرآ منذ ذلك اليوم شيئًا وبينما كانت فرنتشسكا تتكلم عن حبها بأسى ولذة بكى باولو بمرارة ولم ينطق بكلمة واحدة فأحس دانتى أنه يفقد الوعى من فرط الأسى وهوى كجسم ميت يهوى إلى الأرض

١ ـ هكذا هبطتُ ـ أسفل ـ من الحلقة الأولى إلى الثانية، التى تحيط بمكان أصغر وآلام أعظم، وتلهبُ حتى العويل.

٤ ـ هناك يجلس مينوس الرهيب، ويصرّ بأسنانه: يزن الآثام عند المدخل، وبلفات من ذنبه يحكم ويقذف.

٧ ـ أعنى أنه عندما تردُ النفس الملعونة أمامه، تعترف بكل شىء، ويرى قاضى الخطايا ذاك،

١٠ ـ أىّ مكان فى الجحيم يناسبها، ويلّف ذّنبه من حوله، بعدد الحلقات التى يرغب أن يهبطوا إليها

١٣ ـ دوما يقف أمامه سيلٌ من الهالكين ويذهب كل بدوره ليلقى حكمه، يقولون ويسمعون، ثم يقذفون إلى أسفل.

١٦ ـ قال لى مينوس حينما رآنى، وقد توقف عن مزاولة عمله الخطير: «أنت يا من تأتى إلى موئل الآلام،

١٩ ـ احترس إذْ تدخل هنا، واحذر من تثق به، ولا يخدعنك اتساع المدخل!» فقال له دليلى: «لمادا تصيح كذلك؟

٢٢ ـ لا تعطل رحلة خطها له القدر: هكذا أريد هناك، حيث يمكن أن يفعل ما يراد، ولا تسألنى على ذلك مزيدا».

٢٥ ـ الان تبدأ أصوات الأسى تطرق أسماعى، والآن وصلت إلى موضع، يجتاحنى فيه عويل جارف.

٢٨ ـ لقد جئت إلى مكان يخرس فيه كلّ ضياء، ويهدر كما يفعل بحرٌ فى أثناء زوبعةٍ، حينما تبطمه رياح متعارضة.

٣١ ـ العاصفة الجهنمية التى لا تهدأ أبدًا، تقود الأرواح بعنفها: وترهقهم وهى تدور بهم وتضربهم.

٣٤ ـ وحينما يصلون أمام الأنقاض، نسمع هناك الصراخ والنواح والعويل، وهناك يلعنون القدرة الإلهية.

٣٧ ـ فهمتُ أنه قُضى بمثل هذا العذاب على مرتكبى خطايا الجسد، الذين يُخضعون العقل للشهوات.

٤٠ ـ وكما تحمل الزرازير أجنحتُها، فى سرب كبير متزاحم، وقت البرودة، كذلك تفعل تلك العاصفة بالأرواح الخبيثة،

٤٣ ـ تقودهم هنا وهناك، وإلى أسفل وإلى أعلى؛ لا يحدوهم الأمل فى طمأنينة ولا راحة أبدًا، ولا فى أن تخف عنهم حدّة الألم.

٤٦ ـ وكما تمضى الكراكى شادية بصوتها الباكى، وقد جعلت من نفسها فى الهواء صفا طويلا، هكذا رأيتُ أشباحًا تأتى وهى تُطلق

٤٩ ـ صرخاتها، وتحملها تلك العاصفة: ولذا قلت: «أستاذى، مَنْ هؤلاء القوم الذين يُضنيهم الهواء الأسود هكذا؟»

٥٢ ـ عندئذ قال لى: «الأولى بين من تريد أن تعرف أخبارهم، كانت إمبراطورة على لغات عديدة.

٥٥ ـ إنها استسلمت لشهوة الجسد، حتى جعلت لذة الغرائز مشروعةً فى قوانينها، لكى تمحو ما انغمست فيه من العار.

٥٨ ـ هى سميراميس، التى يُقرأ عنها أنها خلفتْ نينو، وكانت له زوجة ودان لها ملكٌ يحكمه السلطان.

٦١ ـ والأخرى هى التى قتلت نفسها وقد تيمها الحبّ، وحنثتْ بيمينها لرماد سيكيو، ومن بعدها كليوباترة أسيرة الشهوات

٦٤ ـ وانظر إلى هيلانة، التى دار بسببها عهدٌ مشؤوم، وانظر إلى أخيل العظيم، الذى قاتل فى النهاية وقد ساده الحبّ.

٦٧ ـ وانظر باريس، وتريستانو» ثم زرانى أكثر من ألف شبح، وذكر لى وهو يشير بإصبعه، أسماء الذين نزعهم الحبّ من حياتنا.

٧٠ ـ وبعد أن سمعتُ أستاذى يسمّى لى النساء العتيقات والفرسان، ملكنى الأسى، وأوشكت أن أفقد الوعى

٧٣ ـ وبدأتُ: «أيها الشاعر، كم أودّ أن أتحدّث إلى هذين الاثنين اللذين يذهبان معًا، ويبدوان هكذا خفيفين أمام الريح».

٧٦ ـ أجابنى: «سترى حينما يصبحان أقرب إلينا، ادعهما عندئذ باسم الحبّ الذى يقودهما، وسيأتيان».

٧٩ ـ وبينا تميل بهما الريح نحونا، رفعتُ صوتى: «أيهاتان النفسان المعذبتان، تعاليا حدّ ثانا، إنْ لم يمنعكما عن ذلك أحد».

٨٢ ـ وكحمامتين دعاهما الهيام، تأتيان عبرّ الهواء بأجنحة مرفوعة ثابتة إلى العشّ الحبيب، وقد حملهما الشوق،

٨٥ ـ هكذا خرج هذان من جماعة فيها ديدونى، آتيين نحونا وسط الهواء الخبيث، إذْ كان قويًا ندائى الجياش بالعاطفة.

٨٨ ـ أيها المخلوق الرقيق اللطيف، الذى تسير خلال الجوّ المعتم زائرًا إيانا، نحن اللذين خضبنا الأرضَ بالدم

٩١- لو كان ملك العالم صديقًا لنا، لضرعنا إليه من أجل سلامك، لأنك تشُفق على حظنا العاثر.

٩٤ ـ إننا سنسمع وسنتحدث إليك عما يلذّ لك أن تسمعه وتقوله، بينما تسكت لنا الريح، كما هى الان.

٩٧ ـ المدينة التى وُلدت فيها تستوى على شاطئ البحر، حيث يصبّ البو، لكى ينال السلام مع نهيراته.

١٠٠ ـ والحبّ الذى يُشغل القلب الرقيق سريعًا، تيمه بالجسم الجميل، الذى انتُزع منى، بطريقة لاتزال تُحزننى.

١٠٣ ـ الحبّ الذى لا يعفى محبوبًا من مبادلة الحب، سيطر على كيانى بلذّة، وهو كما ترى لا يفارقنى بعدُ.

١٠٦ ـ الحب قادنا إلى موتة واحدة: وقابيل ينتظر من أطفأ سراجَ حياتنا» حُملتْ منهما هذه الكلمات إلينا.

١٠٩ ـ وعند سماعى حديث هاتين النفسين المهيضتين، حنيتُ رأسى، ومكثتُ مطرقًا طويلاً، حتى قال لى الشاعر: «فيم تفكر؟»

١١٢ ـ وعندما أجبتُ، بدأتُ: «واحسرتاه، أى خواطر عذبة، وأى رغبة عميقة، أدت بهذين إلى الطريق الأليم!»

١١٥ ـ ثم اتجهت إليهما، وتكلمتُ، وبدأت: «يافرنتشسكا إن عذابك يستقطر منى الدمع حزنا وخشوعا.

١١٨ ـ ولكن أخبرينى إليهما، فى وقت التنهدات العذبة، كيف وبأىّ دليل أتاح لكما الحب، أن تتعرفا على رغباتكما التى يحولها الشك؟»

١٢١ ـ أجابتنى: «ليس من ألم أشدّ، من تذكُّر العهد السعيد وقت البؤس، وهذا ما يعرفه أستاذك.

١٢٤ ـ لكن إذا كانت تحدوك رغبةٌ عميقة، فى أن تعرف أصل حبنا، فسأفعل كمنْ يبكى ويتكلم.

١٢٧ ـ كنا ذات يوم نقرأ للمتعة، عن لانتشلوتّو، وكيف تيّمه الحبّ: وكنا وحيدين، لا يخامرنا شك.

١٣٠ ـ وجلعتْ تلك القراءة عيوننا تتلاقى عدّة مرّات، وأشحبتْ لونَ وجهينا، ولكن أمرًا واحدًا كان ذلك الذى غلبنا.

١٣٣ ـ حينما قرأنا أن البسمةَ المرتقبة، قد قبّلها مثل ذلك العاشق، طبع هذا الذى لن ينفصل عنى أبدًا.

١٣٦ - طبع على ثغرى قبلةً، وهو يرتجف كله. كان الكتاب وكاتبه هما جاليوتّو: ولم نقرأ فيه ذلك اليوم مزيدًا».

١٣٩ ـ وبينما كانت إحدى الروحين تنطق بهذه الكلمات، بكتْ الأخرى بمرارة، حتى تهالكتُ من الأسى كأنى أموت،

١٤٢ ـ وهوَيتُ كما يهوِى جسمٌ ميت.

***



5 ـ فنتشسكا وباولو

الأنشودة

6

أفاق دانتى من غشيته أمام عذاب فرنتشسكا وباولو، فوجد نفسه فى الحلقة الثالثة، حيث المطر والبرَد يهطل فوق المعذّبين الذين ارتكبوا خطيئة الشره والنهم رأى تشيربيروس الوحش ذا الرءوس الثلاثة - رمز الشره والنهم - وهو يعوى فوق رءوس المعذّبين ويمزقهم ويلتهمهم وعندما رأى الوحش دانتى كشر عن أنيابه، ولكن فرجيليو ملأ أفواهه الفاغرة بحفنة من أديم الأرض وفى أثناء مرور الشاعرين فوق الأشباح المغمورة فى مياه المطر، نهض شبح تشاكو المواطن الفلورنسى الذى اشتهر بالشره والنهم أبدى دانتى عطفه عليه وسأله عن مصير أهل فلورنسا فأجابه بأن الدماء ستسيل فى فلورنسا وأن حزب (البيض) سيطرد منها، ويحلّ مكانه حزب (السود) وأخبره أن العادلين قلائل فى فلورنسا، وأن الغطرسة والحسد والجشع هى أسباب ما أصاب فلورنسا من الويلات استفسر دانتى عن بعض أبطال فلورنسا مثل فاريناتا وتيجيايو وموسكا، وسأله أن يعمل على رؤيتهم، وهل هم فى السماء أم فى الجحيم. أجابه تشاكو بأنه قد هوت بهم إلى أعماق الجحيم خطايا أخرى ارتكبوها، وسأله أن يحمل إلى الأحياء ذكراه عند عودته إلى العالم الحبيب، ثم سقط مغمورًا فى الوحل. عرف دانتى من فرجيليو أن عذاب هؤلاء الآثمين سوف يزيد بعد

الحكم الأخير، لأنهم سيقتربون نوعا من الكمال، باتحاد نفوسهم بأجسامهم، لأنه كلما زاد الكمال زاد الإحساس باللذة والألم، كما يقول أرسطو، ثم هبط الشاعران إلى الحلقة الرابعة، التى يحرسها بلوتوس الشيطان، عدو الإنسان اللدود.

١ ـ بينما عاد إلىّ الوعى الذى كنتُ قد فقدته بإشفاق على الصِّنوين والذى بَلْبلَ بالحزن خاطرى.

٤ ـ إذا بى أرى من حولى عذابا جديدًا ومعذَّبين جددًا، أنى أتحرك وأتجه، وأينما أنظر.

٧ ـ أنا فى الحلقة الثالثة، حلقة المطر الأبدى، اللعين، البارد الثقيل، الذى لا يتجدّد عنفه أبدًا ولا يتغيرْ نوعه.

١٠ ـ بردٌ كبير، ومياهٌ مُسودّةٌ، وثلج يهطل خلال الهواء المظلم، فتبعثُ كريهَ الروائح الأرضُ التى تتلقى هذا كله.

١٣ – وتشيربيروس الوحش الكاسر العجيب، يعوى ككلبٍ ذى أفواهٍ ثلاثةٍ، على رؤوس القوم الذين غُمروا هنا.

١٦ ـ إنه ذو عينين حمراوين، ولحية كثة سوداء، وبطنٍ كبيرٍ، ويدين تسلّحا بالمخالب، وهو يمزق الأرواح ويسلخها ويشطرها أرباعا.

١٩ ـ يطلق المطر عواءَهم كالكلاب: ويتدرّعون بجنبٍ عن جنبٍ، ويتقلب الآثمون التعساء كثيرًا!

٢٢ ـ وحينما رآنا تشيربيروس، الوحش الضخم، فَغَر أفواهه وكشر لنا عن أنيابه، ولم يدَعْ عضوًا منه فى سكون.

٢٥ ـ فمدّ دليلى راحتيه، وأخذ ترابًا من أديم الأرض وقذف به، مُمتلئ القبضتين، فى الحلوق الجشعة.

٢٨ ـ ومثل ذلك الكلب الذى يتشهّى وهو ينبح، ويهدأ عندما ينهش الطعام، لأنه لا يَجِدّ ولا يقاتل إلا لافتراسه،

٣١ ـ كذلك فعلتْ تلك الوجوه البشعة، وجوه الشيطان تشيربيروس، الذى أرْعدَ فوق الأرواح، حتى رَغبتْ أن يُصيبها الصمم.

٣٤ ـ ومررنا فوق أشباح، ترزح تحت مطر ثقيل، وخَطونا فوق رسومها الخاوية، التى تبدو أجسادَ بشر.

٣٧ ـ استلقتْ كلها على الأرض سوى شبحٍ واحدٍ، نهض سريعًا ليجلس، حينما رآنا نمر من أمامه.

٤٠ ـ وقال لى: «أنت يا أيها المقود خلال هذه الجحيم، تعرَّفْ علىّ إن استطعت: إنك ولُدت قبل أن أموت».

٤٣ ـ قلت له: «إن العذاب الذى تعانيه، ربما يمحو صورتك من ذاكرتى، حتى لكأنى لم أرك من قبل قطّ.

٤٦ ـ ولكن أخبرنى مَنْ أنت الذى وضُعتَ فى مثل هذا المكان الأليم، وفى مثل هذا العذاب الذى إن وُجد ما يفوقه، فليس أشدّ منه تنفيرًا».

٤٩ ـ قال لى: «إن مدينتك التى هى مليئة بالحسد، حتى فاض به الإناء، قد احتوتنى فى الحياة الوادعة.

٥٢ ـ وأنتم يا مُواطنىَّ سمّيتمونى تشاكو: وإنى أنوء بخطيئة النهم اللعين، كما ترى، تحت وابل المطر.

٥٥ ـ ولستُ وحدى بالنفس البائسة، فهؤلاء كلهم ينالون ذات الجزاء لنفس الإثم» ولن ينطق بعد ذلك حرفًا.

٥٨ ـ فأجبته: « ياتشاكو، إن عذابك يثقل على نفسى كثيرًا، حتى ليدعونى إلى البكاء، ولكن أخبرنى، إذا كنت تعرف، إلى أين

٦١ ـ يصير سكان هذه المدينة المنقسمة، وهل بها إنسانٌ عادل؟ وخبرنى عن السبب الذى أصبحت به نهبًا لكل هذا الخلاف».

٦٤ ـ قال لى: «بعد صراعٍ طويلٍ سيسفكون الدماء، وسيطرد حزبُ الرّيف غريمه، بخسارة كبيرة.

٦٧ ـ ولابدّ بعد ذلك أن يسقط هذا الحزب خلال دوْرات للشمس ثلاثٍ، ويعلو الآخر بقوّة مَنْ يداورهما،

٧٠ ـ وسيحمل جباههُ عاليةً زمانًا طويلاً، موقعًا الآخر تحت فادح الأعباء، مهما أبدى لذلك من بكاءٍ أو أحسّ من عار.

٧٣ ـ العادلان اثنان، ولكن لا يستمع لهما هناك: والغطرسة والحسد والجشع، هى الشرارات الثلاث التى أشعلت القلوب».

٧٦ ـ وهنا اختتم كلامه الباكى، قلت له: «لازلتُ أرغبُ أن تعلمنى، وتمنحى من الكلام مزيدًا.

٧٩ ـ فاريناتا، وتيجيايو، وقد كانا ذَوَىّ فضلٍ عظيمٍ، وجاكوبه روستيكوتشى، وهنرى، وموسكا، والآخرون الذين وضعوا عقولهم لفعل الخير.

٨٢ ـ خبرنى أين هم، واعمل على أن أراهم، فإن رغبةً شديدةً تدفعنى إلى أن أعلم، أتسعدهم السماء أم تُهلكهم الجحيم».

٨٥ أجابنى: «إنهم بين أشدّ النفوس سوادًا: وإن خطايا أخرى فى أسفل تهوى بهم إلى القاع: فإذا أمعنتَ فى الهبوط استطعت أن تراهم.

٨٨ ـ ولكن حينما تُصبح فى العالم الحبيب، أرجو أن تحمل اسمى إلى ذاكرة الأحياء: ولن أزيدك حديثًا ولن أضيف جوابًا».

٩١ ـ واعترى الحولُ عينيه بعد استقامة النظر: وحدَجنى قليلا، ثم خفض رأسه: وسقط به بين سائر العميان.

٩٤ ـ قال لى دليلى: «إنه لن ينهض حتى يُنفخ فى صور الملائكة، حينما تأتى القوّة المعادية:

٩٧ ـ وسيسعى كلٌّ منهم إلى قبره الحزين، وسيستردّ جسدَه وصورته، ويسمع ما يدوِّى إلى الأبد».

١٠٠ ـ هكذا عبرنا خلال الخليط الكريه من الأشباح والمطر، بخطى بطيئة، ونحن نتحدّث قليلاً عن الحياة المقبلة.

١٠٣ ـ لهذا قلت: «أستاذى، هل سيزيد هذا العذاب بعد الحكم الأخير، أو ينقص، أو سيظل قاسيا هكذا؟»

١٠٦ ـ قال لى: «ارجع إلى علمك الذى يرى أنه كلما أصبح الكائن أكثر كمالا زاد إحساسه باللذة وكذلك بالألم.

١٠٩ ـ ومع إن هؤلاء القوم الملعونين، لا يبلغون الكمال لاحقيقى أبدًا، فإنهم يتوقعون أن يكونوا بعدُ أقرب إليه منهم الآن».

١١٢ ـ ودُرْنا حول ذلك الطريق، ونحن نتكلم كثيرًا، مما لا أعيد قوله، ووصلنا إلى موضع يبدأ الهبوط عنده:

١١٥ ـ وهناك وجدنا بلوتوس، العدوّ الكبير.

***

الأنشودة

7

أخذ بلوتوس يصرخ بألفاظ غير مفهومة لكى يبعد الشاعرين عن الجحيم، ولكن فرجيليو أسكته وأفهمه أن هذه هى إرادة السماء وبذلك تقدّم الشاعران إلى الحلقة الرابعة. رأى دانتى جماعة البخلاء إلى اليسار وجماعة المسرفين إلى اليمين، وهم يسيرون فى نصف دائرة وفى اتجاهين متعارضين، ويدفعون بصدورهم أثقالا من الصخر، ويتصايحون عند التقائهم، ويعيّر كلا الفريقين صاحبه بمثالبه، ثم يتراجعون بأثقالهم حتى موضع التقائهم التالى، وهكذا على الدوام، وتحدّث الشاعران عن القساوسة البخلاء، وكان من المتعذّر على دانتى أن يتبين واحداً منهم، لأن البخل قد سوّد وجوههم وغيّر سحنهم، ويقول فرجيليو: إن ذهب الدنيا كله لا يستطيع أن يريح نفسا واحدةً من العناء الذى تلاقيه فى سبيله ويشرح فكرته عن الحظّ الذى جعل اللّه له قوةً يغير بها أحوال الأمم والأفراد، مما هو فوق متناول البشر، وبهذا يتحوّل متاع الدنيا من قوم إلى قوم ومن أسرة لأسرة، وتسيطر أمة وتخضع أخرى ثم هبط الشاعران إلى الحلقة الخامسة مستنقع استيكس، ورأى دانتى فيه مَنْ سادهم فى الدنيا سرعة الغضب، وهم يتضاربون بالرءوس والصدور والأقدام، وبأسنانهم مزّقوا بعضهم بضعا وعرف دانتى أن تحتهم الكسالى الذين يتنهدون ويرسلون فقاقيع الهواء

إلى سطح الماء، وشهدا المعذّبين يبتلعون الوحَل والدنس، ووصلا فى النهاية إلى أسفل برج شاهق.

١ ـ بدأ بلوتوس بصوته الأجش: «بابى ساتان، بابى ساتان أليى!»

وذلك الحكيم الرقيق، الذى عرف كل شىء.

٤ ـ قال لكى يهدّئ من رُوعى: «لايؤذينَّك خوفك، فمهما يكن له من قوّة، فلن يمنعك من هبوط هذه الصخرة»

٧ ـ ثم اتجه إلى ذلك الوجه المنتفخ وقال: «صَهْ أيها الذئب اللعين: لك الويل بما يكنه صدرك من غضب.

١٠ - إن ذهابنا إلى الأعماق ليس دون سبب: هكذا أريدَ فى العلياء، حيث انتقم ميكائيل من جماعة المتغطرسين».

١٣ ـ وكما تسقط الأشرعة التى ينفخها الريح وهى متشابكة، حينما تتحطم ساريتها، كذلك سقط على الأرض الوحش المفترس.

١٦ ـ وهكذا هبطنا إلى الهوّة الرابعة، ونحن نتقدّم على الشاطئ الأليم، الذى يطوى آثام العالم كله.

١٩ - إيه يا عدالة الله! منْ ذا الذى يحيط بكلّ هذا العذاب والألم الجديد الذى شهدته؟ ولماذا تمزقنا خطيئتنا هكذا؟

٢٢ ـ وكما يفعل الموج هناك عند كاريّدى، وهو يتكسر مع الموج الذى يرتطم به، هكذا ينبغى أن يرقص القوم هنا رقصة التقابل.

٢٥ ـ رأيتُ هنا قومًا أكثر من كلّ موضع آخر، ومن هذا الجانب وذاك، وبصرخات مدوية أخذوا يدفعون أثقالاً بقوّة صدورهم.

٢٨ ـ وتصادموا فى تقابلهم، وهناك دار كل منهم، متجها إلى الوراء، وهم يتصايحون: «لماذا تحرِص؟» و «لماذا تبدد؟»

٣١ ـ وهكذا رجعوا داخل الدائرة المظلمة، من كلا الجانبين إلى النقطة المقابلة، وهم يصيحون دوامًا بهذا الكلام المشين..

٣٤ - وحينما بلغها كل منهم، استدار فى نصف دائرته، إلى اللقاء التالى. قلت وقد أحسستُ قلبى كأنما أصيب.

٣٧ ـ بطعنة: «أرِنى الآن أستاذى أىّ قومٍ هؤلاء! وحليقو الرأس على يسارنا هل كانوا جميعًا قساوسة!»

٤٠ ـ قال لى: «هؤلاء جميعًا انحرفت عقولهم كثيرًا فى الحياة الأولى، حتى لم ينفقوا شيئًا عن تقدير سليم.

٤٣ ـ بهذا تنبح أصواتهم فى وضوح، حينما يأتون إلى نقطتين فى الدائرة حيث تفصلهم آثامهم المتعارضة.

٤٦ ـ أولئك كانوا قساوسة، وهم مَنْ ليس على رؤوسهم غطاء من شعر، بابوات كانوا وكرادلةً، وقد تجلى البخل فيهم إلى غايته القصوى»

٤٩ ـ قلتُ: «أستاذى، بين مثل هؤلاء، لابدّ أنى سأعرف جيدًا بعضَ مَنْ تلوّثوا بهذه الشرور».

٥٢ ـ قال لى: إنك تجمع أفكارًا باطلة: فالحياة الخالية من المعرفة التى جعلتهم أدنياء، تنكر الآن وجوههم على كلّ معرفة.

٥٥ ـ وسيأتون أبدًا إلى نقطتى الصدام، وسيخرج أولئك من القبر مقفلة قبضاتهم، وهؤلاء وهم حليقو الرؤوس.

٥٨ - لقد أفقدهم سوء البذل وسوء الحفظ العالم الجميل، وألقى بهم فى هذا الصراع: ولستُ أنمّق كلامًا لكى أصوره.

٦١ ـ تستطيع الآن يابنى أن ترى الوهمَ القصير الأمد، فى الخير الذى يُعزى إلى الحظّ، ويقتتل النوعُ البشرىّ فى سبيله..

٦٤ ـ فإن كل ما تحت القمر من ذهبٍ، وما كان من قبل موجودًا، لا يستطيع أن يريحَ واحدةً من هذه النفوس المتعبة».

٦٧ ـ قلتُ له: «أستاذى، خبرنى الآن أيضا: هذا الحظ الذى تحدثنى عنه، ما هو، ذاك الذى يجمع خيرات الأرض هكذا بين براثنه؟».

٧٠ ـ قال لى: «أيتها المخلوقات الحمقاوات، ما أعظم الجهل الذى يشينكم! الآن أريد أن تهضم حكمى عليه.

٧٣ ـ إن مَنْ تسمو على شىءٍ حكمتُه، خلق السماوات وأمدّها بما يهديها، حتى يشع كل جزء نورَه على كلّ جزء..

٧٦ ـ موزّعًا الضياءَ بالتساوى: كذلك فى المباهج الدنيوية، فرَضَ سلطانًا عاما ودليلاً.

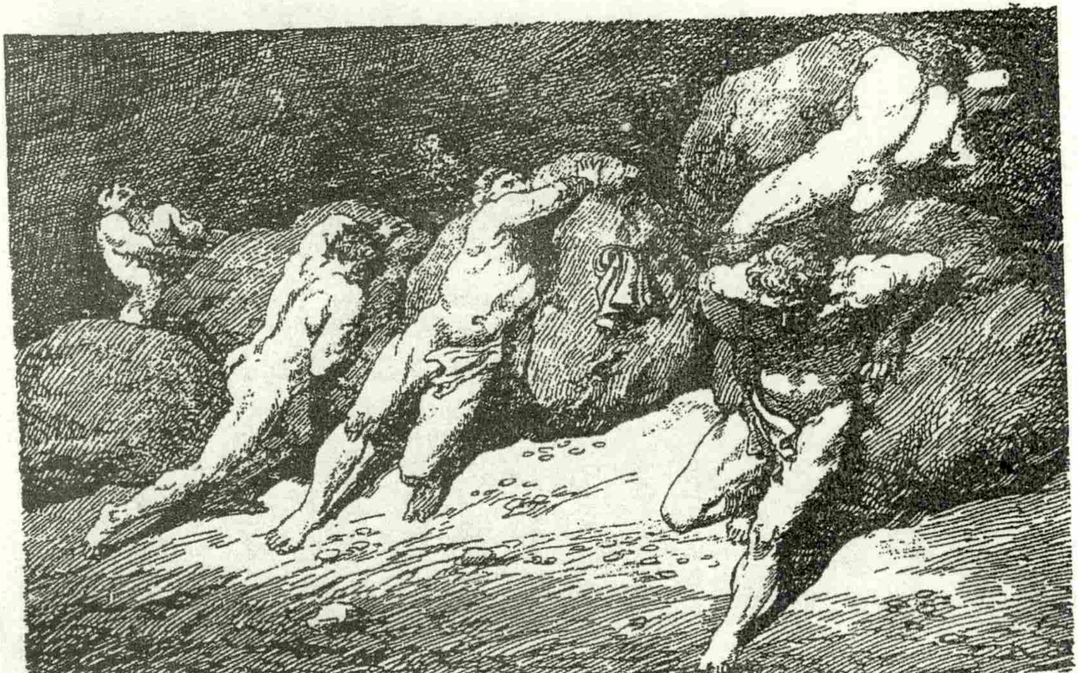
٧٩ ـ شأنه أن يحوِّل فى وقته المتاعَ الباطل، من قوم إلى قوم ومن أسرةٍ إلى أخرى، على رغم ما تبذله فى الدفاع حكمة البشر.

٨٢ ـ لذا يسيطر شعبٌ ويخضع آخر، تبعًا لما يحكم به ذلك الذى يختفى اختفاء الأفعى فى العشب.

٨٥ – ليس لعلمكم قوّة على مناهضته: إنه يدبر، ويقضى، ويسهر على ملكه، كما يفعل فى ملكهم سائر الأرباب

٨٨ ـ وليس لتقلباته هدنة: وتجعله الضرورة سريعَ التصرّف، وهكذا يأتى كثيرًا مَنْ يغير الأحوال.

٩١ ـ هو ذاك الذى يُلعن كثيرًا، حتى ممَّنْ وجب أن يكيلوا له الثناء، وهم يلعنونه بكلمات بذيئة دون صواب.



٥ - البخلاء والمسرفون

٩٤ ـ ولكنه فى النعيم، ولا يسمع شيئًا: يحرك فَلكه مبتهجًا مع سائر الكائنات الأولى، وينعم بالسعادة.

٩٧ - فلننزل الان إلى أسى أشد لقد هبط كلّ نجمٍ كان من قبل طالعًا، حينما تحركتُ للمسير، وليس لنا أن نبقى طويلا».

١٠٠ - لقد اجتزنا الحلقة إلى الشاطئ الآخر، فوق النبع الذى يغلى، ويصب خلال جَرُفٍ كان هو صانعه.

١٠٣ ـ كانت المياه سوداء أكثر منها حمراء داكنة، وفى رفقة الأمواج الغبرة، دخلنا إلى أسفل فى طريقٍ عجيب.

١٠٦ ـ يذهب هذا الجدول الحزين، إلى مستنقع يُدعى استيكس، حينما يهبط إلى سفح الشاطئين اللعينين الأغبرين.

١٠٩ ـ وأنا الذى وقفتُ لكى أمعن النظر، رأيت قومًا غمرهم الطين فى ذلك المستنقع، كلهم عرايا ذوو وجوهٍ غاضبة.

١١٢ ـ تضارب هؤلاء لا باليد وحدها، ولكن بالرأس والصدر والقدمين، وبأسنانهم مزّقوا أنفسهم إربًا إربًا.

١١٥ - قال أستاذى الطيب: «يابنى، إنك ترى الآن نفوسَ مَنْ غلبهم الغضب، وأريد كذلك أن تعرف فى ثقة.

١١٨ - أن قومًا تحت الماء يتنهدون، ويملئون بالفقاقيع هذا الماء عند السطح، كما تنبؤك عينك، أينما اتجهتْ.

١٢١ ـ يقولون وهم لاصقون بالوحل: «كنا بائسين فى الهواء الحبيب، الذى تُسعده الشمس، وقد حملنا فى جوفنا دخانَ الكسل.

١٢٤ ـ ونحن نحزن الآن فى هذا المستنقع الأسود» يتحشرج هذا اللحن فى حناجرهم، إذْ لايستطيعون قوله بألفاظٍ كاملة».

١٢٧ ـ وهكذا سرْنا فى قوسٍ كبيرٍ حول المستنقع الكريه، بين الشاطئ الجافّ ونفاية الماء، بعيون متجهة إلى مَنْ يبلغون الدنس:

١٣٠ ـ وجئنا أخيرًا إلى أسفل برج.

***

الأنشودة

8

تساءل دانتى عن الإشارات التى تبودلت بين البرج العالى ومدينة ديس، ثم رأى قاربًا مندفعًا نحوه بقوة كأنه سهم أطلق من قوس، يقوده فليجياس الشيطان حارس الحلقة الخامسة، الذى حاول البطش بدانتى، وقد حسبه أحد الهالكين ولكن فرجيليو أوقفه عند حده، ونزل الشاعران فى القارب وسار بهما فوق مستنقع استيكس، ثم ظهر شبح فيليبو أرجنتى المواطن الفلورنسى، وكان من ألدّ أعداء دانتى، وُعرف بالغطرسة وسرعة الغضب أظهر دانتى نحوه القسوة، فحاول أرجنتى أن يقلب القارب بدانتى، ولكن فرجيليو حال دون ذلك، وقبَّل دانتى وهدأ من روعه، وقال ان كثيرين يحسبون أنفسهم فى الدنيا ملوكًا عظامًا، وسوف يغمرون فى الجحيم كالخنازير فى الوحل، وانهال بقية المعذبين على أرجنتى فزادوه عذابا، وبذلك أرضى دانتى رغبته فى الانتقام من عدوّه. وسمع دانتى أصوات المعذّبين فى مدينة ديس ورأى أبراجها العالية، ووصل الشاعران إلى خندق الماء الذى يحيطها وأخيرًا وصل بهما فليجياس إلى باب المدينة. رأى دانتى أكثر من ألف شيطان من الملائكة الذين طردهم اللّه من الفردوس لخروجهم على طاعته وقد حاولوا منع دانتى من دخول مدينة ديس، عمل فرجيليو على التفاهم معهم دون جدوى، وأخذ يُسرّى

عن دانتى ويبعث الثقة فى نفسه الواهنة، وأفاده بأنه لابدّ سيظفر فى هذه التجربة وبأن ملاكًا سيهبط من السماء ويفتح لهما أبواب مدينة ديس.

١ ـ أقول بعدُ، إننا قبل أن نصير عند قدم البرج العالى بمسافةٍ طويلةٍ، اتّجهتْ عيوننا إلى قمته فى أعلى،

٤ ـ بشعلتين صغيرتين رأيناهما موضوعتين هناك، وبأخرى أرسلتْ إشارتها من بعيد، حتى لم تكد تلمحها العين.

٧ ـ واتجهتُ إلى بحر كلّ علم: وقلتُ: «هذه، ماذا تقول؟ ولماذا تجيب تلك النار الأخرى؟ ومَنْ الذين يصنعونها؟»

١٠ ـ قال لى: «يمكنك أن تتبين فوق الأمواج الغبراء ذاك الذى ينتظر، إذا لم يُخفه عنك ضباب المستنقع».

١٣ ـ لم يَقذفْ أبدًا قوسٌ بسهمٍ، جرى فى الهواء بسرعة فائقة، كما رأيتُ قاربا صغيرًا،

١٦ - يأتى نحونا فى تلك اللحظة فوق الماء، بقيادة ملاحٍ واحدٍ، يصيح قائلا: «قد وصلت الآن أيتها النفس الخبيثة».

١٩ ـ قال سيدى: «يا فليجياس، يا فليجياس، عبثًا تصرخ هذه المرّة: فلن تحوزَنا إلاّ ونحن نعبر المستنقع».

٢٢ ـ وكمَنْ يُصغى إلى خدعة كبرى حيكتْ له، فيأسى منها ويحزن، هكذا أصبح فليجياس فى غضبه المكظوم.

٢٥ ـ نزل دليلى إلى القارب ثم جعلنى أدخل إلى جانبه، ولم يبدُ القارب مثقلاً إلا بعد أن أصبحتُ داخله.

٢٨ ـ وما إن صرتُ ودليلى داخل السفينة حتى سار القارب القديم وقد زاد عمقه فى الماء، أكثر مما اعتاد إذْ يحمل غيرى.

٣١ – وبينما كنا نجرى فوق المستنقع الميت، ظهر أمامى هالكٌ ملىءٌ بالوحل، وقال لى: «مَنْ أنت يا مَنْ تجىء قبل الأوان؟»

٣٤ ـ قلت له: «إذا كنتُ قد أتيتُ فلن أبقى، ولكن مَنْ أنت يا مَنْ صرت قبيح المنظر هكذا؟» أجاب: «إنك ترى أنى نفسٌ تبكى»

٣٧ ـ قلتُ له: «فَلْتبق فى البكاء والحزن أيها الروح اللعين، فإنى أعرف أنك لازلت فى الدنس مغمورًا».

٤٠ ـ عندئذ مدّ إلى القارب كلتا يديه، ولذلك دفعه أستاذى اليقظ قائلاً: «ابتعد هناك مع سائر الكلاب!».

٤٣ ـ ثم أحاط بذراعيه عنقى وقبَّل وجهى قائلا: «أيتها النفس الغاضبة، ألا بوركتْ تلك التى حملتك جنينا!.

٤٦ ـ كان ذلك فى الدنيا رجلاً متغطرسا لا يزين ذكراه عملُ طيبٌ: وهكذا يبقى شبحه هنا مُحتَدِمٍ الغضب.

٤٩ ـ كم أناس يحسبون أنفسهم اليوم، هناك فى أعلى، ملوكًا عظاما، وسيصيرون هنا كالخنازير فى الوحل، تاركين وراءهم الاحتقار الشنيع!»

٥٢ ـ قلتُ: «كمّ تحدونى يا أستاذى الرغبة فى أن أراه غاطسًا فى هذا الدنس، قبل أن نخرج من هذه البحيرة».

٥٥ ـ قال لى «ستكون راضيًا قبل أن يتاح لك رؤية الشاطئ، ويجدر أن تتمتع بمثل هذه الرغبة».

٥٨ ـ وبعد ذلك وبقليل رأيتُ أهلَ الوحل، يُصْلون ذلك الهالك شديدَ العذاب، حتى لازلت أحمد الله على ذلك وأشكره.

٦١ ـ صاحوا جميعًا: «إلى فيليبو أرجنتى!» وتلك الروح الفلورنسية السريعة الغضب، أنحتْ على نفسها بالأسنان نهشًا

٦٤ ـ وهنا تركناه إذْ إنى لن أتحدث عنه مزيدًا، ولكنّ عويلاً طرق أسماعى، فجعلنى أمدّ النظر إلى الأمام فى انتباه.

٦٧ ـ قال لى أستاذى الطيب: «الان تقترب يا بنى المدينة التى تحمل اسم ديس، بأهلها المكتئبين وبحشدها الكبير.

٧٠ - قلتُ: «أستاذى، إنى أتبين بوضوح معابدَها هناك فى الوادى، محمرةَ اللون، كأنها خارجةٌ من النار».

٧٣ ـ قال لى: «النار الأبدية التى تستعر فى داخلها تجعلها باديةَ الحمرة، كما ترى فى هذه الجحيم السُّفلى».

٧٦ ـ ثم وصلنا إلى الخنادق العميقة، التى تحيط بتلك المدينة البائسة: لقد بدَتْ لى كأنّ أسوارها من حديد.

٧٩ ـ وبعد أن قمنا أولاً بدورة كبيرة، جئنا إلى مكانٍ صاح الملاّح عنده بنا عاليا: «اخرجا، هوَذَا المدخل».

٨٢ ـ رأيتُ أكثر من ألف شيطان على الأبواب يهطلون من السماء، وصاحوا فى غضب: «مَنْ ذا الذى يسير فى مملكة.

٨٥ ـ الموتى، دون أن يعرف الموت؟» فأبدى أستاذى الحكيم إشارة برغبته فى التحدّث إليهم سرًا.

٨٨ ـ عندئذ كظموا قليلاً من شدّة الغضب وقالوا: «تعال أنت وحدك، وَليذْهب ذاك الذى دخل هذه المملكة بمثل هذه الجرأة.

٩١ ـ فَلْيعد وحده فى طريقه المجنون: ولْيحاولْ إذا استطاع، فإنك ستبقى هنا، يا مَنْ صَحبتهُ خلال هذا العالم المظلم».

٩٤ ـ ولْتفكر أيها القارئ كيف فقدتُ شجاعتى، عند سماعى تلك الكلمات الملعونة، إذْ ظننتُ أنى لن أرجع هناك أبدًا.

٩٧ ـ قلتُ: «يا دليلى العزيز، الذى منحنى الأمان أكثر من مرّاتٍ سبع، وأنقذنى من هول المخاطر التى اعترضتْ سبيلى،

١٠٠ ـ لا تدَعنى واهنًا هكذا، وإذا كان ممنوعًا علينا أن نتقدّم إلى الأمام، فَلْنرجع معًا على آثارنا بخطًى سِراع».

١٠٣ ـ قال لى ذلك السيد الذى قادنى إلى هنا: «لا تخَفْ ، فلن يستطيع أحدٌ أن يعترض سبيلنا: إنها لكذلك مَنْ منحنا إياه.

١٠٦ ـ ولكن انتظرنى هنا، وسرِّ عن روحك الواهنة، وغذّها بالأمل الطيب، فلن أتركك فى العالم الأسفل».

١٠٩ ـ هكذا يذهب الأب الحبيب ويتركنى هنا وحيدًا، وأبقى يساورنى الشكّ، إذْ تضاربت فى رأسى لا ونعم.

١١٢ ـ لم أستطع أن أسمع ما عرضه عليهم، ولكنه لم يبق معهم هناك طويلا، وإذا هم يسارعون جميعًا متزاحمين إلى الداخل.

١١٥ ـ لقد أغلق الأبوابَ أعداؤنا هؤلاء فى وجه مولاى، الذى ظلّ خارجًا واتجه نحوى بخطوات متهادية.

١١٨ ـ وأطرقتْ عيناه إلى الأرض وخلا جبينه من كلّ ثقة، وقال وهو يتنهد: «مَنْ ذا يمنعنى من دخول بيوت العذاب».

١٢١ ـ ثم قال لى: «لا يساورك القلق لما يُثيرنى، فسأظفر فى هذه التجربة، مهما أعدّوا فى الداخل من وسائل الدفاع.

١٢٤ ـ وليس عنادهم هذا بجديد، فقد أظهروه من قبل عند بابٍ أقلّ خفاء، ولايزال إلى الآن دون إغلاق،

١٢٧ ـ وقد رأيتَ في أعلاه عنوان المنون: وسيهبط من هذا الجانب منه إلى الهاوية عابرًا لحلقات دون رفيق،

١٣٠ ـ مَنْ ستُفتح له أبواب المدينة».

***

الأنشودة

9

شحب لون دانتى عندما وجد فرجيليو قد تغير لونه لما أخفق فى دخول مدينة ديس، وتنبه فرجيليو إلى ذلك فأخفى ما ساوره وأخذ يبعث الثقة فى دانتى ولكن فرجيليو عاد إلى التردّد بين الشك والثقة فزادت مخاوف دانتى وأراد دانتى من ناحيته أن يجد سبيلا للاطمئنان فسأل فرجيليو إذا كان قد زار أعماق الجحيم من قبل، فأجابه بالإيجاب. رأى دانتى فوق البرج العالى ثلاث جنيَّات جهنميات تجمعن بين صفات الطير والنساء، وقد تعلَّقت بهن الأفاعى، وأخذن يمزّقن صدورهنّ بالأظفار ويلطمن أنفسهّن بالأكفّ وحاولن استدعاء ميدوزا لكى تحوّل دانتى إلى حجر حالَ رؤيته إياها، ولكن فرجيليو أداره إلى الوراء وأغمض عينيه وأنقذه من الخطر وسمع دانتى دوى تكسر رهيب اهتز له شاطئا المستنقع، وكان ذلك أشبه بريح عاتية تحطم الأشجار وتدفع الوحوش والرعاة إلى الفرار. وهبط من السماء رسول، فهربت الشياطين كما تهرب الضفادع أمام الأفعى وتلتصق بقاع المستنقع. فتح رسول السماء باب مدينة ديس بضربة من صولجانه، وعنّف الشياطين على صلفهم ثم عاد من حيث أتى، وقد بدت عليه سماء رجل تشغله مسائل أخرى. زالت مخاوف دانتى ودخل الشاعران مدينة ديس بسلام ورأى دانتى أمامه

سهلا فسيحًا مليئًا بالقبور، يشبه الأرض عند مدينتى أرليس وبولا وكانت تلك قبور المعذّبين من الهراطقة، وقد وُضعوا فى توابيت توهجت بألسنة اللهب، وهم يرسلون صرخات الألم ومضى الشاعران إلى الأمام بين قبور المعذّبين وأسوار مدينة ديس.

١ - ذلك اللون الذى رسمه الحوَرُ علىَّ من الخارج، عندما رأيتُ دليلى يعود أدراجه، طوى بداخله سريعًا لونه الطارئ.

٤ - وتوقف منتبهًا كمَنْ يتسمَّع، إذْ لمْ تسعفه عيناه بالرؤية بعيدًا، فى الهواء الأسود والضباب الكثيف.

٧ - وبدأ قائلا: «علينا - حسْبُ - أن نكسب المعركة، وإلاّ إنها لكذلك مَنْ أسدتْ إلينا العون: أوّاه! كم يبدو متأخرًا مجىء غيرى هنا!».

١٠ - ورأيتُ فى وضوحٍ كيف وارى ما بدأ به بالآخر، الذى أتى من بعدُ، وكان كلامًا مخالفًا للأوّل،

١٣ - ولكن حديثه على رغم ذلك قد بعث فى نفسى الخوف، لأنى فهمتَ من الكلام المقطّع معنى، ربما كان أسوأ مما ذهب إليه قصده.

١٦ - ألَمْ يهبط أحدٌ أبدًا من الحلقة الأولى إلى أعماق هذه الهوّة البائسة، وليس له من عذاب سوى الزمل المفقود؟»

١٩ - ألقيتُ عليه هذا السؤال فأجاب بقوله «نادرًا مايحدث أن يقوم أحدنا بهذه الرحلة التى أذهب فيها.

٢٢ - وفى الحقّ أنى كنتُ من قبل مرةً هنا فى أسفل عندما ناشدَتْنى ذلك إريكتو تلك القاسية، التى استدْعتْ الأشباحَ إلى أجسادها

٢٥ ـ وكنتُ قد تجرّدتُ من جسدى منذ قليلٍ، عندما جعلتنى أنفذُ داخل ذلك السُّور، لكى أُخرج روحًا من حلقه يهوذا.

٢٨ ـ ذلك هو أسفل مكان وأشدّه إظلامًا، وأبعده عن السماء التى تحيط بكلّ شىء: إنى أحسن معرفةَ الطريق ولذا فَلْتطمئنّ نفسك.

٣١ ـ وهذا المستنقع الذى ينفث تلك الروائح الخبيثة، يلتفّ حول مدينة العذاب، التى لانستطيع الان دخولها دون غضب».

٣٤ ـ وقال غير هذا، ولكنى لا أعيه فى ذاكرتى، لأن عينى جذبتْ كل انتباهى، نحو البرج العالى ذى القمة المحمرّة،

٣٧ ـ حيث انتصبتْ فى مكانٍ منه فجأة ثلاث جنيات جهنمياتٍ مخضّباتٍ بالدم، لهن أعضاء النساء وشكلهنّ.

٤٠ – وتمنطقنَ بهيدرات، شديدة الخضرة، وكان لهنّ مكان الشعر أفاع صغار وأخرى ذواتُ قرون، أطبقتْ على وجوههنّ المرعبة.

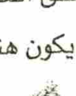
٤٣ – وذاك الذى عرف جيدًا وصائف ملكة البكاء الأبدىّ، قال لى: «انظر الجنّيات القاسيات،

٤٦ ـ فهذه ميجيرا فى الجانب الأيسر، وتلك إليكتو التى تبكى إلى اليمين، وفى الوسط تيزيفونى» وعندئذ لزم الصمت.

٤٩ ـ مزّقتْ كلٌّ منهنّ صدرها بالظافر، ولطمنَ أنفسهنّ بالأكفّ، وصرخن صراخًا مدّويًا، فالتصقتُ بالشاعر وقد تملكنى الخوف.

٥٢ – قلنَ وهنّ ينظرن جميعًا إلى أسفل: «تعالى ميدوزا: إننا سنحوّله الان إلى حجر هكذا، لقد أخطأنا إذْ لم ننتقم من تيزيوس على هجومه».

٥٥ – «استدرْ إلى الوراء وأغلق العينين إغلاقًا، لأن جورجون إذا ظهرتْ ورأتها عيناك، فلن يكون هناك رجوعٌ إلى أعلى أبدًا».



٥٨ ـ هكذا قال أستاذى وأدارنى بنفسه إلى الوراء ولم يثق بيدىّ وحدهما، بل بيديه أيضًا أغلق عينىّ.

٦١ ـ وأنتم يا ذوى العقول السليمة، تأملوا ما يختفى، وراء حجاب هذه الأبيات الغريبة، من مذهب واعتقاد.

٦٤ ـ وكان قد جاء فوق الأمواج المضطربة، دوىّ تكسُّرٍ ملىءٌ بالفزع، جعل كلا الشاطئين يرتجفان.

٦٧ ـ لم يختلف هذا عن ريحٍ عاتيةٍ تولدتْ عن حرارة متضادة، تعصف بالغابة دون توقفٍ،

٧٠ ـ تحطّم الفروعَ وتطرحها أرضًا وتحملها بعيدًا، وتمضى شامخةً تحدو زوبعةً من الغبار، وتدفع الوحوشَ والرعاة إلى الهرب

٧٣ ـ فكّ فرجيليو إسار عينىَّ وقال: «الان وَجّه زمامَ البصر إلى ذلك الزبد القديم، هناك حيث ذلك الضباب أكثف ما يكون».

٧٩٦ ـ وكالضفادع أمام عدوّها الأفعى، إذْ تتفرّق كلها غاطسة فى الماء حتى تلتصق جميعًا بالقاعَ

٧٩ ـ هكذا رأيت أكثر من ألف نفسٍ هالكة تهرب أمام مَنْ عبر مستنقع استيكس، بقدمين لم يُصبهما بللٌ.

٨٢ ـ أزاح دليلى ذلك الهواء الكثيف عن وجهه، بحركات كثيرة من يده اليسرى إلى الأمام، وبدا أن ذلك الجهد وحده قد ألحق به الضجر

٨٥ ـ وتبينتُ أنه كان رسولاً من السماء، فاتجهتُ إلى أستاذى، فأشار إلىَّ أن ألزم الصمت وأنحنى أمامه.

٨٨ ـ آه، كم بدا لى مليئًا بالازدراء! لقد وصل إلى الباب، وفتحه بضربةٍ من صولجانه إذْ لم يعترضه عائق.

٩١ ـ وبدأ عند المدخل الرّهيب قائلاً «أيها المطرودون من السماء، أيها القوم الأدنياء، كيف يسكن نفوسكم مثلُ هذا الصلف؟

٩٤ ـ ولِمَ تُعارضون تلك الإرادة، التى لا يفوتها تحقيق غايتها أبدًا، وكثيرًا ما زادتَكم عذابًا؟

٩٧ ـ وماذا يُفيد مقاومتكم أحكام القدَر؟ إن شيطانكم تشيروبيوس لو أحسنتم التذكرّ، لا يزال من أجل ذلك مقطوعَ الذقن والحلْق»

١٠٠ ـ ثم عاد فى الطريق الموحل، دون أن يوجه إلينا كلمةً، ولكن بدَتْ عليه سماء رجلٍ تستحثّه مسألةٌ أخرى وتشغله،

١٠٣ ـ عن أمر مَنْ هو قائمٌ أمامه، ثم حرّكنا أقدامنا، صوب المدينة، مطمئنين إلى هذه الكلمات المقدّسة.

١٠٦ – ودخلنا هناك دون عراكٍ، وأنا الذى كانت تساورنى رغبةٌ ملحّةٌ فى أن أرى حالَ من تضمهم مثل تلك القلعة

١٠٩ ـ أُسرِح عينىّ فيما حوالىّ لمّا صرتُ فيها، وأرى على كلتا اليدين سهلاً فسيحًا، مليئًا بالألم والعذاب الشديد.

١١٢ ـ وكما تجعل القبور الأرضَ كلها غير مستوية، عند مدينة أرْليس حيث تركد مياه الرون، وكما عند پولا قرب خليج كارنارو،

١١٥ – الذى يُغلق باب إيطاليا ويغمر أطرافها بالماء، كذلك فعلتْ القبورُ هنا فى كلّ جانب، غير أن الصورة كانت هنا أدهى وأمرّ.

١١٨ ـ إذْ انتشرت بين القبور ألسنةٌ من اللهب، اشتعلت بها جميعًا حتى لا تتطلب مهنةٌ حديدًا أشدّ وهجًا

١٢١ ـ كلّ أغطية القبور كانت مرفوعة، وقد خرجت منها صرخاتٌ قاسيةٌ، حتى بدا جليا أنها صادرةٌ عن معذبين بائسين.

١٢٤ ـ قلتُ: «أستاذى، مَنْ هؤلاء القوم الذين دُفنوا فى تلك التوابيت، ويُسمعَون بتنهداتهم الأليمة؟»

١٢٧٨ ـ أجابنى قائلاً: «هنا الهراطقة مع أتباعهم من كلّ نحلةٍ، والقبور مليئةٌ بهم أكثر ما تعتقد.

١٣٠ ـ هنا كلّ قرينٍ مع قرينه مدفونٌ، ويزيد سعير النار ويخفّ داخل القبور» وبعد أن استدار دليلى إلى اليمين،

١٣٣ ـ مررنا بين المعذّبين والأسوار العالية.

• • •

الأنشودة

10

سار الشاعران بين أسوار مدينة ديس وقبور المعذّبين، وعرف دانتى أنه أمام مقبرة الهراطقة من أتباع أبيقور، وسمع فجأة صوتًا يناديه بالتسكانى الصادق الأمين، فتولاه الخوف ولكن فرجيليو أوضح له أنه أمام فاريناتا وأنه سيراه كله من وسطه حتى رأسه. سأل فاريناتا دانتى عن أصله، ولما عرف أنه من الجلْف وقع بينهما فصلٌ من التراشق العنيف، يستند إليه ذكريات الصراع الحزبى فى فلورنسا بين الجلْف والجبلين، تناول نفى كلا الحزبين من فلورنسا وعودة الجلْف دون الجبلين إلى فلورنسا لأنهم عرفوا فن الرجوع إلى الوطن ثم قطع هذا الموقف العنيف ظهور كافالكانتى الجلفى الذى خرج من القبر باحثا عن ابنه جويدو صديق دانتى، لكنه لم يجده، واعتقد أنه مات، عندما تباطأ دانتى فى إجابته، فاختفى داخل قبره، وعاد الموقف العنيف بين دانتى وفاريناتا ثم تحوّل الموقف بينهما إلى الهدوء واللين قال فاريناتا إنه وإن كان قد حارب الجلْف الفلورنسيين إلا أنه دافع عن فلورنسا وحده عندما أراد الجبلين إزالة معالمها من الوجود. دعا دانتى لسلالة فاريناتا بالسلام، وسأله عن رؤية الموتى للمستقبل قال فاريناتا إن الموتى يرون الماضى والمستقبل دون الحاضر وعندئذ أدرك دانتى خطأه فى حقّ كافالكانتى،

وسأل فاريناتا أن يخبره أن ابنه لايزال حيًا، وإنه كان قد أبطأ فى إجابته لأنه كان يفكر فى اللغز الذى فهمه الآن. تحرّك الشاعران للمسير وأخذ دانتى يفكّر فى حياة المنفى التى تنبأ له بها فاريناتا ولكن فرجيليو ذكر له أن بياتريتشى سوف تشرح له كل شىء وتقدم الشاعران إلى الحلقة السابعة

١ ـ الان يسير أستاذى وأنا من وراء مَنكِبيه، فى طريقٍ خفىَ، بين أسوار المدينة وقبور المعذّبين.

٤ ـ بدأتُ: «أيها الفضل الأعلى، يا مَنْ تدور بى خلال الحلقات السيئات كما يروق لك، حدّثنى وأشبع رغباتى

٧ ـ هل يمكن رؤية القوم الذين اضطجعوا فى القبور؟ وها قد رُفعت كلّ أغطيتها، ولا يحرمها أحد».

١٠ ـ أجابنى: «إنها ستغلق جميعًا إذا عادوا هنا من وادى يوسافاط، بأجسادهم التى تركوها هناك فى أعلى.

١٣ ـ فى هذا الجانب توجد مقبرةُ أبيقور، ومعه كلّ مريديه الذين يجعلون النفسَ تموت مع الجسد.

١٦ ـ ولكنك ستنال وشيكًا هنا بالداخل، ما يرضيك عما وَجّهْتَ إلىّ من سؤالٍ، وعن الرغبة التى لم تُفصح عنها بعد».

١٩ ـ قلتُ: «أيها الدليل الطيب، إنى لا أغلق عنك قلبى إلا قصدًا فى الكلام، وإنك قد وَجهتنى إلى ذلك ليس الآن فحسبُ».

٢١ - «أيها التسكانىّ الذى تسير حيًا فى مدينة النيران، متكلمًا بهذا الإخلاص لعله يروقك أن تقف فى هذ المكان.

٢٥ ـ إن كلامك ينمّ عن أنك مولودٌ فى ذلك الوطن النبيل، الذى ربما كنتُ شديد القسوة عليه».

٢٨ ـ صدر هذا الصوت فجأةً عن أحد القبور، عندئذٍ ازددتُ اقترابًا من دليلى، وقد عرانى الوجل.

٣١ ـ قال لى: «استدرْ: ماذا تفعل، انظر هاك فاريناتا منتصب القامة: إنك ستراه كله من وسطه إلى أعلاه».

٣٤ ـ وكنت قد صوّبتُ عينى إلى وجهه، ووقف هو منتصب الصدر مرفوع الجبهة، كمَنْ يشعر نحو الجحيم بازدراء شديد

٣٧ ـ ودَفعتنى إليه بين القبور، يدا دليلى الجريئتان المتحفزتان، وهو يقول: «فَلْتكن كلماتك موزونة».

٤٠ ـ ولمّا وقفتُ عند دعامة قبره، نظر إلىّ قليلاً ثم سألنى بلهجة تنمّ عن الزراية: «مَنْ كانوا أجدادك».

٤٣ ـ ولم أُخْفِ عنه ذلك، إذْ كنتُ راغبًا فى طاعته، بل أفصحتُ له عن كلّ شىءٍ، عندئذٍ رفع حاجبيه إلى أعلى قليلاً،

٤٦ ـ ثم قال: «إنهم كانوا خصومًا ألدّاء لى ولأجدادى وحزبى، حتى لقد شتّتُّ شملهم مرّتين».

٤٩ ـ فأجبته قائلا: «إذا كانوا قد طردوا فإنهم رجعوا من كلّ صوبٍ فى كلتا المرّتين، لكن ذويك لم يحسنوا تعلم ذلك الفن».

٥٢ ـ عندئذ برز شبحٌ إلى جانبه أمام عينىّ، مكشوفًا إلى الذقن، وأعتقد أنه على ركبتيه وقف.

٥٥ ـ نظر حوالى كأنما تدفعه الرغبة فى أن يرى هل يصحبنى غيرى من البشر، ولكن لما زال عنده كلُّ شكٍّ،

٥٨ ـ قال وهو يبكى: «إذا كنتَ تزور هذا المحبس الأعمى بفضل عبقريتك السامية، فأين ابنى؟ ولماذا هو ليس معك؟»

٦١ ـ قلت له: «أنا لا أجيء من تلقاء نفسى: إنَّ مَنْ ينتظر هناك، يقودنى إلى هنا، وربما كان ابنك جويدو يحتقره»».

٦٤ ـ وفى كلماته وأسلوب عذابه، كنتُ قد قرأتُ اسمه وشخصه، ولذلك كانت إجابتى له جدّ وافية.

٦٧ ـ فنهض توًا منتصب القامة، وهو يصرخ قائلا: «كيف تقول؟ كان؟ ألا يعيش بعدُ؟ ألا يردُ على عينيه النور الحبيب؟»

٧٠ ـ ولمّا أدرك بعض الإبطاء الذى بدَرَ منى قبل أن أجيب سؤاله هبط سريعًا، ولم يظهر بعدُ فى الخارج.

٧٣ ـ ولكن ذلك الشبح الآخر العظيم، الذى وقفتُ تلبيةَ لدعائه، لم يغير ملامحه، ولم يحرك عنقه، ولم يَشن عِطفه.

٧٦ ـ وقال مكمّلا حديثه الأوّل: «إذا كان قومى لم يحذقوا ذلك الفن، فإن ذلك يؤلمنى أكثر من هذا الفراش المضطرم

٧٩ ـ ولكن لن يضيء خمسين مرة وجه السيدة التى تحكم هنا، حتى تعرف كم هو ثقيل ذلك الفن.

٨٢ ـ وأنت يا مَنْ عسى أن ترجع إلى العالم الحبيب، أخبرنى: لِمَ كان ذلك الشعب شديد القسوة على عشيرتى فى كل قوانينه؟»

٨٥ ـ عندئذ أجبته: «الدمار والهلاك الذى خضّب مياهَ أربيا بالدم، جعل مثل هذه الصلوات تتجاوب فى أرجاء معبدنا».

٨٨ ـ وبعد أن هزّ رأسه وهو يتنهّد، قال: «لم أكن فى ذلك وحدى، ولم يكن قطعًا دون سببٍ نهوضى مع الآخرين.

٩١ - ولكنى كنتُ وحدى هناك، حينما اتفق الجميع على محق فيورنتزا، وكنتُ وحدى الذى أدافع عنها بوجه صريح».

٩٤ - فرجوته قائلا: «آه! لكى تنعم سلالتك بالسلام، حُلّ لى تلك العقدة التى تُبلبل فكرى.

٩٧ - وإذا كنتُ أُحسن السمع، فيبدو أنكم ترون مقدّمًا ما يأتى به الزمن، أما الحاضر فلكم فيه طريقة أخرى».

١٠٠ - قال: «إننا نرى الأشياء البعيدة عنا، كما يفعل مريضُ البصر، وهذا هو الضوء الذى لايزال يمنحنا إياه الدليل الأعلى.

١٠٣ - وحينما تقترب منا أو تصير معنا يذهب كلّ نظرنا سدى، وإذا لم يحمل أحدٌ إلينا خبرًا، فلن نعرف شيئًا عن حالكم الإنسانية.

١٠٦ - ولذلك تستطيع أن تدرك أن معرفتنا ستموت تماما، منذ تلك اللحظة التى يوصد فيها باب المستقبل».

١٠٩ - عندئذ قلت كنادمٍ على ما وقعتُ فيه من خطأ: «أخبرْ إذًا ذلك الهابط، أن ابنه لايزال فى عداد الأحياء.

١١٢ - وإذا كنت قد سكتُّ قبلُ عن جوابه، فعرِّفه أنى فعلت ذلك لأنى كنتُ أفكّر فى الخطأ الذى حررتنى من قيده».

١١٥ - وكان أستاذى قد نادانى فرجوتُ توًا ذلك الشبح أن يخبرنى عمّنْ كانوا معه.

١١٨ - فقال لى: «إنى أرقد هنا مع أكثر من ألف: وهناك فى الداخل فردريك الثانى، والكردينال، أما عن الآخرين فلا أتكلم».

١٢١ - عندئذ اختفى: فوجهت خطواتى نحو الشاعر العتيق، متأملاً فى ذلك الكلام الذى بدا لى معاديًا

١٢٤ ـ وتحرّك دليلى إلى الأمام، ثم قال لى ونحن نسير على ذلك النحو: «لِمَ أنت مضطربٌ هكذا؟» فأجبته وأرضيتُ سؤاله.

١٢٧ - «فَلْتحفظْ ذاكرتك ما سمعت ضدّ شخصك» هكذا أمرنى ذلك الحكيم ثم رفع إصبعه قائلاً «والآن انتبه هنا جيداً:

١٣٠ ـ حينما تصبح أمام الضوء الحبيب، لتلك التى ترى عينها الجميلة كلَّ شىء ستعرف منها رحلة حياتك.

١٣٣ ـ بعدئذ وجَّه خطاه إلى اليسار: وتركنا السور، واتجهنا إلى الوسط، فى ممرٍّ يؤدى إلى واد،

١٣٦ ـ تصاعدتْ رائحته الكريهة هناك إلى أعلى.

***

الأنشودة

11

وصل الشاعران إلى حاجز من الصخور يفصل بين الحلقتين السادسة والسابعة، وأحسا برائحة كريهة تنبعث من أعماق الجحيم، فاضطرا إلى الاحتماء خلف غطاء قبر كبير احتوى طائفة من الهراطقة، وعلى رأسهم البابا أناستاسيوس الثانى. انتظر الشاعران بعض الوقت حتى يعتادا هذه الرائحة الكريهة، وفى أثناء ذلك وحتى لا يضيع الوقت هباء، أخذ فرجيليو يشرح لدانتى ما تحويه أعماق الجحيم، وتكلم عن مرتكبى خطيئة العنف، وكيف أنهم يوجهونه إلى الله وإلى الإنسان، إلى ذاته وإلى ما ملكت يداه وهناك القتلة وقطاع الطرق ومن يحرمون أنفسهم من الدنيا، وهناك من يرتكبون خطيئة الخيانة مثل المنافقين والمتملقين والمزيفين والمرتشين. تساءل دانتى: لماذا يوجد الجشعون ومَنْ غلَّبوا العاطفة على العقل وغيرهم من الآثمين خارج مدينة ديس، فشرح له فرجيليو الأمر يقول أرسطو فى كتابه عن علم الأخلاق، وقال له إن الخطايا تتفاوت فى خطورتها، فالعنف والخيانة أشدّ من سائر الخطايا، ولذلك فإن مكانهما فى أعماق الجحيم. وأشار إلى أقوال أرسطو بشأن الطبيعة التى تأخذ مجراها عن العقل الإلهى وفنه، وكيف أن الفن يتبع الطبيعة، حتى ليكاد يصبح لله حفيداً. وقال فرجيليو إن المرابى يسىء إلى

الخير الإلهى لأنه يخرج على الطبيعة وعلى الفن، عندما يبنى آماله على غيرهما، ويستثمر أمواله بطريقة غير طبيعية ولما أخذ الفجر فى الاقتراب تابع الشاعران سيرهما لبلوغ الحلقة السابعة.

١ ـ على حافة شاطئ مرتفع كونته صخور ضخمةٌ محطمةٌ فى شكل دائرة، شرفنا على حشد يلقى عذابا أقسى.

٤ ـ هنا، ومن أجل ما تُطلقه الهوة السحيقة من روائح نكراء كريهة، انسحبنا خلف غطاء قبر

٧ ـ كبير، حيث رأيت نقشا يقول: «أنا أحوى البابا أناستاسيوس، الذى حاد به فوطينوس عن الصراط القويم».

١٠ - «يجب أن يتأخر هبوطنا، حتى يعتاد إحساسنا أولاً كريه الروائح قليلا، وبعدئذ لن نعيرها التفاتا».

١٣ ـ هكذا تكلم أستاذى، فقلتُ له: «ألا فلتجد بعض العوض، حتى لا يضيع الوقت هباء» قال: «إنك ترى أنى فى هذا أفكر».

١٦ ـ ثم بدأ قائلاً: «يابنى فى داخل هذه الصخور ثلاث حلقات صغيرة، واحدة بعد أخرى، كتلك التى تتركها.

١٩ ـ وكلها زاخرة بأرواح لعينة، ولكن لكى يكفيك بعدئذ مجرد النظر اعرف كيف ولماذا احتشدت معا.

٢٢ ـ إن كل شر يثير الكراهية فى السماء، غايته الضرر، وكل هدف هذه طبيعته، يحزن الآخرين سواء بالعنف أم الغدر.

٢٥ ـ ولكن لما كان الغدر شرا يختص به الإنسان، فإن إساءته إلى الله تزداد، ولذا يستقر الغادرون فى أسفل، ويدهمهم عذاب أشد.

٢٨ - الحلقة الأولى كلها لمرتكبى العنف، ولكن بما كان العنف يُرتكب نحو ثلاث جهات، فقد قُسمت وأنشئت فى ثلاث دوائر

٣١ - وقد يعنف الإنسان مع الله أو مع نفسه أو مع الأقربين أعنى مع ذواتهم أو ماملكت أيديهم، كما ستسمع ذلك بصريح الكلام.

٣٤ - وبالعنف، قد يصب الإنسان على جاره الموت الزؤام، والجراح الأليمة، وينحى على أملاكه بالسلب والنهب والدمار والنيران.

٣٧ - ولذا فإن القتلة وكل من يجرح بسوء طوية، والناهبين وقطّاع الطرق، تعذبهم جميعا الدائرة الأولى، فى جماعات منفصلة.

٤٠ - ويستطيع المرء أن يوجّه إلى نفسه، وإلى مايملك يداً عنيفة، ولذا ينبغى أن يعض بنان الندم، دون جدوى، فى الدائرة الثانية.

٤٣ - وكل من يحرم نفسه من دنياكم، يقامر بثروته ويفقدها، ويبكى هناك، حيث ينبغى أن يكون سعيدا.

٤٦ - وقد يرتكب الإنسان العنف على الله، بإنكاره فى القلب ولعنه على اللسان، وبالزراية بخيره فى الطبيعة.

٤٩ - ولذا تدمغ صغرى الدوائر بميسمها كلا من سدوم وكاهور، وكل من يتحدث عن الله وهو يزدريه بقلبه.

٥٢ - وقد يسدد الإنسان الغدر، الذى يلدغ كلّ ضمير، إلى من يثق فيه، وإلى من لايوليه ثقته.

٥٥ - وهذه الصورة الأخيرة تبدو أنها تقطع، فحسب، رباط الحب الذى تصنعه الطبيعة، ولذلك يأوى إلى وكره فى الدائرة الثانية.

٥٨ - النفاق والملق، والسحرُ والزيف، والسرقة، والرشوة، والقوّادون والمختلسون، ومثل هذا الدنس.

٦١ ـ وفى صورة الغدر الأخرى، ينسى الإنسان ذلك الحب الذى تصنعه الطبيعة، ومايضاف إليه بعد وهو مايخلق الثقة الأكيدة

٦٤ ـ ولذا فإن كل خائن يلقى عذابه إلى الأبد، فى الحلقة الصغرى، حيث مركز العالم الذى يستوى عليه ديس».

٦٧ ـ قلت: « أستاذى، إن تباينك يسير بكلّ وضوح، ويحدّد جيدًا هذه الهاوية، والخلق الذين تملكهم.

٧٠ ـ ولكن أخبرنى: أصحاب المستنقع الموحل هؤلاء، والذين تقودهم الريح، ومن يضربهم المطر، ومن يتلاقون بمثل هذه الألسنة الحادة،

٧٣ ـ لم لا يعاقبون داخل المدينة الحمراء، مادام الله قد غضب عليهم؟ وإذا لم يحل بهم غضبه، فلم هم على هذه الحال؟»

٧٦ ـ قال لى: «لماذا يحيد عقلك بعيدًا عن مألوف صوابه؟ أم هل اتجه عقلك وجهة أخرى؟

٧٩ ـ ألاتذكر تلك الكلمات التى يتناول فيها كتابك عن الأخلاق، الاتجاهات الثلاثة، التى لاتريدها السماء:

٨٢ - الجشع، والحقد، والبهيمية المجنونة؟ وكيف أن الجشع تقلّ إساءته إلى الله، ويستحق لومًا أهون؟

٨٥ - إذا أحسنت النظر فى هذا الحكم، واستعدت إلى الذاكرة من هؤلاء الذين يقاسون هناك فى الخارج مرارة الندم،

٨٨ ـ فسترى جليا لماذا أبعدوا عن هؤلاء الأدنياء، ولماذا يصب عليهم الانتقام الإلهى عذابا أيسر».

٩١ - قلتُ: «أيها الشمس التى تبرئ كل نظر سقيم، إنك تغمرنى بالرضا بما تقدمه من حلول، وإن كان الشك لايقل إمتاعا عن المعرفة.

٩٤ ـ عد بعد إلى الوراء قليلا، هناك حيث تقول إن الربا يسىء إلى الخير الإلهى، وحلّ هذه العقدة».

٩٧ ـ قال لى: «تذكر الفلسفة لمن يفهمها حقا، ليس فى موضع واحد منها فحسب ـ كيف تأخذ الطبيعة مجراها،

١٠٠ ـ صادرة عن العقل الإلهى وفنه، وإذا أنت أمعنت النظر فى كتابك عن الطبيعة، فستجد ـ بعد ورقات غير كثيرة ـ

١٠٣ ـ أن فنك يتبع الطبيعة، بقدر ما يستطيع، كما يتبع المريد أستاذه، حتى ليكاد فنك يكون للّه حفيداً.

١٠٦ ـ ومن هذين الاثنين ـ اذا استعدت إلى الذاكرة بدء الخليقة ـ يجب على البشر أن يستمد حياته ويواصل تقدمه.

١٠٩ ـ ولما كان المرابى يسلك غير هذا الطريق، فإنه يحتقر الطبيعة فى ذاتها وفيما يتبعها، إذ إنه يضع آماله فى غيرهما.

١١٢ ـ ولكن اتبعنى الآن، فإن الرحلة تروق لى، وهاهو ذا برج الحوت، يصعد فى الأفق، ويستقر الدبّ الأكبر كله فوق ريح كاروس.

١١٥ ـ فهناك الهبوط على الشاطئ بعيداً».

***

الأنشودة
12

وصل الشاعران إلى مكان وعر لكى يهبطا منه إلى الحلقة السابعة، ووجدا المينوطاوروس عند مدخله يعترض سبيلهما، فأثار فرجيليو غضبه، وبذلك أبعده لحظة عن الطريق، وهبط الشاعران فوق حطام الصخور إلى الحلقة السابعة، وذكر فرجيليو سابق هبوطه إلى هذا المكان، عندما لم تكن صخوره على ذلك النحو وظهر أمامهما نهر تغلى فيه الدماء، ويعذب فيه مرتكبو خطيئة العنف. ورأى دانتى سيلا من القناطس مسلحًا بالسهام، وصاح أحدهما يستوقف الشاعرين مهددًا إياهما بإطلاق سهمه، فقال فرجيليو إنهما سيتحدثان إلى كيرون كبير القناطس، وكانت هذه تدور حول نهر الدماء بالألوف، وتضرب بسهامها من يعلو من المعذبين خارج الدم أكثر مما تستحقه خطيئته لاحظ كيرون أثر خطوات دانتى على الصخور وتحركها عند سيره، ولفت رفاقه إلى هذه الظاهرة، فأوضح له فرجيليو أن دانتى إنسان حىّ، وإنه يأتى هنا للضرورة لا للمتعة، وأنه ليس لصا آثمًا، أمر كيرون القنطروس نيسوس أن يكون دليلهما فى عبور نهر الدماء ورأى دانتى الطغاة الذين غرقوا فى الدم حتى عيونهم، وشهد القتلة الذين غطسوا حتى حناجرهم، وبالتدريج ظهر ظهر من نهر الدم بعض المعذّبين حتى صدورهم لخفة آثامهم، وعبر

نيسوس بالشاعرين نهر الدم فى أقلّ مواضعه عمقا، ثم عاد من حيث أتى إلى رفاقه من القناطس.

١ ـ كان ألبيًّا المكانُ الذى أتينا إليه لنهبط من الشاطئ ومن كان هناك أيضا جعله على صورة يرتد عنها كل طرف.

٤ ـ ومثل ذلك الحطام من الصخر الذى ارتطم بجانب الأديج، من ناحية تسرنتو سواء بفعل زلزال أم لهبوط باطن الأرض،

٧ ـ وعندما تحرّك الحُطام من قمة الجبل إلى السهل، تهشم الصخر حتى يشق بعض الطريق لمن كان فى أعلى.

١٠ ـ هكذا كان الهبوط فى ذلك المنحدر الوعر، وعلى حافة الصخر المحطم، استلقى عارُ كريت،

١٣ الذى حملته البقرة الزائفة فى بطنها، ولّما رآنا عض نفسه كمن يقهره الغضب فى أعماقه.

١٦ ـ وصاح دليلى الحكيم فى وجهه: «ربما تظنّ هنا دوق أثينا، الذى أذاقك الموتَ فوقُ ـ فى الدنيا.

١٩ ـ امضِ أيها الوحش، فإن هذا لايأتى بتدبير من أختك، ولكنه يمضى ليشهد عقابكم».

٢٢ ـ ومثل ذلك الثور الذى يحطم قيده، فى اللحظة التى يتلقى فيها الضربة القاتلة، فلايقوى على المسير، بل يقفز هنا وهناك.

٢٥ ـ رأيت المينوطاوروس هكذا يفعل، وصاح ذلك المتيقظّ قائلاً: «فلتسارع إلى المعبر، إذ يحسن أن يهبط وهو فى سورة الغضب»

٢٨ ـ هكذا هبطنا فوق حطام تلك الصخور، التى تحركت كثيرا تحت قدمى، لما تنوء به من حمل جديد.

٣١ - سرت متأملا، فقال لى: «ربما تفكر فى هذا الحطام يحرسه ذلك الغضب الوحشى، الذى أخمدت الآن سورته.

٣٤ ـ والان أريد أن تعلم أننى عندما نزلت فى المرّة السابقة هنا فى الجحيم السفلى، لم تكن هذه الصخرة قد سقطت بعدُ،

٣٧ ـ ولكن ـ إذا أحسنتُ التذكر ـ فمن المؤكد أنه قبيل أن يأتى ذاك، الذى انتزع من ديس الفريسة الكبرى فى الحلقة العليا،

٤٠ ـ اهتز الوادى العميق بعنف فى كل أرجائه، حتى ظننتُ أن العالم قد حسّ الحبّ، وهناك من يعتقد أن الدنيا

٤٣ ـ كثيرا ما انقلبت به إلى الفوضى والاضطراب، وفى تلك اللحظة سقطت على هذا النحو تلك الصخرة القديمة هنا وفى غير هذا المكان.

٤٦ - ولكن ثبت عينيك فى الوادى، فها يقترب نهر الدم، الذى يغلى فيه كل من يضر الآخرين بالعنف.

٤٩ ـ يا للجشع الأعمى، ويا للغضب المجنون، الذى يهزنا هكذا فى الحياة القصيرة، ثم يقذف بنا فى الحياة الأبدية على هذا النحو المرير!

٥٢ ـ رأيت هوة واسعة منحنية على شكل قوس، كتلك التى تحتضن كل السهل، طبقا لما قاله رفيقى.

٥٥ ـ وبينها وبين سفح الشاطئ جرى سيلٌ من القناطس صفا واحدًا، وقد تسلحت بسهام، كما اعتادت فى الدنيا أن تخرج إلى الصيد.

٥٨ ـ وقفتْ جميعًا حينما رأتنا نهبط، وانفصل ثلاثة من حشدها، بأقواس وأسهم مختارة من قبل.

٦١ ـ وصاح واحد منها عن بعد: «إلى أى عذاب تأتيان إيها الهابطان على الشاطئ؟ تكلمًا حيث أنتما، وإلا شددت القوس».

٦٤ ـ قال أستاذى: «سنوجه الجواب إلى كيرون هناك عن كثب، فلقد أضرت بك دائمًا رغبتك المتعجلة هكذا».

٦٧ ـ ثم ربت علىّ وقال: «هو ذا نيسوس، الذى مات من أجل ديانيرا الجميلة، وجعل من نفسه أداة الانتقام لنفسه.

٧٠ ـ وذاك، فى الوسط، الذى يتطلع إلى صدره، هو كيرون الكبير، الذى ربى أخيل، وذاك الآخر هو فولوس، الذى أفعم هكذا بالغضب.

٧٣ ـ إنها تسير ألفا ألفا حول بحيرة الدماء، وترمى بسهامها كل نفس تبرز من الدم، فوق ما تقتضيه خطيئتها.

٦٧ ـ واقتربنا من تلك الوحوش المتحفزة، فتناول كيرون سهمًا، أزاح بمؤخرته لحيته وراء فكيه.

٧٩ ـ ولما كشف عن فمه الواسع، قال لرفاقه: «هل انتبهتم إلى أن من بالخلف، يحرك كل ما يمسه؟

٨٢ ـ وما اعتادت أقدام الموتى أن تفعل ذلك» فأجاب دليلى الطيب، الذى كان قد بلغ مستوى صدره، حيث تلتقى الطبيعتان:

٨٥ - «حقا إنه حى وحيد هكذا، ويجب علىَّ أن أريه الوادى المظلم: فالضرورة تحدوه إليه لا المتعة.

٨٨ ـ لقد انقطعت عن نشيدها العلوى من عهدت إلىَّ بهذا العمل الجديد: إنه ليس لصا ولست أنا بالنفس السارقة.

٩١ ـ ولكن باسم ذلك المقام السامى الذى أحرك من أجله خطواتى فى طريق موحش كهذا، أعطنا من أتباعك واحدا قريبا منا،



٩٤ ـ كى يرينا أين مكان العبور، ويحمل هذا الإنسان على ظهره، فإنه ليس روحًا يذهب فى الهواء».

٩٧ ـ فاتجه كيرون صوب اليمين وقال لنيسوس: «ارجع وكن لهما خير دليل، واذا اعترضكم حشد آخر فأبعده».

١٠٠ ـ الان مضينا إلى الأمام مع الدليل الأمين، على شاطئ الغليان القانى، حيث أطلق من يُغلون فيه صرخات عالية.

١٠٣ ـ ورأيت قوما غاطسين حتى الرموش، وقال القنطروس الكبير: «أولئك هم الطغاة الذين أراقوا الدماء وأعملوا السلب والنهب.

١٠٦ ـ إنهم يبكون هنا ما اقترفوه من جرائم دون رحمة، هنا الإسكندر وديونيسيوس الوحشى، الذى أذاق صقلية سنوات من العذاب الأليم

١٠٩ ـ وذاك الجبين ذو الشعر الحالك السواد هو أتزولينو وذلك الآخر الذى هو أشقر، هو أوبيتزو دا إستى، الذى قتله فى الحقيقة

١١٢ ـ هناك على الدنيا الابن الاثيم» ؟حينئذ اتجهتُ إلى الشاعر، فقال: «ليكمن هذا الآن دليلك الأوّل، وأنا الثانى».

١١٥ ـ وبعد هذا بقليل، وقف القنطروس على قوم، بدا أنهم خرجوا حتى حناجرهم، من جدول ذلك الحميم الآنى.

١١٨ ـ وأرانا شبحًا منعزلاً إلى جانب وهويقول: « لقد طعن هذا الشبح فى معبد للّه، قلبا لايزال مجدًا على التاميز.

١٢١ ـ ثم رأيت قوما أخرجوا من النهر الرأس وكذلك الصدر كله، وعرفتُ من بينهم كثيرين.

١٢٤ - وهكذا انخفض ذلك الدم رويدًا رويدًا، حتى لم يعدْ يغطى سوى الأقدام، وهناك عبرنا ذلك المستنقع.

١٢٧ ـ وقال القنطروس: «وكما ترى هذا الجانب من جدول الحميم الآنى يأخذ دائمًا فى النقصان، أريد أن تعلم

١٣٠ ـ أن الجانب الآخر يهبط قاعه شيئا فشيئا، حتى يبلغ موضعًا من الحتم أن يبكى فيه الطغيان.

١٣٣ ـ هناك تعذّب العدالة الإلهية أتيلاً ذاك، الذى كان نقمة فى الأرض، وتعذّب بيروس، وسكستوس، وتستدر إلى الأبد.

١٣٦ ـ دموعًا تسيلها شدة الغليان، من أعين رينير دا كورنتيو، ورينير باتزو، اللذين أثارا حربًا مريرة فى مجاهل الطرق».

١٣٩ ـ ثم استدار إلى الوراء، واستأنف اجتياز المستنقع.

***

الأنشودة
13

وصل الشاعران إلى الدائرة الثانية من الحلقة السابعة، وكانت غابة بريّة جافة الأشجار، وبها أعشاش الهربوسات التى كانت لها وجوه النساء وأجسام الطيور. سمع دانتى فى كلّ جانب نواحًا لم يعرف مصدره فتولاه الرعب والاضطراب أشار عليه فرجيليو بأن يقطع غصنًا حتى يعرف السر، فعل، فصاح جذع الشجرة متألمًا وقد سالت منه الدماء، فزاد رعب دانتى واضطرابه اعتذر فرجيليو للنفس الجريحة التى سكنت تلك الشجرة كانت هذه روح بييرو دلا فينيا الذى خّف ألمه عندما علم أن دانتى سيجدّد ذكره عند عودته إلى الدنيا قال إنه كان موضع ثقة الإمبراطور فردريك الثانى، ثم أثار الحقد عليه النفوس، ففقد مركزه، وارتكب جريمة الانتحار، وبذلك أصبح غير عادل مع نفسه العادلة. سأله فرجيليو كيف تتحد نفس المنتحر بهذه الأشجار، فأفاده بأن مينوس حارس الجحيم يرسلها إلى هذه الغابة حيث تنبت شجرة جافة قاسية، ثم تهاجمها الهربوسات وتتغذى منها وفجأة سمع الشاعران أصوات الصيد والوحوش قادمة نحوها ورأيا روحين تهربان من كلاب متحفزة تطاردهما، وكانتا روحى مواطن من سيينا وآخر من بادوا، وقد أسرفا فى أموالهما وأموال غيرهما، لجأت إحداهما إلى بعض العشب الكثيف محتمية به، فمزقتها الكلاب إربا، فصاحت روح مواطن فلورنسى سكن فيها وقالت إنه لولا

وجود بقية من تمثال مارس راعى فلورنسا القديم، لما استطاع الفلورنسيون أن يعيدوا بناء مدينتهم بعد غارة أتيلا، وتنبأ لفلورنسا بالصراع الداخلى الدائم.

١ - لم يكن نيسوس قد وصل هناك بعدُ، حينما دخلنا فى غابة، لم يدل عليها طريق.

٤ - لا أوراق خضراء بها، بل داكنة اللون، ولا غصون ملساء، بل ملتوية كثيرة العقد، ولا فاكهة بها، ولكن أشواك ذات سموم.

٧ - وليس لتلك الوحوش المفترسة، التى تكره المناطق المزروعة بين تشيتشينا وكورنيتو، أجمات فى مثل هذه الكثافة والخشونة.

١٠ - هنا تبنى أعشاشها الهربوسات القبيحة، التى طردت أهل طروادة من استروفاديس، بنبوءة حزينة عن محنة المستقبل.

١٣ - إنهن ذوات أجنحة كبيرة، ولهن رقاب أناسى ووجوه بشر، وأقدام ذات مخالب، وبطون كبيرة يكسوها الزغب، ويطلقن نواحًا، فوق الأشجار الغريبة

١٦ - بدأ أستاذى الطيب قائلا: «اعلم قبل أن تتقدم إلى الأمام، أنك فى الدائرة الثانية، وستبقى بها.

١٩ - حتى تبلغ الرمل الرهيب، ولذا فانظر جيدا، وسترى أشياء يمكن أن تنزع من نفسك الثقة فى كلامى».

٢٢ - وسمعتُ من كل جانب نواحًا ينطلق، ولم أرَ إنسانًا يصدره، ولذا توقفت عن المسير وقد تولانى الاضطراب.

٢٥ - أخال إنه ظن أنى اعتقدت، أن هذه الأصوات الكثيرة قد صدرت، من بين تلك الجذوع، عن قوم أخفوا أنفسهم عنا.

٢٨ ـ ولذا قال أستاذى: «إذا قطعت من إحدى هذه الأشجار غصنا صغيرا، فستصبح كل أفكارك دون أساس».

٣١ ـ عندئذ مددت يدى إلى الأمام قليلاً، وانتزعتُ غصنًا صغيرًا من فرع كبير، فصاح جذعه: «لماذا تقطعنى؟»

٣٤ – ولما اسودّ بعدئذ لونه بالدم، عاد إلى صباحه: «لماذا تمزّقنى؟ أليس فى قلبك من الرحمة أثارة؟

٣٧ – لقد كنا رجالاً، وأصبحنا الآن أشجارا: وينبغى حقا أن تكون أرحم يدا، ولو كنا نفوس أفاع».

٤٠ ـ وكغصن أخضر يحترق أحد طرفيه، ويقطر الآخر ماء، ويصرصر من أثر الهواء الذى يخرج منه.

٤٣ – كذلك خرج من الغصن المقطوع الدم والكلام معا، عندئذ تركتُ الغصن يسقط، وظللتُ كرجل يساوره الخوف.

٤٦ ـ وأجابه حكيمى قائلا: «أيتها النفس الجريحة، لو أنه استطاع من قبل أن يصدق ما رآه فى شعرى وحده،

٤٩ – لما مدّ إليك يدا، ولكن الشىء الذى لم يصدقه، جعلنى أدفعه إلى عمل يثقل على نفسى ويصعب.

٥٢ ـ ولكن خبره من كنت، حتى يصحح بعض ما فعل، فيجدد ذكراك فوق، فى الأرض، حيث من حقه أن يرجع».

٥٥ – قال الجذع: «إنك تغرينى هكذا بمعسول الكلام، فلا أستطيع صمتا، وعسى ألا يكون ثقيلا عليك، إذا أطلت فى الحديث قليلا.

٥٨ – أنا ذاك الذى استحوذ على مفتاحَى قلب فردريك، وأنا الذى أدارهما فاتحًا مغلقًا برفق ولين.

٦١ ـ إلى أن كدت أبعد عن سره كل إنسان: وحملتُ الأمانة للمنصب المجيد، حتى فقدت فى ذلك الكرى ونبضات القلب.

٦٤ ـ والعاهرة، التى لم تحول أبدًا عينيها الداعرتين عن منزل قيصر، والتى هى هلاك للجميع وإثم لكل بلاط.

٦٧ ـ أشعلتْ على كل النفوس، وسعَّر المشتعلون حقدًا قلب أغسطس هكذا، حتى تحولت أمجادى السعيدة إلى أتراح حزينة.

٧٠ ـ ونفسى التى أحست بالزراية، وهى معتقدة أنها تهرب من الرزاية بالموت، جعلتنى غير عادل مع نفسى العادلة

٧٣ ـ وأقسم لك بالجذور الجديدة من هذه الشجرة، أنى لم أنكث أبدًا بعهد سيدى الذى كان جديرًا بكل تشريف.

٧٦ ـ واذا رجع أحدكما إلى الأرض فليرض ذكراى التى لاتزال صريعة طعنة، سددها إليها الحسد».

٧٩ ـ تمهل الشاعر قليلا ثم قال لى: «مادام قد سكت، فلا تضيع وقتا، ولكن تكلم، واسأله إذا راقك المزيد».

٨٢ ـ حينئذ قلت له: «زده أنت سؤالا عما تعتقد أنه يرضينى، فإنى لا أستطيع، لأن فرط الأسى يضنينى!».

٨٥ ـ وعلى ذلك استأنف قائلا: «فليؤد لك هذا الرجل طوعا ما تمناه حديثك، أيتها الروح الحبيسة، ولعله يرضيك بعد

٨٨ ـ أن تخبرينا كيف تتحد النفس بهذه العقد، وأخبرينا إذا استطعت، هل تتحرر أبدًا إحدى النفوس من مثل هذه الأعضاء!».

٩١ ـ عندئذ زفر الجذع بقوة، فتحول ذلك الزفير إلى هذا الصوت: «ستتلقى الجواب بكلام وجيز».

٩٤ - عندما تغادر الروح القاسية الجسد، الذى انتزعت منه نفسها، يرسلها مينوس إلى الهوة السابعة.

٩٧ - وتسقط فى الغابة، وليس لها مكان مختار، ولكن حيث يقذف بها الحظ، وهناك تنبت مثل حبة حنطة.

١٠٠ - وتنبعث ساقا وتصير نباتا بريا: وحين تتغذى الهربوسات بعد على أوراقها، تؤلمها، وتجد منفذاً للألم.

١٠٣ - وسنذهب كالأخريات بحثا عن أجسادنا، ولكن لن تلبسه إحدانا حقا، إذ ليس عدلا أن ينال الإنسان ما خلعه بنفسه.

١٠٦ - وسنجرها هاهنا، وستعلق أجسادنا فى الغابة الحزينة، كل منها فى الشجرة البرية التى يسكنها شبحه المعذب»

١٠٩ - كنا لا نزال منصتين، إلى الجذع على ظن أنه أراد أن يقول لنا غير ذلك، حيث فاجأنا دوى شديد.

١١٢ - كمن يحس بالخنزير وركب الصيد مقبلا على مكان وقوفه، ويسمع الوحوش وتكسر الأغصان.

١١٥ - وإذا هناك اثنان على الجانب الأيسر، عاريان ممزقان يمعنان هربا، حتى حطمت فى الغابة كل غصن.

١١٨ - صاح المتقدم: «عجل الآن! عجل أيها الموت!» وصاح الاخر الذى بدا متأخراً عنه كثيراً: «لم تكن ساقاك يا لانو

١٢١ - سريعتين هكذا فى معارك توبو!» وربما لأنه أعوزه النفس، جعل من نفسه ومن الدغل مجموعة واحدة.

١٢٤ - ومن خلفهما كانت الغابة ملأى بكلاب سوداء متحفزة سريعة العدو، ككلاب سلوقية انطلقت من سلاسلها.

١٢٧ ـ وأنشبت أسنانها فى ذاك الذى كان مختفيا، ومزقته إربا إربا، ثم حملت تلك الأشلاء المعذّبة

١٣٠ ـ حينئذ أخذنى دليلى من يدى، وقادنى إلى الدغل الذى كان يبكى دون طائل، من خلال جراحه الدامية.

١٣٣ ـ قال الدغل: «أنت يا جاكومو دا سانت أندريا، ماذا أفدت إذ جعلتنى دريئة لك؟ وأى ذنب لى أن كانت حياتك آثمة؟»

١٣٦ ـ فلما وقف عنده أستاذى قال: «من ذا كنت، أيها الذى يتدفق من جراحه العديدة الكلام الأليم مع الدم».

١٣٩ - أجابنا: «أيتها النفسان اللتان جئتما لتشهدا العذاب المزرى، الذى جردنى هكذا من أوراقى.

١٤٢ ـ هيا إلى جمعها عند أسفل الدغل الحزين، لقد كنت من المدينة التى استبدلت المعمدان براعيها الأول، ولذا فإنه

١٤٥ ـ سيجعلها بفنه على الدوام شقية ولولا أن بعض ملامح منه لاتزال باقية فوق جسر الأرنو

١٤٨ ـ لكان أولئك المواطنون، الذين أعادوا بناءها بعد، فوق ما خلفه أتيلا من رماد، قد أتوا عملا غير ذى جدوى.

١٥١ ـ ولقد جعلت من بيتى مشنقة لى».

***

الأنشودة
14

تأثر دانتى بكلام الفلورنسى المجهول فى القصيدة السابقة، ودفعه حبه لوطنه إلى أن يجمع الأوراق المتناثرة ويعيدها إلى الروح التى لزمت الصمت. ووصل الشاعران إلى الدائرة الثالثة فى الحلقة السابعة، وكانت سهلا من الرمال الجرداء التى تشبه رمال ليبيا وقد وطئها كاتون من قبل، وأحاطت هذه الرمال بغابة المنتحرين. رأى دانتى قُطعانًا كثيرة من المعذبين، يبكون فى بؤس شديد، وقد اتخذوا أوضاعًا مختلفة فوق الرمال تبعًا لخطيئة العنف التى اقترفوها على الله أو الفن أو الطبيعة، وتساقطت عليهم ألسنة اللهب من السماء دون انقطاع. رأى دانتى كابانيو الذى احتقر الآلهة فى الأرض كما احتقرهم فى الجحيم، وقد اعتقد أن قوة الله قوة غاشمة مثل قوته هو. عنفه فرجيليو وندّد بخطيئته، وأوضح له أن عقابه هو الغضب وما يصدر عنه من الاحتقار فى حدّ ذاته، الذى هو بمثابة حلية تزين صدره بما يناسبه. سار الشاعران فى طريق ضيق بين غابة المنتحرين وسهل الرمال. ورأيا جدولا أحمر الون، هو نهر فليجيتونى. وأخذ فرجيليو يشرح لدانتى مصدر أنهار الجحيم، متأثرا فى ذلك بالميتولوجيا اليونانية، التى تقول إنه كان فى كريت تمثال ضخم مصنوع من الرأس إلى القدم، من الذهب والفضة والنحاس والحديد

والفخار على التوالى، وتخرج منه دموع الآثمين، ثم تنحدر إلى حلقات الجحيم، وبذلك تُكون أنهاره، كما أشار إلى نهر ليتى فى المطهر، حيث تزول خطايا الآثمين، ثم سار الشاعران فى طريق ضيق بين النهر والرمال الملتهبة، حيث لا تسقط شواظ اللهب من السماء.

١ ـ إنى قد كنتُ مدفوعًا بحبى لموطن ميلادى، جمعت الأوراق المتناثرة، وأعدتها إلى من أصبح الآن خائر القوى.

٤ ـ وعندئذ جئنا إلى الحد الذى تنفصل عنده الدائرة الثانية عن الثالثة، حيث يبدو للعدالة فن رهيب.

٧ ـ ولكى أُحسن وصف الأشياء الجديدة، أقول إننا وصلنا إلى سهل تطرد أرضه كل نبات.

١٠ ـ الغابة الأليمة من حوله إكليل، كالخندق المشؤوم من حولها، وهنا أوقفنا خُطانا على حافة السهل.

١٣ - كان الفضاء رملاً قاحلا كثيفًا، لا تختلف طبيعته عن ذاك الذى سبق أن وطئه كاتون بقدميه

١٦ ـ أيها الانتقام الإلهى، كما ينبغى أن يرهبك كل من يقرأ ما كان قد أضحى مرئيا لعينى.

١٩ ـ رأيتُ قطعانا كثيرة من نفوس عارية، تبكى جميعًا فى بؤس شديد، وقد بدت خاضعة لقوانين مغايرة

٢٢ ـ اطّرح بعض فوق الأرض مستلقيًا على ظهره، وجلس بعض متلاصقين تماما، وآخرون ساروا على الدوام.

٢٥ ـ وهؤلاء الذين ساروا دائرين كانوا أكثر عددًا، وأولئك الذين استلقوا للعذاب كانوا أقل، ولكن الألم زاد ألسنتهم انطلاقا

٢٨ ـ وفوق كل الرمل الضخم أمطرت، فى تساقط بطىء، نُدف كبيرة من النار، كما يسقط الثلج على المرتفعات دون رياح.

٣١ ـ وكما رأى الإسكندر فى تلك المناطق الدافئة من الهند، ألسنة اللهب تسقط وهى متماسكة على جيشه حتى الأرض.

٣٤ ـ ولذا عسى أن تدوس فيالقه الأرض، لأن البخار، كأن أيسر انطفاء إذا أصبح معزولاً

٣٧ ـ هكذا سقط الوهج الأبدى الذى أشعل الرمل، كما يقع الحجر تحت الزناد، لمضاعفة الألم.

٤٠ ـ كان رقص الأيدى البائسة دون انقطاع أبدا، وهى تبعد الاحتراق المتجدد عن نفسها هنا وهناك.

٤٣ ـ بدأت: «أستاذى! يا من تغلب كل شىء، سوى الشياطين العنيدة، التى خرجت فى مواجهتها عند مدخل الباب!.

٤٦ ـ من ذلك العظيم، الذى يبدو غير عابئ بالحريق، وينطرح ثانى العطف بازدراء، حتى بدا كأن هطل النار لا ينضجه!»

٤٩ ـ وذاك نفسه الذى أدرك أنى سائل عنه دليلى، صاح قائلا: «هكذا كنت حيا، وهكذا فى الممات.

٥٢ ـ ولو أن جوبتر يتعب حداده، الذى أخذ منه وهو غاضب، الصاعقة القاتلة، التى ضربت بها فى اليوم الأخير

٥٥ ـ أو إذا كان يُتعب الآخرين واحداً تلو واحد، فى جبل النار، بالمصهر الأسود مناديا «النجدة النجدة، يا فولكانو الطيب!»

٥٨ ـ كما فعل فى موقعة فليجرا، وإذا كان يصوب السهام إلىّ بكل ما له من قوة، فلن يستطيع أن ينال منى انتقاما سعيدا».

٦١ ـ عندئذ قال دليلى بحدة شديدة، لم أسمعها بمثل هذا العنف:
«ياكابانيو! لما بك من صلف لا تنطفئ

٦٤ ـ جذوته: يزداد عقابك ويشتد، وما من عذاب سوى غضبك ذاته،
يمكن أن يكون ألمًا جديرا بحنقك».

٦٧ – ثم استدار نحوى بفم أعذب قائلا: «كان هذا أحد الملوك السبعة
الذين حاصروا طيبة، وكان، ويبدو أنه لايزال

٧٠ ـ يزدرى اللّه، ويظهر أنه لا يأبه له كثيرا، ولكن ازدراءه ـ كما قلت
له ـ حاية تزين صدره حقا بما يناسبه.

٧٣ ـ والآن سر من ورائى، بعد أن تضع قدميك فوق الرمل الملتهب،
ولكن أبقهما دائما ملتصقتين بالغابة».

٧٦ ـ وفى صمت وصلنا هناك، حيث ينبع من الغابة، جدولٌ صغيرٌ،
لاتزال حمرته تُرعدنى.

٧٩ – وكما يخرج من بوليكا مى جدول، تقتسمه الخاطئات بعد فيما
بينهن كذلك هبط هذا الجدول وسط الرمال.

٨٢– وكان قاعه وكلا شاطئيه، والحاشيتان على جانبيه، قد تحولت
إلى حجر، فتبينت أن هنا مكان العبور

٨٥ ـ قال: «بين كلّ ما أريتك إياه منذ دخلنا ذلك الباب، الذى لا يمتنع
مدخله على أحد.

٨٨ ـ لم تستجل عيناك مايلفت النظر، مثل الجدول المائل، الذى تخمد
عليه كل ألسنة اللهب».

٩١ ـ كانت هذه كلمات دليلى، ولذا رجوته أن يزيدنى من الغذاء الذى
أذكى شهيتى إليه

٩٤ ـ عندئذ قال: «فى وسط البحر تستوى بلادٌ خربةٌ تدعى كريت، وقد كان العالم طاهرًا فى ظل ملكها

٩٧ ـ وهناك جبل يدعى إيدا، كان من قبل سعيدًا بالماء وأوراق الشجر، وهو الآن قفرٌ مثل غابر الأثر.

١٠٠ ـ كانت ريا قد اختارته لابنها مهدًا أمينًا، ولكى تُحسن إخفاءه كانت تدوى بالصراخ عند بكائه.

١٠٣ ـ وفى داخل الجبل ينتصب قائما عجوزٌ ضخمٌ، وهو يدير كتفيه لدمياط، وينظر إلى روما كأنها مرآته.

١٠٦ ـ رأسه مصوغٌ من خالص الذهب، والصدر والذراعان من نقى الفضة، ثم هو إلى الركبة من نحاسٍ

١٠٩ ـ ومن هنا إلى أسفل كله من حديد دون خبث، سوى أن يُمنى قدميه من فخار، وهويعتمد عليها أكثر من الأخرى.

١١٢ ـ وكل أجزائه ـ ماعدا الذهب ـ يقسمها شقٌّ تقطر منه دموع، تحفر ـ وهى مجتمعة ـ ذلك الصخر.

١١٥ ـ وينحدر مجراها فى هذا الوادى من صخرة إلى أخرى: وتكون أكيرونتى، واستيكس، وفليجيونتى، ثم تهبط تلك القناة الضيقة

١١٨ ـ إلى حيث لا هبوط بعد: وتصنع كوتشيتوس وسوف ترى أى مستنقع هو، ولذا لن أتكلم عنه هنا».

١٢١ ـ قلت له: «إذا كان هذا الجدول ينبع من دنيانا على هذا النحو، فلم يبدو لنا على هذا الجانب وحده؟»

١٢٤ ـ قال لى: «أنت تعلم أن هذا المكان مستدير، ومع أنك سرت طويلا إلى اليسار فحسب، هابطًا إلى القاع،

١٢٧ ـ فإنك لم تقطع بعد كل الدائرة: ولذا إذا شهر لنا شئٌ جديدٌ، فينبغى ألا يجلب على وجهك أمارات العجب».

١٣٠ ـ قلتُ ثانيًا: «أستاذى، أين يوجد فليجيتونتى وليتى؟ فإنك تسكت عن أحدهما، والآخر تقول إن هذا المطر يصنعه».

١٣٣ ـ أجاب: «فى الحق أنك تروقنى فى كلّ ما تسأل، ولكن غليان الماء الأحمر كان ينبغى أن يحلّ جيدًا واحدًا مما تسأل.

١٣٦ ـ أما ليتى فسوف تراه، ولكن خارج هذه الهاوية، هناك حيث تذهب النفوس لكى تغتسل، عندما تُمحى الخطيئة بالندم».

١٣٩ – ثم قال: «الآن حان وقت رحيلنا عن الغابة، فاحرص على أن تسير من ورائى: إن الضفتين اللتين لا تشتعلان تُفسحان من ورائى

١٤٢ ـ طريقًا، وعليهما تخمد كل نار».

***

الأنشودة

15

سار الشاعران فوق ضفة نهر فليجيتونتى، التى كان يحميها البخار المتصاعد من شواظ اللهب الهاطلة من السماء، وعندما ابتعدا عن غابة المنتحرين، رأى دانتى حشداً من المعذّبين أخذوا يحدّقون النظر فيهما وعرف دانتى أحدهم، ولم يمنع تشويه وجهه من أثر النيران أن يناديه باسمه، السيد برونيتو لاتينى، وجرى بينهما موقف ود وصداقة متبادلة، وعبّر لاتينى عن رغبته فى السير والتحدث إلى دانتى بعض الوقت، فرحب دانتى بذلك، كما أبدى استعداده للبقاء معه فى الجحيم، إذا راق ذلك لفرجيليو قال برونيتو إنه لابد له أن يتحدث وهو يسير حتى لا يشتد عذابه بالنار، وظلّ دانتى سائرًا منحنى الرأس، لأنه كان فوق الضفة المرتفعة، وحتى يصبح أقرب إلى برونتيو، وتحدثا عن الماضى والمستقبل، وتنبأ لاتينى لدانتى بالمجد العظيم، وأخبره أن شعب فلورنسا الخبيث الحقود الناكر للجميل سوف يناصبه العداء لجميل صنعه، لأنه ليس من المناسب أن يثمر حلو التين بين حامض الغبيراء، وسأله أن يكون حريصا على التخلص من مساوئ ذلك الشعب، اعترف دانتى بفضل برونيتو لاتينى عليه، وقال إنه سيحتمل كل تقلبات الحظّ وتصاريف القدر وذكر لدانتى أسماء بعض رفاقه فى العذاب، من القساوسة وأصحاب الشهرة

الملوطين، وتمنى لو أنه بقى مع دانتى وقتا أطول، ولكنه رأى جماعة من المعذبين تثير غبارًا فوق الرمال، فترك دانتى بعد أن أوصاه خيرًا بكتابه، الكنز، الذى يحفظ ذكراه فى الدنيا، وجرى بأقصى سرعة لكى يلحق بجماعته.

١ - الآن تحملنا إحدى الضفتين الصلدتين، ودخان الجدول يسبط فوق ظلا، لكن يحمى الماء والشاطئين من النار.

٤ - وكالفلاميين، بين فيسانت وبروجس، إذ يخشون الفيضان الذى يتدافع نحوهم، فيقيمون سدا يصد عنهم مياه البحر.

٧ - وكأهل بادوا، على طول نهر برينتا فى الدفاع عما لهم من قرى وقلاع، قبل أن تشعر كيارنتانا بالدفء

١٠ - على هذه الصورة أقيم ذانك الشاطئان، خلا أن الصانع - كائنا من كان - لم يشيدهما بمثل تلك الضخامة والارتفاع.

١٣ - وكنا قد ابتعدنا عن الغابة كثيرا، حتى لم أكن لأتبين أين كانت، إذا ما اتجهت إلى الوراء.

١٦ - حينما لقينا حشدًا من النفوس، قدموا على طول الشاطئ، ونظر كل منهم إلينا، كما جرت العادة فى المساء.

١٩ - أن ينظر الناس بعضهم بعضًا تحت القمر الجديد، وحدقوا نحونا بأبصارهم هكذا، كما يحدّق حائك عجوز فى سم الخياط.

٢٢ - وحينما وقع على نظر تلك الأسرة، تعرف على واحد منها، وأمسكنى من طرف الرداء، وصاح: «أى عجب!».

٢٥ - ولما مدّ ذراعه إلىّ، حدقت بعينى فى وجهه الذى أنضجته النار، حتى لم تمنع سحنته المحترقة.

٢٨ ـ ذاكرتى أن تعرفه، وبينما كنت أحنى يدى إلى وجهه أجبته: «أأنت هنا أيها السيد برونيتو؟».

٣١ ـ قال لى «أى بنى عسى ألا يسوءك أن يعود برونيتو معك إلى الوراء قليلا، ويترك الحشد يسير.

٣٤ ـ قلت له: «أرجو هذا من كل قلبى، وإن أردت أبقى معك، فسأفعل ذلك، إذا راق لمن أذهب معه».

٣٧ ـ قال: «يابنى، إن كل من يتوقف من هذا الحشد لحظة، يستلقى بعدئذ مائة عام، دون أن يروح عن نفسه عندما تصليه النار،

٤٠ـ ولذلك سر قدما: وسأتبع طرف ثوبك، وسألحق بعد ذلك برفقتى التى تسير باكية عذابها الأبدى»

٤٣ ـ لم أجرؤ على الهبوط من الطريق حتى أسير فى مستواه، ولكنى بقيتُ منحنى الرأسى كرجل يتقدم فى خشوع.

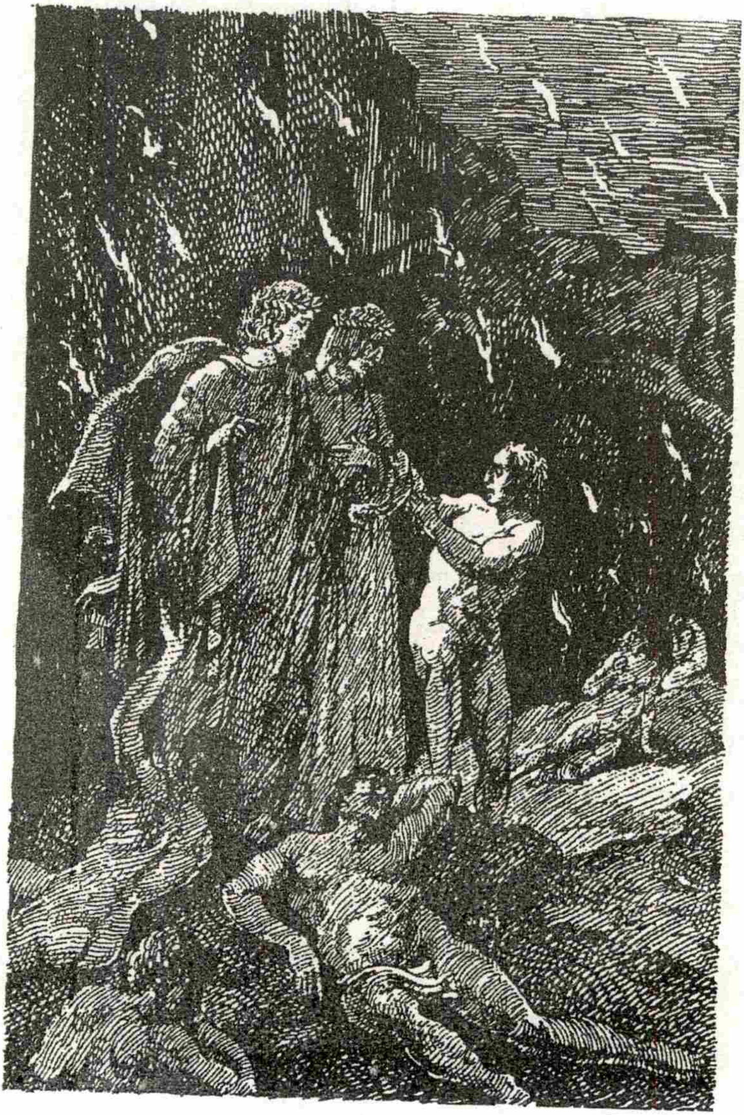
٤٦ ـ وبدأ قائلا: «أى حظ أو قدر يسوقك هنا فيأسفل، قبل اليوم الأخير، ومن هذا الذى يدلك على الطريق؟»

٤٩ ـ وأجبته: «هناك فى الحياة الهادئة فوقنا فى العالم الأعلى، ضللت فى واد قبل أن تكتمل منى السن.

٥٢ ـ ووليته ظهرى صباح أمس فحسب، وظهر لى هذا الدليل، حينما كنت أتراجع فيه، وهو يقودنى فى هذا الطريق إلى المستقر».

٥٥ – قال لى: «إذا أنت اتبعت نجمك، فلن يفوتك بلوغ المرفأ المجسد، إن صح ما تنبأت به فى الحياة الجميلة،

٥٨ ـ ولو لم أكن مت قبل الأوان، ورأيت السماء رفيقة بك هكذا، لكنتُ منحتك العونَ فى عملك.



8 ـ برونيتو لاتيني وشواظ اللهب

٦١ - ولكن ذلك الشعب الخبيث الناكر للجميل، الذى هبط قديمًا من فييزولى، ولم يزل محتفظًا بطبيعة الصخر والجبل.

٦٤ - سيصير عدوًا لك بجميل صنعك، ولهذا سببٌ، إذ ليس من المناسب أن يثمر حلو التين بين حامض الغبيراء.

٦٧ - سمعة قديمة فى الأرض تصمهم بالعمى، وهم شعب بخيل حسود متغطرس: فاحرص على أن تبرئ نفسك من عاداتهم.

٧٠ - ويحفظ لك حظك رفيع الشرف، حتى يساور النهم عليك هذا الحزب وذاك، ولكن العشب لن يكون فى متناول العنز.

٧٣ - فليجعل وحوش فييزولى من أنفسهم حصيدًا يابسًا، ولكنهم لن يمسوا النبات بأذى، إذا كان بعضه لايزال ينبت فى خبثهم.

٧٦ - الذى تنبعث فيه البذرة المقدسة لأولئك الرومان الذين ظلوا هناك، حينما بنى وكر لهذا الحقد الشديد».

٧٩ - أجبته: «لو كانت رغبتى تحققت تماما، لما كنت أبعدت عن طبيعة البشر بعد،

٨٢ - إذ بقيت راسخة فى ذهنى، وهو ما يحزننى الآن، صورتك الأبوية العزيزة الطيبة، عندما كنت تعلمنى فى الدنيا من ساعة.

٨٥ - لأخرى، كيف يخلد المرء نفسه: وطالما أحياء ينبغى أن يفصح لسانى: من ذا اعترف لك بالجميل.

٨٨ - وذلك الذى تقصه عن مصيرى، أنا أسجله وأحتفظ به، لكى تفسره لى، مع غيره من قول، سيدة سوف تعرفه إذا وصلت اليها.

٩١ - وأريد حقا أن يكون هذا واضحًا لك، ولكيلا يؤنبنى ضميرى، فإنى على أهبة للقاء الحظ كما يريد بى.

٩٤ ـ وليس جديدًا على أذنى مثل هذه النبوءة: ولذلك فليدر الحظ عجلته كما يروق له، وليعمل الريفى فأسه.

٩٧ ـ عندئذ استدار أستاذى إلى الوراء صوب اليمين، ونظر إلىّ، ثم قال «من يُحسن إنصاتًا يحسن فهمًا».

١٠٠ ـ وأنا، وعلى رغم ذلك، أواصل السير متحدثًا مع السيد برنيتو، وأسأل من هم أشهر رفاقه وأعلاهم قدرا.

١٠٣ ـ قال لى: «من الخير أن تعرف منهم بعضا، أما الآخرون فالسكوت عنهم أفضل، لأن الوقت سيقصر عن هذا الكلام الكثير.

١٠٦ ـ واعلم فى كلمة، أن جميعهم كانوا قساوسة، وأدباء عظامًا، وذوى شهرة واسعة، ووصمتهم فى الدنيا خطيئة واحدة.

١٠٩ ـ بريشان يذهب مع ذلك الحشد البائس، وكذلك فرنتشسكو داكورسو، وإذا رغبت أن ترى مثل هذا القذر، فإنك مستطيع أن

١١٢ ـ ترى من نقله خادم سدنة الله، من الأرنو إلى باكيليونى، حيث ترك أعصابه المرهقة.

١١٥ ـ كم أود أن أزيد من القول، بيد أنى لا أستطيع أن أطيل السير والحديث، فإنى أرى هناك دخانا جديدًا ينبعث من الرمال.

١١٨ ـ ويأتى قوم ينبغى ألا أكون معهم: فأوصيك بكتابى الكنز، الذى أحيا فيه بعد، ولست أسأل مزيدا».

١٢١ ـ ثم قفل راجعًا، وبدا أنه من أولئك الذين يتسابقون على العلم الأخضر فى ريف فيرونا، وظهر من بينهم أنه من يظفر.

١٢٤ ـ وليس ذلك الذى يخسر.

***

الأنشودة

16

سمع الشاعران فى سيرهما دوىّ المياه الساقطة إلى الحلقة الثامنة، ورأيا أشباح معذبين ثلاثة، انفصل أصحابها عن جماعتهم، ودعوا دانتى إلى الوقوف قليلا، عندما تبينوا أنه مواطن فلورنسى مثلهم، طلب فرجيليو إلى دانتى التريث لأن هؤلاء جديرون بحسن المعاملة. قدم الثلاثة على دانتى وجعلوا من أنفسهم حلقة تدور على الدوام، وتحدثوا فى دورانهم، وكان هذا هو عقابهم كانوا جويدو جويرا وتيجايو ألدوبراندى وجاكوبو روستيكوتشى، وهم فرسان فلورنسيون شجعان اشتهروا بالبطولة والوطنية وكانت خطيئتهم اللواط، مثل برونيتو لاتينى، فى القصيدة السابقة، قال دانتى إنه مواطن من مدينتهم، وإنه أنصت لأخبارهم دائما وردّد أسماءهم وأعمالهم المجيدة بكل إعزاز. سأله روستيكو تشى ألاتزال فلورنسا موئلا للشجاعة والكياسة كالعادة؟ وأجابه دانتى بأن محدّثى النعمة والأرباح العاجلة قد أشاعت الغطرسة والإفراط فى فلورنسا. سأل الثلاثة دانتى أن يذكرهم فى الدنيا عند عودته إليها، ثم هرولوا إلى جماعتهم، وفى الهرب بدت سيقانهم السريعة كأنها أجنحة. تابع الشاعران المسير واقتربا من مسقط مياه كان له دوىّ شديد، مثل دوى نهر أكواكويتا، وكان ذلك الدوىّ قمينًا بأن يصيب أسماعهما بالصم. خلع دانتى حبلا كان ملتفًا به حول وسطه، وناوله

لفرجيليو، الذى ألقى به فى الهاوية وتوقع دانتى أنه سيرى شيئًا غير مألوف، وأقسم دانتى بأبيات الكوميديا أنه رأى كائنًا عربيًا يصعد سابحًا فى الهواء المظلم الكثيف، ويقترب منهما، مثل ملاح يأتى إلى الشاطئ، ويخلص رواسى سفينة تشبثت بحجر تحت الماء، وهو يمدّ ذراعيه إلى أعلى ويضم قدميه

١ ـ لقد كنت فى مكان يُسمع عنده، هدير المياه التى اساقطت فى الدائرة الأخرى، مثل الدوى الذى يصنعه النحل.

٤ ـ حينما غادرت أشباح ثلاثة معا، وهى تجرى، كانت تسير تحت وابل من العذاب الشديد.

٧ ـ أقبلوا نحونا، وصاح كل منهم: «قف! يا من تبدو لنا من زيك، واحدًا من مدينتنا المنحرفة».

١٠ ـ واأسفاه، كم رأيت على أعضائهم من ندوب، حديثة وقديمة، نقشتها ألسنة اللهب! ولا أزال أتألم منها لمجرد ذكراها.

١٣ - تنبه إلى صياحهم أستاذى، فلفت وجهه إلىّ، وقال: «انتظر: ينبغى أن يكون المرء رفيقًا بهؤلاء.

١٦ ـ ولولا النار التى تقذف بها طبيعة هذا المكان، لقلتُ لك إن إسراعك إليهم خير من إسراعهم إليك».

١٩ ـ ولما وقفنا استأنفوا عويلهم القديم، فلما وصلوا إلينا جعل ثلاثتهم جميعًا من أنفسهم حلقة واحدة.

٢٢ - كما اعتاد أن يفعل أبطال الرياضة العراة المطليّون بالزيت، وهم يتحينون مسكاتهم وفرص ظفرهم، قبل أن يلتحموا ويتضاربوا فيما بينهم،

٢٥ ـ وفى دورانهم هكذا صوب كل منهم وجهه نحوى حتى أخذت رقابهم تتحرك على الدوام، فى اتجاه يخالف حركة الأقدام.

٢٨ ـ بدأ أحدهم: «إذا كان بؤس هذا المكان الرخو، ووجهنا المشوه المسود، مما يجلب الزراية علينا وعلى صلواتنا،

٣١ - فلعل شهرتنا تحمل عقلك على أن يخبرنا من أنت، يا من يحرك قدميك دبيب الحياة خلال الجحيم بمثل هذا الاطمئنان.

٣٤ ـ إن هذا الذى ترانى أمشى على آثار قدميه، وإن سار الآن عاريا مشوها، كان رفيع المقام إلى حد لا يدور بخلدك:

٣٧ ـ كان حفيد جوالد رادا الطيبة، ودعى باسم جويدو جويرا، وفى حياته صنع أعمالا كثيرة، بالرأى والسيف.

٤٠ ـ والاخر الذى يطأ الرمل من ورائى، هو تيجيايو ألدوجراندى، الذى لابد أن تكون ذكراه حميدة، فوقنا فى الدنيا.

٤٣ ـ وأنا الذى وضعت فى العذاب معهما، كنت جاكويو روستيكوتشى، وفى الحق أن الزوجة المتوحشة تؤذينى أكثر من غيرها».

٤٦ ـ ولو كنتُ فى وقاية من النار لألقيت بنفسى بينهم إلى أسفل، وأعتقد أن أستاذى كان سيأذن لى بذلك.

٤٩ - ولكن لما كنتُ سأحترق وينضج جلدى، فقد غلب الخوف على رغبتى الصادقة، التى جعلتنى مشوقا إلى عناقهم.

٥٢ ـ ثم بدأت: «لم تغرس حالتكم زراية فى نفسى، ولكن ألما يمكث طويلاً قبل أن ينضو عنى كله.

٥٥ ـ ولما قال لى سيدى هذا كلمات، جعلتنى أفكر أن قومًا فى مثل حالكم ربما يقدمون.

٥٨ ـ أنا من مدينتكم وقد رددت وأصغيت بإعزاز دائما وأبدا، إلى أعمالكم وأسمائكم المجيدة

٦١ ـ وإنى أترك مر العفص وأرتاد حلو الثمار التى وعدنى بها دليلى الصدوق، ولكن على أن أهبط أولا إلى القرار».

٦٤ ـ أجاب بعد ذلك المعذب: «ألا فلتحى النفس أعضاءك طويلا، ولتسطع شهرتك من بعدك،

٦٧ ـ ولكن أخبرنى، ألاتزال الشجاعة والكياسة كامنة فى مدينتنا كالعادة هكذا أم نزح ذلك عنها تمامًا.

٧٠ ـ فإن جوليلمو بورسييرى الذى يتألم معنا منذ قريب، ويسير هنا مع رفاقه، يعذبنا بكلماته كثيرا».

٧٣ - «إن محدثى النعمة والأرباح المفاجئة، ولدت فيك يافيورنترا الغطرسة والإفراط، حتى لتبكين اليوم من ذلك»».

٧٦ ـ هكذا صحت ووجهى متطلع، والثلاثة الذين أدركوا أن فى ذلك جوابا، نظر بعضهم بعضا كما يواجه الناس الحقيقة.

٧٩ ـ أجابوا جميعا: إذا كانت مرضاة الآخرين كلفتك هكذا قليلا فى المرّات السابقة، فإنك لسعيد إذا كنت تتكلم كما يروق لك!»

٨٢ ـ ولهذا إذا أنت خرجتَ من هذا الأماكن المظلمة، ورجعت إلى رؤية النجوم الجميلة، وعندما يحلو لك قول إنى كنت.

٨٥ ـ فاعمل على أن تحدث منا لدى الناس ذكرًا» وعندئذ فضوا حلقتهم، وفى الهرب غدت أجنحة سيقانهم السريعة.

٨٨ ـ ولم يكن مستطاعًا قول آمين، بمثل هذه السرعة، بينما كانوا يختفون، وحينئذ بدا لأستاذى أن نرحل.



٩١ – وتبعته، وما إن سرنا قليلا حتى اقترب إلينا خرير المياه، حتى لم يكد يسمع لنا صوت.

٩٤– وكذلك النهر الذى يجرى فى أول مجرى مستقل من جبل فيزو صوب الشرق على الجانب الأيسر من الأبنين.

٩٧ ـ والذى يسمى فى أعلى أكواكويتا، قبل أن يهبط إلى المجرى الأدنى، ثم يفقد هذا الاسم عند فورلى.

١٠٠ ـ ويدوى هناك فوق سان بندتو فى جبال الألب، وهو يسقط فى منحدر، حيث ينبغى أن يكون معتصمًا لألف شخص.

١٠٣ ـ هكذا فى أسفل شاطئ منحدر وجدنا تلك المياه القاتمة، تدوى دويا، كان ممكنًا أن يصم آذاننا فى وقت قليل.

١٠٦ ـ وكان معى حبل التف من حولى، وقد فكرت مرة أن أمسك به الفهدة ذات الجلد الأرقط

١٠٩ – وبعد أن فككته كله من حولى، كما أمرنى بذلك دليلى، قدمته إليه ملفوفًا ومطويًا.

١١٢ ـ وحينئذ استدار إلى الجانب الأيمن، وعلى مسافة قليلة من الحافة، ألقى به إلى أسفل، فى تلك الهاوية السحيقة.

١١٥ ـ قلت فى نفسى: «لابد أن يستجيب شىء غير مألوف لهذه الإشارة الجديدة، التى يتابعها أستاذى هكذا بعينه».

١١٨ ـ أوّاه، كم ينبغى أن يأخذ الناس الحذر، بقرب من لا يرون الأعمال وحدها، ولكن ينفذون بذكائهم إلى الأفكار!

١٢١ ـ قال لى: «سيأتى إلى أعلى توا، ما أنا أنتظره وما يحلم به فكرك: وهو ما ينبغى أن ينكشف لعينيك سريعا».



١٢٤ ـ يجب على الإنسان دائما أمام ذلك؛ الصدق الذى له مظهر الكذب، أن يُغلق شفتيه لأقصى ما يستطيع، ولعلها هنا صمتا، وأقسم لك أيها القارئ بأبيات هذه الكوميديا، ولعلها لا تعوزها الحظوة الطويلة الأمد.

١٣٠ ـ إنى رأيت فى ذلك الهواء المظلم الكثيف، كائنا يأتى إلى أعلى سابحًا، يثير الرعب فى كل قلب رابط الجأش.

١٣٢ ـ وكان كما يعود ذلك الذى يهبط أحيانا، لكى يخلّص رواسى سفينة تشبثت بحجر، أو بشىء غيره فى البحر مختبئ.

١٣٦ ـ وهو يمدّ ذراعيه إلى أعلى ويضم قدميه.

***

الأنشودة

17

أشار فرجيليو إلى الوحش جيريونى أن يأتى إلى الشاطئ، وقد كان له وجه الرجل العادل، وكانت زاحفة بقية أجزائه، وتسلح ذنبه بشوكة سامة مثل زنابى العقرب، وهو رمز الخيانة وحارس الحلقة الثامنة اقترب جيريونى من الشاعرين واستقرّ عند حافة الشاطئ دعا فرجيليو دانتى إلى أن يذهب بمفرده إلى مسافة قريبة ليحادث بعض الآثمين، على حين يتفاهم هو مع جيريونى وصل دانتى إلى جماعة المرابين الذين ارتكبوا العنف ضد الطبيعة والفن، وقد انفجر الأسى، من عيونهم وبكوا بمرارة، وأبعدوا النيران عن أنفسهم كما تفعل الكلاب عندما تدفع عن نفسها الحشرات وحمل كل منهم كيس نقوده وعليه علامته المميزة، وبعضهم من فلورنسا أو من بادوا تحدث بعضهم إلى دانتى، ولكنه لم يتلكم هو، ولم يذكر اسم واحد منهم، ثم عاد إلى فرجيليو اعتلى الشاعران ظهر جيريونى وتولى دانتى الخوف فأحس بما يشبه قشعريرة حمّى الربع ولكن فرجيليو شجعه وأحاطه بذراعيه، وحفظه من الخطر. وتحرك الوحش فى مثل حركة السفينة التى تبتعد عن الشاطئ، وهبط وهو يسبح فى الهواء بطيئا وفى دوائر واسعة عاد شعور الخوف إلى دانتى وأحس بحركة الهواء عندما لفح وجهه وهبَّ عليه من أسفل وسمع دانتى دوّى مياه

ساقطة وصوت النيران وبكاء المعذبين، فزاد خوفه، وأخيرًا وصل بهما جيريونى إلى القاع عند أسفل صخرة وعرة، وكان هبوطه فى مثل هبوط الصقر الذى أجهده الطيران دون أن يكسب صيدا وعندما تخلص جيريونى من ثقله انطلق فى الفضاء انطلاق السهم من القوس.

١ - «انظر الوحش ذا الذنب المدبب، الذى يجتاز الجبال ويحطم الأسوار والأسلحة، هو ذا من يلوث الدنيا بأسرها!».

٤ ـ هكذا بدأ دليل يحدثنى، وأشار إليه أن يأتى إلى الشاطئ، قريبًا من حافة الصخور المرمرية التى مشينا عليها

٧ ـ هذه الصورة الكريهة للخيانة، أتت فمدت الرأس والصدر، ولكن لم تسحب ذنبًا على الشاطئ

١٠ ـ كان وجهه وجه رجل عادل، وكان مظهره وديعًا من الخارج، وسائر جسمه من الزواحف.

١٣ ـ وكان له مخلبان يكسوهما الشعر إلى الإبطين، والظهر والصدر وكلا الجانبين كلها تُزركشها العقد والحلق.

١٦ ـ ما صنع الترك والتتر قط ثيابا فاقتها فى ألوان السدى واللحمة، ولا أخرجت أراكنا مثل ذاك النسيج.

١٩ ـ وكما تقف صغار السفن أحيانا على الشاطئ، جانب فى الماء وعلى الأرض جانب، وكما يتأهب السمور للقتال.

٢٢ ـ هناك فى أرض الألمان أولى النهم، كذلك وقف شر الوحوش على الحافة، التى تلبس الرمل نطاقا من الصخر.

٢٥ ـ مد كل ذنبه فى الفضاء، وحمته السامة مرفوعة إلى أعلى، تسلح طرفه مثل زنابى العقرب.

٢٨ ـ قال الدليل: «الآن ينبغى أن ينحرف طريقنا قليلا، إلى ذلك الوحش الخبيث الذى يجثم هناك».

٣١ ـ ولذلك هبطنا إلى اليمين، ومشينا عشر خطوات فوق الحافة، لكى نتجنب تماما الرمل واللهب.

٣٤ ـ وحينما وصلنا إليه رأيت، إلى الأمام قليلا فوق الرمال، قوما جلوسًا بالقرب من المكان الخالى

٣٧ ـ وهنا قال لى أستاذى: «لكى تحيط خبرا بهذه الدائرة، فلتذهب ولتتفقد حالهم.

٤٠ ـ وليكن حديثك معهم هناك قصيرا: وإلى أن تعود سأتكلم مع هذا الوحش، حتى يعيرنا كتفيه القويتين».

٤٣ ـ وهكذا ذهبتُ بعدُ وحيدًا، على شفا هذه الحلقة السابعة، حيث يجلس القوم المعذّبون.

٤٦ ـ من عيونهم تفجر العذاب، ينحون بأيديهم إلى هذا الجانب وذاك، تارة حميم البخار، وطورًا محترق الأديم.

٤٩ ـ ولا تفعل الكلاب غير ذلك فى الصيف، بالأنوف أو الأقدام، عندما تلسعها البراغيث أو ذباب البيوت، ولكنى تبينت

٥٥ ـ أن كلا منهم تدلى من رقبته كيس، ذو لون خاص وشعار معين وقد بدت عيونهم مستقرة عليه.

٥٨ ـ وبينما كنت أمر بينهم وأجيل النظر، رأيت فوق كيس أصفر علامة زرقاء، كان لها وجه الأسد وزيه.

٦١ ـ ثم رأيت، وأنا أتابع مجرى بصرى، علامة أخرى حمراء كالدم، تبدى أوزة أنصع بياضا من الزبد.

٦٤ ـ قال لى أحدهم وكان لكيسه الصغير الأبيض، شعار خنزيرة زرقاء سمينة: «ماذا تفعل فى هذه الهاوية؟

٦٧ ـ اذهب الآن، وإذ كنت لا تزال حيا فاعلم أن فيتاليانو جارى، سيجلس هنا إلى جانبى الأيسر.

٧٠ ـ أنا بين هؤلاء الفلورنسيين مواطنٌ بادوى: إنهم يصمون أذنى مرات كثيرة، وهم يصيحون: ألا فليأت أمير الفرسان

٧٣ ـ الذى سيحمل الكيس، ذا العنزات الثلاث!» وهنا لوى فمه وأخرج لسانه، كثور يلحس أنفه.

٧٦ ـ وأنا، الذى كنت أخشى أن أغضب ببقائى طويلا، من أوصانى بالبقاء قليلا، رجعت القهقرى عن النفوس البائسة.

٧٩ ـ ووجدت دليلى الذى كان قد صعد فوق ردْف الوحش المخيف، وقال لى: «الآن كن قويا شجاعا

٨٢ ـ علينا أن نهبط الآن بمثل هذا السلم: اصعد إلى الأمام فإنى أريد أن أكون فى الوسط، حتى لا يقوى الذنب على أذاك».

٨٥ ـ وكذلك الذى تدنو منه رعشة حمى الربع هكذا فتبيض أظفاره وترتعد فرائصه، عند رؤية الظل فحسب.

٨٨ ـ هكذا أصبحت أمام هذه الكلمات، ولكن تهدّدنى الخجل، الذى يجعل التابع شجاعًا أمام سيده الطيب.

٩١ – فوضعت نفسى فوق هاتين الكتفين الرهيبتين: وأردت أن أقول هكذا: «احرص على أن تحضننى» ولكن الصوت لم يجئ كما اعتقدت.

٩٤ ـ ولكنه قد حماني مرات سابقة من أخطار أخرى، حاطني بذراعيه، وأسندني حينما صعدتُ.

٩٧ ـ وقال: «تحرك الآن ياجيريوني: وليكن هبوطك بطيئا وفي دوائر واسعة، وفكر في حملك هذا الجديد».

١٠٠ ـ وكما تخرج سفينة من الشاطئ وهي تتراجع إلى الوراء، كذلك ابتعد الوحش، فلما أحس أنه طليق تماما،

١٠٣ – أدار الذنب هناك حيث كان الصدر، ولما مده حركه كثعبان الماء، وبمخالبه جمع إليه الهواء.

١٠٦ ـ وأعتقد أنه ـ عندما ترك فيتوني أعنة الجياد، فاشتعلت السماء كما لاتزال تبدو، وعندما أحسّ

١٠٩ ـ إيكاروس البائس، أن جناحيه يفقدان الريش من حرارة الشمع، بينما كان أبوه يصيح به: «إنك تسلك سبيل الهلاك!»

١١٢ ـ لم يكن هناك خوف أشد من خوفي، عندما رأيت الهواء محيطًا بي من كل جانب، وامتنعت على كل رؤية سوى الوحش.

١١٥ ـ إنه يمضي سابحًا بطيئًا بطيئًا: يدور ويهبط ولكني لا أشعر إلا بريح تلفح وجهي من أسفل.

١١٨ ـ وكنت قد سمعت جهة اليمين مسقط ماء، يحدث تحتنا دويا مزعجا، ولذلك حنيت رأسي بعينين خفيضتين.

١٢١ ـ وصرت عندئذ من النزول أشدّ خوفا، إذ رأيت نيرانًا وسمعتُ نواحا، فربضت في مكاني وقد تملكني الرعب.

١٢٤ ـ ثم رأيت ما لم أره من قبل: شهدت الهبوط والدوران في العذاب الهائل، الذي اقترب من كل الجوانب.



١٢٧ ـ وكالبازى الذى استوى على أجنحته طويلا، ودون أن يرى طيرًا
أو دمية طير، يجعل ابيزار يقول «أواه: ها أنت ذا تهوى»!

١٣٠ ـ ويهبط تعبًا ثم يتحرك مسرعًا فى مائة دورة، ويحط بعيدًا عن
سيده تحدوه الكآبة وتأخذه الخيبة،

١٣٣ ـ هكذا هبط بنا جيريونى إلى القاع، عند أسفل القدم من
الصخرة الوعرة، وحينما تخلص من شخصينا

١٣٦ ـ انطلق انطلاق السهم من الوتر

***

الأنشودة

18

عندما هبط الشاعران عن ظهر جيريونى وجدا نفسيهما فى «الماليبولجى» (وديان الشر أو حنادقه) فى الحلقة الثامنة، وكانت مقسمة إلى وديان أو خنادق تشبه خنادق القلاع فى العصور الوسطى، وخرجت صخور وصلت بين شاطئ هذه الحلقة وسائر الوديان حتى بلغت البئر فى وسط هذا المحيط الخبيث وكان المكان مقرًا لمرتكبى الخيانة واحتوى كل واد أو خندق على طائفة من الخونة، لقى به كل منهم العذاب الملائم، رأى دانتى فى الخندق الأول القوّادين الذين أغروا النساء لمصلحة غيرهم وقد ألهب ظهورهم سياط شياطين ذوى قرون. ولقى دانتى واحدًا من المعذبين الذى حاول أن يخفى عن نفسه، ولكنه عرف فيه فينديكو كاتشانيميكو الذى حرض أخته على خيانة زوجها، إرضاء لشهوة مركيز فرارا وصعد الشاعران فوق جسر مقوّس مر تحته المعذّبون، ورأى دانتى من أغروا النساء للذتهم الشخصية، ومنهم جاسون الذى خدع هيبسيبل بمعسول الكلام ثم هجرها حبلى تنوء وحدها بالإثم والعار وسمع الشاعران فى الخندق التالى نواحًا وضربات بالأكف ولم يريا ما فى باطنه لعمقه وإظلامه، فصعدا فوق جسر، واستطاعا بذلك أن يريا تحتهما قوما غطسوا فى غائط من نفايات البشر. وتعرّف دانتى على أليسيوا إنترمينى

المواطن من لوكا، الذى كان يغرى النساء بكلمات لم يتعب منها لسانه وشهدا أيضا تاييس الداعرة تمزق نفسها بالأظفار، ولا تستقر على وضع واحد، وعوقبت لأنها خدعت عاشقها، واكتفى فرجيليو بما شهده دانتى فى هذين الواديين.

١ ـ فى الجحيم مكان يدعى «ماليبولجى» كله من الصخر فى لون الحديد الصدئ، كالحلقة التى تدور من حوله.

٤ ـ وفى سرة هذا الميدان الخبيث، تنفغر بئر كبيرة الاتساع عميقة، سوف أصف ترتيبها فى مكانها.

٧ ـ مستديرة إذًا تلك الحافة الباقية، بين البئر وأسفل الحاجز الصخرى العالى، وقاعها منقسم عشرة أودية.

١٠ ـ وكالصورة التى تبدو عليها الأرض، حيث تحيط بالقلاع خنادق متعاقبة لحماية أسوارها.

١٣ ـ كذلك كانت صورة هذه الأودية، وكما يوجد فى تلك القلاع جسورٌ صغيرةٌ تصل بين مداخلها والحافة الخارجية.

١٦ ـ هكذا تصدر عن أسفل الصخر أحجار تعبر الأودية والشطآن، إلى البئر التى أوقفتها وتلقتها.

١٩ ـ فى هذا المكان وجدنا نفسينا عندما نزلنا عن ظهر جيريونى، وأخذ الشاعر الجانب الأيسر، وسرت من ورائه.

٢٢ ـ وذات اليمين رأيت بؤسًا جديدًا، وعذابًا غير معروف، وجلادين جددًا، آخر بهم الخندق الأول.

٢٥ ـ فى القاع كان الآثمون عرايا: ومن الوسط إلى هنا أقبلوا بوجوههم نحونا، وساروا فى الجانب الآخر معنا، ولكن بخطى أسرع.

٢٨ ـ كأهل روما عند ازدحام الجماهير فى عام اليوبيل، إذ جعلوا فوق الجسر نظاما مهيئًا للعبور.

٣١ ـ فمن جانب كانت جباه الجميع متجهة نحو القلعة، ثم يذهبون إلى القديس بطرى، ومن جانب آخر يسيرون صوب الجبل.

٣٤ ـ وهنا وهناك رأيت فوق الصخر الكئيب شياطين ذوى قرون وسياط كبيرة يضربون بها الآثمين فى قسوة من الخلف.

٣٧ ـ أوّاه! كيف جعلهم الشياطين يرفعون سيقانهم عند أولى الضربات! وحقا لم ينتظر أحدهم الضربات الثانية ولا الثالثة.

٤٠ ـ وبينما كنت أسير، التقت عيناى بواحد منهم، فقلت توا: «ليست هذه أول مرة أرى فيها هذا الوجه».

٤٣ ـ ولذلك أوقفت قدمى كى أتبينه: ووقف معى الدليل الحبيب، وأتاح لى أن أرجع إلى الوراء قليلا.

٤٦ ـ وظن ذلك المعذب أنه يخفى نفسه إذا خفض وجهه، ولكن لم ينفعه ذلك كثيرا، فقلت له: «أنت يا من تلقى إلى الأرض بصرك،

٤٩ ـ إذا لم تكن زائفة ملامح وجهك؛، فأنت فينيديكو كاتشانيميكو: ولكن ما الذى أتى بك إلى مثل هذا الحميم اللاذع».

٥٢ ـ فأجابنى: «عن غير رغبة أقول ذلك، ولكن يرغمنى عليه كلامك الصريح، الذى يجعلنى أذكر العالم القديم.

٥٥ ـ لقد كنتُ من حمل جيزولا بيلا، على أن ترضى رغبة المركيز، مهما يكن من تداول هذه القصة المخزية.

٥٨ ـ ولست البولونى الوحيد الذى أبكى هنا، بل إن هذا المكان ملىء بنا، حتى لا توجد الآن ألسنة كثيرة تتعلم.

٦١ – أن تقول بلساننا «نعم» بين سافينا ورينو، وإذا أردت يقينًا أو دليلا على ذلك، فلتستعد إلى ذاكرتك قلبنا الحريص».

٦٤ ـ وبينما كان يتكلم هكذا، لسعه شيطان بسوطه، وقال: «اذهب أيها القواد، فليس هنا نساء تباع!».

٦٧ ـ رجعت إلى رفيقى، ثم وصلنا بخطوات قليلة إلى هناك، حيث خرج من الشاطئ جسر صخرى.

٧٠ ـ وبخفة بالغة صعدنا فوقه، وفى اتجاهنا إلى اليمين على حافته الوعرة، رحلنا عن تلك الحلقات الأبدية

٧٣ ـ ولما صرنا هناك حيث يتقوس الجسر من أسفل ليتيح المرور لمن ألهبتهم السياط، قال الدليل «قف واعمل على أن يصدم

٧٦ ـ وجهك نظر هؤلاء الملعونين الآخرين، الذين لم تر وجههم بعد، لأنهم ساروا معنا فى اتجاه واحد».

٧٩ ـ ومن الجسر القديم رأينا صف الآثمين الذى أتى نحونا من الجانب الآخر، وقد طاردتهم السياط كذلك.

٨٢ – قال أستاذى الطيب دون سؤالى: «انظر إلى ذلك العظيم الذى يأتى نحونا، ويبدو أنه لا يذرف لألمه دمعة:

٨٥ – أىّ مظهر ملكى لا يزال يحتفظ به! ذلك هو جاسّون الذى حرم الكولكيين بالعقل والقلب، من كبش الذهب.

٨٨ ـ إنه مر بجزيرة ليمنوس بعد أن قتلت النساء الجريئات القاسيات، ذكورهن جميعًا.

٩١ ـ وهناك، بالحركات وزخرف الكلام، خدع هيبسبيل الشابة التى خدعت من قبل كل النساء الأخريات.

٩٤ ـ ثم هجرها هناك، حبلى وحيدة، وتقضى عليه هذه الخطيئة بمثل هذا العذاب، وبذلك نالت ميديا الانتقام.

٩٧ ـ ومعه يذهب كل من ارتكب مثل هذا الغدر: وحسبك أن تعرف هذا عن الوادى الأول، ومن تتمزق أوصالهم فيه».

١٠٠- وكنا قد وصلنا حيث يلتقى الطريق الضيق بالشاطئ الثانى، ويجعل منه كتفًا لجسر جديد.

١٠٣ ـ وهناك سمعنا قومًا ينوحون فى الخندق التالى، وينشجون بالأنوف ويضربون أنفسهم بالأكف.

١٠٦ ـ كانت الجوانب مغطاة بعفن صَعَّده البخار من أسفل، وتجمد عليها، فهو يحارب الأعين والأنوف.

١٠٩ ـ القاع شديد العمق حتى لا يكفى مكانٌ لرؤيته، دون أن نصعد إلى سطح الجسر، حيث يزداد ارتفاع الصخر.

١١٢ ـ فصعدنا هناك، وعندئذ رأيت تحتنا فى الخندق قوما غطسوا فى غائط، بدا أنه نبع من فضلات البشر.

١١٥ ـ وبينما كنت أفحص القاع بعينى، رأيت واحدًا أثقل رأسه القذر هكذا، حتى لم يبدُ أعلمانيًا كان أم قسًا.

١١٨- فصاح بى: «لم أنت جد حريص على أن تنظر إلىّ أكثر من سائر المشبوهين؟» قلت له: «لأنى إذا أحسنت التذكر،

١٢١ ـ كنت قد رأيتك بشعرك المجفف، وإنك أليسيو إنترمينى من أهل لوكا: ولذلك أحدجك بنظرى أكثر من سائر الآخرين».

١٢٤ ـ عندئذ قال لى وهو يضرب رأسه: «أغرقنى فى هذا العمق كلمات الإغراء، التى لم يكلّ منها لسانى أبدًا».

١٢٧ ـ ثم قال لى دليل: «اعمل على أن تمدّ وجهك إلى الأمام قليلا، حتى تبلغ عيناك وجهَ

١٣٠ ـ تلك المرأة النجسة الشعثاء، التى تمزق هناك نفسها بأظفارها القذرة، وتخر تارة، وتقف على قدميها تارة أخرى.

١٣٣ - إنها تاييس الداعرة، التى عندما سألها عاشقها: «ألى عندك آيات شكرٍ؟»، أجابته: «نعم، آيات عجب!».

١٣٦ ـ ألا فلتقنع عيوننا بما رأت هناك».

***

الأنشودة

19

وصل الشاعران إلى الوادى الثالث حيث يعذب أهل السمعانية، الذين حصلوا على الأشياء المقدسة بالمال دون التقوى رأى دانتى فى قاع هذا الوادى فتحات متساوية تشبه فتحات معمدان سان جوفانى فى فلورنسا، التى كان قد حطم إحداها لإنقاذ طفل أوشك على الغرق فيها وظهر من كل فتحة ساقا أحد المعذبين الذين كانوا فى وضع مقلوب جزاء خطيئتهم، واشتعلت النيران فى باطن أقدامهم، كما يحدث للأشياء المطلية بالزيت. استفسر دانتى عن أحد المعذبين، فحمله فرجيليو وهبط به حتى يمكنه الرؤية، وكان هناك البابا نيقولا الثالث الذى اشتهر بحبه للمال. ظن نيقولا أن دانتى هو بونيفاتشو الثامن، وقد جاء إلى الجحيم قبل أوانه، وندّد بجشعه وبما جلبه على الكنيسة من العار لكن دانتى أوضح له الأمر، وعنفه على آثامه، وقال إن القديس بطرس لم ينل من المسيح المفتاحين المقدسين بالمال، وإن عبدة الذهب والفضة أسوأ من الوثنيين، لأن الأوّلين يتخذون آلهة متعددة، بينما الاخرون يتخذون إلهًا واحدًا، وعدَّ دانتى الإمبراطور قسطنطين الأول مسئولا عن هذه المساوئ، وعن إفساده الكنيسة بمنحته الدينوية - المزعومة - للبابا سلفسترو أول البابوات الأثرياء أبدى فرجيليو أمارات الرضا عندما سمع رنين كلمات دانتى

الصادقة وحمله مرة أخرى، وعاد إلى الصعود فى الطريق الذى هبط منه، ووصل به إلى المعبر بين الشاطئ الرابع والشاطئ الخامس، ثم أنزله برفق فى الطريق الصعب، وهناك انكشف لدانتى الوادى التالى.

١ ـ سمعان، أيها الساحر! ويا أيها الأتباع البائسين، أيها اللصوص الذين أفسدتم بالذهب والفضة نعم الله، التى ينبغى

٤ ـ أن تقترب بطيب الأعمال، الآن يجب أن يصدح من أجلكم البوق، مادمتم قد أصبحتم فى الخندق الثالث.

٧ ـ وكنا قد صعدنا فوق القبر التالى، فى ذلك الجانب من الجسر الصخرى، الذى يعلو فوق سرة الخندق.

١٠ ـ أيتها الحكمة العليا، أىّ فن هذا الذى تبدينه فى السماء وفى الأرض وفى عالم الشر وبأية عدالة توزعين أفضالك!

١٣ ـ على الجوانب وفى القاع رأيتُ الحجر القاتم، مليئًا بفجوات، كانت جميعها باتساع واحد، وكانت كلها مستديرة.

١٦ ـ لم تبدُ لى أصغر ولا أكبر من فجوات سان جوفانى، معمدانى الجميل، التى جعلت مكانًا لمن يزاولون المعمودية،

١٩ ـ لقد حطمت إحداهما منذ سنوات غير بعيدة بعد، من أجل طفل كان يغرق فيها، وليكن هذا دليلا يزيل شكوك كل إنسان.

٢٢ ـ ومن فم كل منها برزت قدما آثم وساقاه حتى الكعبين، وكان سائره قد بقى فى الداخل.

٢٥ ـ اشتعلت النار فى باطن قدمى كل منهم، فاهتزت مفاصلهم بعنف شديد، حتى ليمكنها أن تمزق حبالا من جاف العشب أو اللبلاب.

٢٨ ـ وكما تتحرك الشعلة فيما طلاه الزيت، على السطح الخارجى وحده، كذلك امتدت النار من أعقابهم إلى الأطراف.

٣١ ـ قلت: «أستاذى! من ذلك الذى يتلوى، وهو يهتز أكثر من سائر رفاقه، وقد أحرقته نيران أشد احمرارًا».

٣٤ ـ فأجابنى: «إذا أردت أن أحملك هناك أسفل، إلى ذلك الشاطئ الذى يزداد انخفاضا، فستعرف منه شخصه وخطاياه».

٣٧ ـ قلتُ: «إن كل ما يرضيك جميل عندى ومقبول: أنت سيدى وتعرف أنى لا أحيد عن مرادك، وتدرك ما أسكت عنه».

٤٠ ـ حينئذ على الشاطئ الرابع: واستدرنا وهبطنا إلى اليسار هناك أسفل، فى القاع الضيق ذى الفجوات.

٤٣ – لم ينزلنى بعدُ أستاذى الطيب عن جنبه، حتى بلغ بى فجوة ذلك المعذب، الذى بكى بساقيه كثيرا.

٤٦ ـ بدأتُ قائلا: «يا كائنا من كنت، أنت يا من تجعل عاليك سافلك، ويا أيتها النفس البائسة التى غرست كالخازوق، تكلمى إن استطعت».

٤٩ ـ وقفتُ كالراهب الذى يتلقى اعتراف القاتل الغادر، الذى يناديه حينما يزرع فى الأرض، لكى يؤخر عنه المنون.

٥٢ ـ صاح: «أأنت الواقف هناك، أأنت ذا الواقف هناك يابونيفاتشو؟ لقد كذب على كتاب المستقبل منذ سنين كثيرة.

٥٥ ـ أشبعت هكذا سريعا من تلك الثروة، التى لم تخش من أجلها أن تأخذ السيدة الجميلة بالخداع، ثم تجعل منها حطاما؟».

٥٨ ـ أصبحتُ مثل أولئك الذين يقفون كمن سخر منهم، لأنهم لم يفهموا ما تلقوه من جواب، فلا يحيرون جوابًا.

٦١ ـ حينئذ قال فرجيليو: «قل له سريعا: «أنا لست إياه، أنا لست من تظن» وأجبت كما ألقى علىَّ.

٦٤ ـ ولذا هز ذلك المعذب بعنف كلتا قدميه، ثم قال لى بصوت باكٍ، وهو يتنهد: «إذا فماذا تسألنى؟

٦٧ ـ إذا كان يعنيك كثيرا أن تعرف من أنا، حتى سارعت كذلك إلى هذه الضفة، فاعلم أنى ارتديت يوما الثوب الأعظم.

٧٠ ـ وفى الحق كنتُ ابنا للدبة، وكنت شديد الحرص على تقدم صغار الدبية، ففى أعلى اختزنت المال وهنا نفسى.

٧٣ ـ وتحت رأسى أُلقى بالآخرين، الذين سبقونى فى ممارسة السمعانية، وقد قبعوا الآن فى فجوات الصخر.

٧٦ ـ وسأهوى سريعًا هناك فى أسفل، عندما يأتى ذلك الذى ظننت أنك هو لما وجهت إليك سؤالى المفاجئ.

٧٩ ـ ولكن الوقت الذى احترقت فيه قدماى، وكنت خلاله هكذا مقلوبًا أطول مما سيقضيه هو مغروسًا بقدمين مضطرمتين.

٨٢ ـ لأنه سيأتى بعده من الغرب، راع دون قانون، ذو أفعال أشنع، يمكن أن تغطيه وتغطينى.

٨٥ ـ سيصبح جاسون الجديد، الذى يقرأ عنه فى قصة المكابيين، وكما كان ملكه ضعيفا أمامه، هكذا سيصبح من يحكم فرنسا».

٨٨ ـ لا أدرى هل كنت شديد الوطأة عليه، لأنى أجبته بهذا النظم: «أواه! خبرنى الآن: كم من كنوز تطلَّب..



٩١ ـ السيد الإله من القديس بطرس، قبل أن يعهد إليه بالمفتاحين؟ وبالتأكيد لم يطلب إليه سوى: «اتبعنى».

٩٤ ـ لم ينتزع بطرس ولا الآخرون من متى ذهبًا ولا فضة، حينما اختاره القدر للمقام الذى أضاعته النفس الآثمة.

٩٧ ـ ولذا فلتبق هنا، فإنك تلقى العقاب المناسب، واحفظ جيدًا مالا سلبته حراما، فجعلك جريئا على الملك شارل.

١٠٠ ـ ولولا أنه لا يزال يمنعنى احترامى للمفتاحين العظيمين، اللذين احتفظت بهما فى الحياة السعيدة،

١٠٣ ـ لاستخدمتُ بعد كلامًا أشد، لأن جشعك يُحزن الدنيا، باضطهادك الأخيار ورفعك شأن الأشرار.

١٠٦ ـ لقد توقع يوحنا الإنجيلى، راعيًا مثلك، عندما رأى تلك التى تجلس على الماء، تقترف الفحشاء مع الملوك،

١٠٩ ـ تلك التى وُلدت بسبعة رؤوس، واستمدت حيويتها من قرونها العشرة، ما دام زوجها مرتاحًا إلى الفضائل.

١١٢ ـ إنكم قد صنعتم من الذهب والفضة إلهًا، وأى فرقٍ بينكم وبين الوثنى، سوى أنه يعبد إلهًا واحدًا، وأنتم تعبدون مائة؟

١١٥ ـ آه لك يا قسطنطين! كم ذا ولَّد من الشرور، لا اعتناقك المسيحية ولكن ذلك الصداق الذى أخذه منك أول ثرى من البابوات!».

١١٨ ـ وبينما كنت أتغنى بمثل هذه الألحان، اهتزت كلتا قدميه بقوة، إما لوخز الضمير أو عضة الغضب.

١٢١ ـ وأعتقد حقًا أن ذلك قد أرضى دليلى، لأنه أصغى دائما، وعلى فمه بسمة الرضا، إلى رنين كلماتى الصادقة.

١٢٤ ـ ولذلك أخذنى بكلتا ذراعيه: وبعد أن حمل جسمى كله على صدره، عاد إلى الصعود فى الطريق الذى هبط منه.

١٢٧ ـ لم يلق تعبًا إذ حملنى وأنا ملتصق به، حتى وصل بى إلى قمة الجسر، الذى هو معبر بين الشاطئ الرابع والخامس.

١٣٠ ـ وهنا أنزل الحمل برفق، ووضعه برفق على الصخر المنحدر الوعر، وهو حتى على المعز معبرٌ صعب.

١٣٣ ـ وهناك كشف لى عن خندق جديد.

***

الأنشودة

20

رأى دانتى عذابًا جديدًا كان عليه أن يصوغه شعرًا، وقد انكشف له خندق رواه بكاء أليم وشهد قومًا يتقدمون بخطوات بطيئة فى بطن الوادى الرابع، وكان هؤلاء هم السحرة والعرافون والمنجمون ورأى دانتى مشهدًا عجبًا، إذ التوت رؤوس المعذّبين إلى الخلف وساروا إلى الوراء وبللت دموعهم فلقة الأرداف. تأثر دانتى لما أصاب صورة البشر من الانحراف والتشويه، فبكى بمرارة وقد اعتمد على صخرة فى الجسر الوعر عمل فرجيليو على تهدئة خاطره وقال له إنه ليس هناك من هو أضل من إنسان يأخذه الأسى أمام قضاء الله، وأشار فرجيليو إلى بعض هؤلاء السحرة والعرافين مثل أمفياروس وتيريسياس اليونانيين، وأرونس الإترسكى، ومانتو ابنة تيريسياس، التى غادرت اليونان وهامت على وجهها فى الأرض طويلا، ثم استقرت فى مسقط رأسه. أشار فرجيليو إلى بعض المناطق فى شمالى إيطاليا، والتى كان دانتى يعرفها، مثل الأبنين عند بحيرة جاردا، وعليها قلعة بسكييرا الحصينة وقال إن العرافة مانتو استقرت فى أرض قفراء وعاشت هناك ومارست فنون السحر، وهناك ماتت ثم شيدت مدينة فوق عظامها الميتة وسميت مانتوا. وأشار فرجيليو إلى أوريبيلوس وكالكاس العرّافين اليونانيين، اللذين أعطيا الإشارة للسفن بالرحيل إلى حرب طروادة وذكر فرجيليو ميكيل اسكوت

الساحر الاسكتلندى، وبوناتى المنجم والفلكى من مدينة فورلى، وأشار إلى أسدينتى الإسكافى من بارما الذى اشتهر بالسحر والشعوذة وكان القمر قد أخذ فى الغروب وآذنت الشمس بالشروق، وبذلك حان الوقت لكى يتابع الشاعران رحلتهما.

١ ـ فلأصنع شعرًا من العذاب الجديد، وأجعل منه مادة للأنشودة العشرين، من أغنيتى الأولى، أغنية الغارقين.

٤ ـ وكنتُ قد تأهبتُ بكل مشاعرى، لكى أنظر فى الخندق الذى كشف لى، وقد سقاه بكاءٌ أليم.

٧ ـ فرأيت قومًا فى الوادى المستدير، يأتون باكين صامتين بالخطوات التى يسير بها الليتانيون فى هذه الدنيا.

١١٠ ـ ولما ازداد انخفاض بصرى إليهم، بدا لى من العجب أن كلا منهم قد التوى، بين الذقن وأوّل الصدر.

١٣ ـ إذْ استدار الوجه للكليتين، وكان عليهم أن يسيروا إلى الوراء، إذ امتنع عليهم النظر إلى الأمام.

١٦ ـ قد يلتوى بعض الناس على هذا النحو تماما من الشلل، ولكنى لم أر هذا ولا أعتقد أنه موجود.

١٩ ـ فليجعلك اللّه تجنى ثمرة قراءتك أيها القارئ، ولتفكر الآن بنفسك كيف كنت أستطيع حفظ وجهى جافًا من الدموع

٢٢ ـ عندما رأيت من كثب صورتنا الإنسانية منقلبة على هذا الوضع، حتى بلل بكاء الأعين منهم قناة الردفين.

٢٥ ـ بكيتُ حقًا، وقد اعتمدتُ على صخرة من الجسر الوعر، حتى قال لى رفيقى: «أأنت أيضًا من الحمقى الآخرين؟

٢٨ ـ هنا تعيش الشفقة حينما تكون قد ماتت تماما: ومن أضل ممن يأخذه الأسى أمام قضاء اللّه!

٣١ ـ ارفع الرأس وارفع، انظر إلى من انفتحت له الأرض أمام أعين أهل طيبة، فصاحوا جميعا: «إلى أين تهوى.

٣٤ ـ يا أمفياروس؟ ولماذا تترك الحرب؟» إنه ما انفك يهبط فى الهاوية إلى مينوس، الذى يقبض على كل آثم.

٣٧ ـ تطلع إلى من جعل من كتفيه صدراً: ولأنه أراد أن يرى إلى الأمام كثيرا، فهو ينظر الآن إلى الوراء، ويسير إلى الخلف.

٤٠ ـ وانظر إلى تيريسياس الذى غيّر مظهره، حينما تحوّل من رجل إلى امرأة، وقد بدّل كل أعضائه.

٤٣ – ثم كان عليه أن يضرب بعصاه الثعبانين المتعانقين مرة أخرى، قبل أن يستعيد ريش الذكر.

٤٦ ـ ذلك هو أرونس، الذى يسند ظهره إلى بطن تيريسياس، والذى كان له ـ فى جبال لونى حيث يطهِّر الأرض، أهل كارارا الساكنون فى أسفل ـ

٤٩ ـ كهفٌ لسكناه، بين المرمر الأبيض، إذ لم تمتنع عليه عند النظر، رؤية النجوم ومياه البحر.

٥٢ – وتلك التى تغطى ثدييها اللذين لاتراهما، بجدائل محلولة، ولها فى الجانب الآخر كل جلد أشعر.

٥٥ ـ كانت هى مانتو، التى جابت بلاداً كثيرة، ثم استقرت هناك حيث ولدت، ولذلك يسرنى أن تنصت إلىّ قليلا.

٥٨ ـ بعد أن غادر أبوها الحياة، واستُعبدت مدينة باخوس، هامتْ على
وجهها فى الأرض طويلا.

٦١ ـ فى أعالى إيطاليا الجميلة، وعلى سفح جبال الألب، التى تُغلق
ألمانيا فوق التيرول، تستلقى بحيرة تدعى بيناكوس.

٦٤ – وأعتقد أن الأبنين خلال ألف نبع وأكثر، بين بحيرة جاردا ووادى
كامونيكا، يرتوى بالماء الذى يسكن فى تلك البحيرة

٦٧ ـ وفى الوسط مكان، هناك حيث استطاع راعى ترنتو وراعى بريشا
والفيرونى أن يمنحوا البركات، إذا ساروا فى ذلك الطريق.

٧٠ ـ وتجثم بسكييرا القلعة الجميلة القوية، فى مواجهة أهل بريشا
وأهل برجامو، حيث يزيد هبوط الشاطئ من حولها

٧٣ ـ وهناك لابد أن يفيض كل ما لا يقوى على البقاء فى بطن
بيناكوس، وفى أسفل يصنع من نفسه نهرًا خلال المروج
الخضراء. .

٧٦ – وحينما تبدأ المياه فى جريانها، لا تُسمى بيناكوس بعدُ، ولكن
تُدعى مينتشو حتى مدينة جوفرنو، حيث تصب فى نهر البو.

٧٩ ـ ولا تجرى كثيرًا حتى تجد منخفضًا، تنساب فيه وتتحول إلى
مستنقع، اعتاد أن يصير وخيمًا فى الصيف أحيانًا.

٨٢ ـ وبينما كانت العذراء المتوحشة، تمر هناك، رأت وسط المستنقع
أرضًا غير ذات زرع وعارية من السكان.

٥٨ ـ ولكى تهرب من كل علاقة بالبشر، استقرت مع خدمها هناك،
حتى تمارس فنونها، وعاشت، وهناك تركت جسدها رفاتا.

٨٨ ـ والرجال الذين تفرّقوا من حوله، اجتمعوا عند ذلك المكان وقد كان منيعًا بالمستنقع الذى أحاطه من كلّ جانب.

٩١ ـ وشادوا المدينة فوق تلك الأعظم النخرات، وباسم تلك التى اختارت المكان أولا، سمّوها مانتوا، دون كهانة أخرى.

٩٤ ـ وكان السكان بداخلها قد أصبحوا أكثر عددا، قبل أن يتلقى جنون الكونت كازالودى، غدر بينامونتى.

٩٧ ـ ولذلك أوصيك ـ إذا سمعت أبدًا أن مدينتى نشأت عن أصل مغاير ـ ألا تجعل أية أكذوبة تطمس الصدق».

١٠٠ ـ قلت: «أستاذى! إن كلماتك أكيدةٌ لدى تماما، وهى تسيطر على إيمانى، حتى ليبدو لى ما عداها كفحم خبت جذوته

١٠٣ ـ ولكن خبرنى عن القوم الذين يتقدمون، إذا وجدت من بينهم واحدًا يستحق الذكر! لأنه لا يشغل ذهنى سوى ذلك».

١٠٦ ـ عندئذ قال لى: «ذلك الذى تتدلى لحيته من خدّه على كتفيه الداكنتين حينما خلتْ من ذكورها اليونان،

١٠٩ ـ حتى لم يكد يبقى أحد فى المهد ـ كان عرافًا، وأعطى هو وكالكاس الإشارة لقطع أوّل حبل فى أوليس.

١١٢ ـ كان اسمه أوريبيلوس، وهكذا تتغنى به مأساتى الرفيعة فى موضع منها: وإنك تعرفه جيدًا، أنت يا من تعرفها كلها.

١١٥ ـ وذلك الاخر الذى يبدو فى الجنبين شديد الهزال، كان ميكيل اسكوت، الذى عرف حقا ألاعيب الخدع السحرية.

١١٨ ـ وانظر جويدو بوناتى، وانظر إلى أسدينى الذى يتمنى الآن لو أنه التزم العمل فى الخيط والجلد، ولكنه يندم بعد الأوان.



١٢١ - وانظر إلى البائسات اللائى تركن الإبرة والمغزل والمنسج، وجعلن من أنفسهن عرّافات، وصنعن من العشب والدمى طلاسم.

١٢٤ ـ ولكن تعال الآن، فإن قابيل بأشواكه، يسيطر على حدود نصفى الكرة، ويلمس الموج عند أشبيلية.

١٢٧ ـ وكان القمر قد صار بدأ مساء أمس: وينبغى أن تذكر هذا جيدًا، لأنه لم يؤذك مرّة فى الغابة العميقة».

١٣٠ ـ هكذا تحدّث إلىّ إذ كنا نسير.

***

الأنشودة

21

وصل الشاعران إلى الوادى الخامس، حيث يعذّب المرتشون الذين استغلوا سلطة وظائفهم ليجمعوا المال. رأى دانتى قطرانًا يغلى، يشبه القطران السميك فى مصنع سفن البندقية، حيث تُرمّم السفن المعطبة، وهنا غطس الآثمون فى القطران الآنى. ورأى دانتى شيطانًا مرعبًا وحشى الحركات، يحمل فوق كتفه آثمًا، ثم يقذف به فى الوادى، واتجه إليه الشياطين بخطاطيفهم حتى لا يعلو فوق سطح القطران، ويشبه هذا ما يفعله الطهاة فى سواء اللحم. أشار فرجيليو على دانتى بأن يتوارى وراء بعض الصخور، حتى لا يثير عليه الشياطين، حاول الشياطين أن يهاجموا فرجيليو، ولكنه تحدث إلى زعيمهم مالا كودا، وأفهمه أنه أتى بإرادة السماء لكى يقود دانتى فى هذه الرحلة، فهبطت كبرياؤه ودعا رفاقه إلى السلام، وإن كان الشياطين قد أضمروا الخيانة والغدر. ودعا فرجيليو دانتى أن يعود إليه آمنًا مطمئنًا، ومع ذلك فقد ظل بعض الوقت وهو يساوره الخوف من الشياطين. قال مالا كودا إن الجسر السادس قد تحطم كله واستقر فى قاع الوادى، ولابد من الذهاب إلى موضع آخر للعبور وأرسل مع الشاعرين بعض أتباعه من الشياطين لقيادتهما ولمراقبة من يخرج من الآثمين من القطران. لم يأمن دانتى جانبهم لما بدا عليهم

من أمارات الشر والغدر، وعبّر عن رغبته فى السير فى صحبة فرجيليو وحده، مادام يعرف الطريق. أخذ فرجيليو يهدّئ من روعه ويدخل السكينة عليه، وتقدّم الشياطين للمسير بعد أن أعطوا إشارة التفاهم لدليلهم باربارتشا، الذى جعل من عجزه بوقًا يضرب عليه لتتحرك جماعة الشياطين

١ ـ هكذا جئنا من جسر إلى جسر، ونحن نتحدّث عن أمور أخرى، لا تعنى ملهاتى بالتغنى بها، وبلغنا القمة.

٤ - حينما وقفنا لكى نرى هوة أخرى، فى «الماليبولجى»، ونشهد دموعًا أخرى باطلة، ورأيتها عجيبة الإظلام.

٧ ـ وكما يغلى القطران الكثيف، شتاءً، فى مصنع سفن البنادقة، للقيام بطلاء سفنهم المعطبة.

١٠ ـ التى لا تقوى على الإبحار، وبدلا من ذلك يُجدد هذا سفينته، ويسدّ آخر جوانب تلك التى قامت برحلات كثيرة،

١٣ ـ هذا يضرب المقدمة، وذلك يطرق المؤخرة، ويصنع آخرون مجاديف ويجدل غيرهم حبالا، وواحد يرتق شراع المقدمة وآخر يصلح الشراع الأكبر.

١٦ ـ هكذا كان يغلى هناك ـ فى أسفل ـ قطران كثيف، لا بفعل نار ولكن بفن إلهى، وقد غمر الشاطئ فى كل جانب.

١٩ ـ ورأيته، ولكنى لم أتبين فيه سوى الفقاقيع التى صعدها الغليان، وقد انتفخت كلها، ثم هبطت وهى تنكمش.

٢٢ - وبينما كنت أمعن النظر هناك أسفل، وكان دليلى يقول لى: «خذ الحذر، خذ الحذر!» جذبنى إليه من المكان الذى كنت واقفًا فيه.

٢٥ ـ وحينئذ استدرتُ كالرجل الذى يتأخر ليرى ما ينبغى أن يهرب منه، ويوهن قواه خوف مفاجئ.

٢٨ - فلا يؤخر رحيله لكى يرى، ورأيتُ خلفنا شيطانًا أسود اللون، يأتى سعيًا فوق الجسر.

٣١ ـ أوّاه! كم كان رهيبًا فى مظهره! وكم بدا لى وحشيا فى حركاته، مفتوح الجناحين، خفيفًا على القدمين!

٣٤ ـ وعلى كاهله، الذى كان شامخًا مدببا، حمل آثما فاستقر بكلا ردفيه، وأمسك هو بقوة عصب القدمين.

٣٧ ـ وقال من فوق جسرنا: «ياماليبرانكى، هاك واحداً من شيوخ القديسة زيتا! ضعه أسفل، حتى أعود من أجل آخرين.

٤٠ ـ إلى تلكح المدينة التى أحسنتُ تزويدها بهم، إن كلّ إنسان فيها مرتش سوى بونتورو! هناك بالمال تُصبح لا بمعنى نعم».

٤٣ ـ وقذف به هناك أسفل، ثم استدار فوق الجسر الوعر، ولم يطلق كلب أبدا بمثل هذه السرعة لكى يتعقب لصا.

٤٦ ـ غطس هذا ثم عاد إلى أعلى وهو بالقذر مغمور، ولكن الشياطين الذين كان الجسر غطاء لهم صاحوا: «ليس للوجه المقدّس مكانٌ هنا:

٤٩ ـ ولا يسبح هنا كما فى نهر سيركيو! فإذا أردت ألا يكون لك بخطاطيفنا شأنٌ، فلا تظهرن فوق القطران».

٥٢ ـ ثم ضربوه بأكثر من مائة خطاف، وقالوا: «عليك أن ترقص هنا وأنت مغطى، وإذا استطعت فلتخرج خفية».

٥٥ ـ غير هذا لا يفعل الطهاة، حين يجعلون أعوانهم يغمسون اللحم بمداريهم وسط القدور، حتى لا يطفو

٥٨ ـ قال الأستاذ الطيب: «لكيلا يبدو لأحد أنك هنا، اقبع فى أسفل وراء صخرة، لتجد لك بعض معتصم،

٦١ ـ ومهما نالنى من هجوم فلا تخف، لأنى حسبتُ لك أمر حسابه، وكنتُ مرّة من قبل فى مثل هذا العراك».

٦٤ ـ ثم سار وقد تجاوز رأس الجسر، وعندما وصل إلى ما فوق الشاطئ السادس، كان فى حاجة لأن يبدو بوجه مطمئن

٦٧ ـ وبذلك الغضب وتلك العاطفة التى يندفع بها الكلاب وراء الفقير البائس، الذى يسأل فجأة حيث يقف.

٧٠ – هكذا خرج هؤلاء من تحت الجسر، ووجهوا إليه كل الخطاطيف ولكنه صاح بهم: «لايكن أحد شريرا

٧٣ ـ وقبل أن تصيبنى خطاطيفكم، فليتقدم إلى الأمام واحدٌ منكم ليسمعنى، ثم فلترجعوا أنفسكم فى طعنى».

٧٩ ـ فصاحوا جميعًا: «فليذهب مالا كودا!» وحينئذ تحرك أحدهم، وظل الآخرون وقوفًا، وجاء إليه قائلا: «وما ينفعه هذا؟»

٧٩ ـ قال أستاذى: «أتعتقد يا مالا كودا أنك ترانى جئت هنا، وقد أمنتُ من كل عراقيلكم،

٨٢ ـ دون إرادة إلهية وقدر موافق؟ دعونى أمضى، فقد أريد فى السماء، أن أرى غيرى هذا الطريق الموحش».

٨٥ ـ عندئذ هبطت كبرياؤه، حتى ترك الخطّاف يسقط إلى قدميه، وقال للآخرين: «لا يُمس الآن».



٨٨ - ثم قال لى دليلى: «يا من تجثم مختفيا بين صخور الجسر، عد إلى الآن آمنًا مطمئنا».

٩١ - وإذ ذاك نهضتُ وذهبتُ إليه مسرعا، وتدافع الشياطين إلى الأمام جميعًا، حتى خفتُ ألا يرعوا العهد.

٩٤ - وكذلك كنتُ قد رأيت المشاة خائفين، وقد خرجوا من كابرونا بعد التعاهد، إذ رأوا أنفسهم وسط أعداء كثيرين.

٩٧ - وألصقتُ بدليلى كل جسمى، ولم تحد عيناى عن مرآهم، الذى لم يكن حسن المظهر.

١٠٠ - خفضوا الخطاطيف وقال كل منهم لاخر: «أتريد أن أناله فى عجزه؟» وأجابوا: «نعم، احرص على طعنه!»

١٠٣ - ولكن ذلك الشيطان الذى كان يتحدّث مع دليلى استدار سريعًا وقال: «مهلا مهلا ياسكارميليونى!».

١٠٦ - ثم قال لنا: «لا يمكن التقدم فوق هذا الصخر لأن الجسر السادس يستقر كله حطامًا فى القاع

١٠٩ - وإذا راقكما السير بعد، فلتمضيا فوق هذا الصخر، فقريبٌ من هنا جسر آخر يصنع طريقًا.

١١٢ - بالأمس وخمس ساعات بعد هذه الساعة، اكتملت ستّ وستون ومائتان وألف سنة، منذ أن تحطم الطريق هنا.

١١٥ - وإنى مرسلٌ إلى هناك بعض أتباعى، ليروا هل يتنسم أحدهم الهواء: اذهبا معهم فإنهم لن يكونوا سيئين معكما».

١١٨ - ثم بدأ يقول: «إلى الأمام يا أليكينو، ويا كالكابريا، وأنت يا كانياتزو، ولتكن يابارباريتشا دليلا للعشرة.

١٢١ ـ وليذهب أيضًا ليبيكوكو، ودراجينياتزو، وتشيرياتو ذو النابين، وجرافيكانى، وفارفاريلو، وروبيكانتى المجنون

١٢٤ ـ ابحثوا جميعا حول الغراء الآنى: وليصل هذان سالمين، إلى الجسر التالى، الذى يمتدّ برمته فوق الخنادق».

١٢٧ – فقلتُ: «أواه يا أستاذى! ماذا أرى؟ أوّاه! فلنذهب وحيدين دون رفيق، إذا كنت تعرف الطريق، فإنى أنا لا أطلبه.

١٣٠ ـ وإذا كنتَ شديد الحذر كما هو مألوف، أفلا ترى أنهم يُحرقون أسنانهم الأرم، وبالأعين يتهددوننا بالعذاب؟».

١٣٣ ـ فقال لى: «لا أريدك أن تفزع: دعهم كما يشاءون يحرقون أسنانهم الأرم، فإنهم يفعلون ذلك للمعذبين فى الحميم الآنى».

١٣٦ ـ واتجهوا للسير على الشاطئ الأيسر، ولكن كان كل منهم قد ضغط لسانه من قبل بالأسنان صوب القائد، للإشارة،

١٣٩ ـ وجعل هو من عجزه بوقًا

***

الأنشودة

22

أشار دانتى إلى حركات الفرسان وسيرهم فى الحرب والسلم، وقال إنه لم ير مثيلا للبوق الغريب الذى سار الشياطين بمصاحبته، ونظر دانتى إلى القطران فرأى بعض الآثمين قد رفع ظهره، كالدرافيل فى البحر، لكى يُخففوا ألم الغليان، ورأى المعذبين فى القطران مثل الضفادع على حافة المستنقع، وقد أشهرت خياشيمها وأخفت جسمها فى الماء ووجد الشيطان جرافيكانى يلتقط أحد المعذبين بخطافه، وأقبل بقية الشياطين للاشتراك فى تمزيقه، ولكن محادثة فرجيليو له أوقفت ذلك التعذيب وعرف دانتى أنه جامبولو من نافار، الذى استغلّ نفوذه فى بلاط الملك تيبالدو فى الرشوة وجمع المال وحاول بارباريتشا أن يحميه من اعتداء الشياطين حتى ينتهى فرجيليو من حديثه معه. سأله فرجيليو هل يوجد معه رجل من اللاتين قال جامبولو إن معه فى القطران الراهب جوميتا، الذى استغلّ مركزه فى سردينيا لجمع المال، وأصبح بذلك زعيمًا للمرتشين. وعمل جامبولو على خداع الشياطين لكى يفلت منهم وينجو من التمزيق وطلب أليكينو الشيطان أن يجرى بينه وبين جامبولو سباق، وكانت تلك مباراة عجيبة، بين شيطان ومعذّب استطاع جامبولو أن يقفز فى لحظة إلى القطران، ولم يستطع جناحا أليكينو أن يسبقا خوف جامبولو وهكذا أفلت من التعذيب، وعندئذ غضب كالكابرينا لنجاح

خدعة جامبولو، وهاجم أليكينو المسئول عن هربه، واشتبك الشيطانان فى معركة حامية وسقطا معًا فى القطران الآنى وحاول بقية الشياطين إنقاذهما بخطاطيفهم من جانبى الوادى انتهز دانتى وفرجيليو هذه الفرصة وتابعا رحلتهما دون رُفقة الشياطين.

١ ـ من قبل رأيتُ الفرسان يتحرّكون، يبدءون الهجوم، ويعرضون صفوفهم، وأحيانًا ينسحبون نجاة بأنفسهم،

٤ ـ ورأيتُ الطلائع فى أرضكم يا أهل أريتزو، وشهدتُ هجمات المغيرين، ومبارزة الفرسان زرافات ووحدانًا،

٧ ـ بالأبواق تارة وطورًا بالأجراس، وبالطبول وبإشارات القلاع، وبأشياء لنا وأخرى أجنبية.

١٠ – ولكنى لم أرَ بمصاحبة هذا البوق الغريب، فرسانا ولا مشاة يتحركون، ولا سفينة تسير بإشارة من أرض أو نجم.

١٣ ـ ذهبنا مع الشياطين العشرة: ويلاه من الرفقة الرهيبة! ولكن فى الكنيسة يصحب الإنسان القديسين وفى الحانة ذوى النهم.

١٦ ـ اتجه انتباهى إلى القطران وحده، لكى أرى كلّ ما احتواه الوادى، والقومَ الذين احترقوا بداخله.

١٩ – وكالدرافيل، حينما تُشير للملاحين بظهرها المقوّس، كى يستعدوا لإنقاذ سفينتهم.

٢٢ – هكذا أبرز بعض الآثمين ظهره أحيانا لكى يخفف الألم، وأخفاه فى أقل من ومضة البرق.

٢٥ ـ وكما تقف الضفادع عند حافة مياه خندق بخيشومها وحده فى الخارج، حتى تُخفى أقدامها وسائر الجسم.

٢٨ - كذلك وقف الآثمون فى كلّ جانب، ولكن ما إن أخذ بارباريتشا يقترب منهم، حتى انسحبوا تحت الحميم الآنى.

٣١ - رأيتُ، وهو ما لايزال يرتجف منه قلبى، واحدًا ينتظر هكذا، كما يحدث أن يبقى ضفدعٌ ويختفى آخر،

٣٤ - وجرافّيكانى الذى كان أقرب إليه، شبك خُطافه فى خصلات شعره اللزج، وانتزعه إلى أعلى، فبدا لى ككلب البحر.

٣٧ ـ كنتُ قد عرفتُ أسماءهم جميعًا، لأنى لاحظتهم بعناية حين اختيارهم، وحينما نادى كل منهم الآخر، انتبهتُ، وكيف انتبهت!

٤٠ - وصاح الملاعين كلهم معا: «ياروبيكانتى، احرص على أن تُنشب مخالبك فى ظهره، حتى تسلخه».

٤٣ ـ قلت: «أستاذى، اعمل على أن تعرف، إن استطعت، من البائس الذى وقع فى قبضة أعدائه».

٤٦ - اقترب دليلى إلى جانبه، وسأله من أين جاء، فأجاب: «لقد وُلدت فى مملكة نافار.

٤٩ - ووضعتنى أمىّ خادما لسيد، إذ كنت قد ولدتنى من وغد هادم لنفسه وأمواله،

٥٢ ـ ثم صرت من خواص تيبالدو الملك الطيب: وهناك عكفت على اصطناع الرشوة، التى أؤدى عنها الحساب فى هذا الوهج».

٥٥ ـ وتشيرياتّو، الذى خرج من كلا جانبى فمه نابٌ، كما للخنزير، أشعره كيف يُمزّقه أحد نابيه.

٥٨ - وقع الفأر بين قطط شرّيرة، ولكن بارباريتشا أطبق عليه ذراعيه، وقال: «ابقوا هنا، بينما أعصره أنا».

٦١ ـ ثم التفت إلى أستاذى وقال: «سله أيضا، إذا رغبت أن تعرف منه مزيدًا، وقبل أن يمزّقه الآخرون إربًا».

٦٤ ـ عندئذ قال دليلى: «أخبرنى الآن: أتعرف تحت القطران رجلا من اللاتين بين سائر الأشرار؟» فأجاب: «لقد رحلتُ

٦٧ ـ منذ قليل عن رجل، كان جارهم فى ذلك الجانب: وكنت أودّ أن أبقى مغطى معه، حتى لا أخشى مخلبًا ولا خطافًا.

٧٠ - فقال ليبيكوكّو: «إننا قد احتملنا كثيرًا». وأمسك ذراعيه بالمحجن، حتى إنه وهو يمزّقه، حمل منه قطعة.

٧٣ ـ وكذلك أراد دراجينياتزو أن يوقف ساقيه من أسفل، وعندئذ دار قائدهم حوله بوجه الشرّ.

٧٦ ـ وعندما هدأوا قليلا، سأل دليلى دون أناةٍ، ذلك الذى كان لايزال ينظر إلى جرحه.

٧٩ - «من كان ذلك الذى تقول إنك قد أسأت بالرحيل عنه، لتأتى إلى الشاطئ؟» فأجاب: «كان هو الراهب جوميتا»،

٨٢ ـ من جالوّرا، وعاء كل خيانة، الذى استولت يده على أعداء سيده، ففعل لهم ما جعل كلا منهم يمدحه لذلك.

٨٥ ـ لقد أخذ أموالهم، ثم تركهم أحرارًا، كما يقول، وفى المناصب الأخرى كان أيضًا مرتشيًا، لا صغيرًا ولكن زعيمًا.

٨٨ ـ ويتحدث إليه السيد ميكيل زانكى، من لوجودورو، وفى الكلام عن سردينيا لا يشعر لساناهما بالكلال.

٩١ ـ أوّاه! انظر إلى ذلك الآخر الذى تتحرّق أسنانه الأرم! وددت لو أطيل الحديث، ولكنى أخشى أن يستعدّ لينزع منى جلدة الرأس».

٩٤ ـ وقال القائد الكبير وهو متجهٌ إلى فارفاريلّو، الذى أدار عينيه لكى يطعن: «فلتذهب هناك، أيها الطائر الخبيث».

٩٧ ـ واستأنف المرّتعد بعدُ: «إذا أردتما أن تريا أو تسمعا قومًا من تُسكانا أو لمبارديا، فسآتيكما بهم،

١٠٠ ـ ولكن فَلتبق المخالب الشريرة بعيدة قليلا حتى لايخشوا انتقامها، وإنى، إذْ أجلسُ فى هذا الموضع ذاته،

١٠٣ ـ ومهما كان من أمرى، سأستقدم منهم سبعة، حينما أطلق صفيرى، كما هى عادتنا أن نفعل، عندما يضع أحدنا نفسه فى الخارج».

١٠٦ ـ رفع كانياتزو فمه عند هذا الكلام، وهو يهز رأسه، وقال: «فلنسمع الخبث الذى راوده، كى يُلقى بنفسه إلى أسفل!»

١٠٩ ـ وعندئذ أجاب من امتلأت جعبته بالمكائد: «حقا إنى لشديد الخبث، حينما أدبر لرفاقى بؤسا أشدّ».

١١٢ ـ لم يُطق أليكينو صبرا، وبعكس الآخرين قال له: «إذا أنت ألقيت بنفسك، فلن أتبعك عدوًا،

١١٥ ـ ولكنى سأضرب بجناحىّ فوق القطران، ولنترك المرتفع، وليكن الشاطئ حاجزًا لك، لنرى أتتفوق علينا أنت وحدك!».

١١٨ ـ ستسمع مباراة جديدة أيها القارئ: اتجه كل منهم بعينيه إلى الجانب الآخر، وأولهم من كان أقل نضجا لأن يفعل ذلك.

١٢١ ـ أحسن النافارى اختيار وقته، وثبت فى الأرض عقبيه، وفى لحظة قفز، وحرر نفسه من قصدهم.

١٢٤ ـ وحينئذ أحسّ كل منهم بوخز الإثم، وعلى الأخص من كان سببًا فى الخطأ، ولذلك تحرّك وصاح: «قد لحقتُ بك!».

١٢٧ ـ ولكن قليلاً نفعه ذلك، لأن الجناحين لم يستطيعا للخوف سبقًا، وذهب ذلك إلى أسفل، ورفع هذا صدره إلى أعلى وهو يطير.

١٣٠ ـ غير هذا لا يفعل البطّ البرّى، إذ يغوص إلى أسفل حينما يقترب البازى، الذى يعود صُعدًا حانقًا منهزمًا.

١٣٣ ـ وكالكابرينا، وقد غضب من هذه الخدعة، تبعه طائرًا، وهو شديد الرغبة أن يهرب الآثم، لكى يدخل فى المعركة.

١٣٦ – وحينما اختفى المرتشى، حول كالكابرينا مخالبه هكذا إلى رفيقه، واشتبك معه فوق الخندق.

١٣٩ ـ ولكن الآخر كان فى الحقّ صقرًا قارحًا، يجيد طعنه بالمخلب، وسقط الاثنان معا وسط المستنقع الآنى.

١٤٢ ـ وكانت الحرارة فاصلا بينهما توا، ولكن استحال عليهما التحليق، إذ صارت أجنحتهما منغمسة فى القطران هكذا.

١٤٥ – وباربارييتشا الذى تولاه الحزن، مع رفاقه، جعل أربعة منهم يطيرون إلى الشاطئ الآخر بكل الخطاطيف، وبسرعة فائقة.

١٤٨ ـ هبطو هنا وهناك إلى مواضعهم، ومدوا الخطاطيف إلى اللذين غمرهما اللزج، وكانا قد نضجا داخل الجلد المحترق.

١٥١ ـ وتركناهم مرتكبين على ذلك النحو

***

الأنشودة

23

سار الشاعران وحيدين صامتين كما يسير رهبان الفرنتشسكان، وأخذت تراود دانتى فكرة خطر الشياطين، وخشى أن يلحقوا بهما، بعد أن تعرّضوا للضرر والسخرية بسببهما، فعبَّر عن مخاوفه لفرجيليو، الذى أخذ يهدّئ من روعه ولكن ما لبث الشياطين أن مضوا فى مطاردة الشاعرين وأوشكوا على اللحاق بهم، فحمل فرجيليو دانتى بين ذراعيه، مثل أم تحمل ابنها وتهرب به من ألسنة اللهب، وانحدر به فرجيليو إلى الوادى السادس. رأى الشاعران جماعة من المعذبين يرتدون ثيابًا ملوّنة، وعلى رءوسهم قلانس برّاقة اللون، وباطنها من الرصاص الثقيل، وقد ساروا فى بطء شديد، وكان هؤلاء هم جماعة المنافقين وسأل اثنان دانتى عن شخصه وكيف جاء إلى هذا الموضع من الجحيم أجاب دانتى بأنه وُلد ونشأ على ضفة الأرنو الجميل وأنه هنا بجسمه الذى كان له دائما. عرف دانتى أنه أمام الراهبين كاتالانو ولوديرينجو اللذين اختارتهما فلورنسا لتحقيق السلام فيها، ولكنهما أخلفا الظنّ فيهما، وتصرفا بطريقة لاتزال آثارها بادية حول جاردينيو. ولفت نظر دانتى الكاهن قيَافا، الذى أشار بالتضحية بالمسيح فى سبيل خلاص الشعب، وكان ملقى عاريًا فى عرض الطريق ومصلوبًا فى الأرض بثلاثة أوتاد، وكان عليه أن يحتمل ثقل كلّ

من يمرّون فوقه. استفسر فرجيليو عن الطريق، وخرج إلى الوادى التالى، وقد بدت عليه أمارات الغضب لخداع مالا كودا إياه من قبل، وتابع دانتى مواطئ قدميه العزيزتين.

١ ـ وحيدين صامتين، دون رفيق مضينا، واحدٌ إلى الأمام والاخر من بعده، كما يسير الرهبان المينوريون فى الطريق.

٤ ـ اتجه فكرى بالعراك الحالى إلى خرافة إيزوب، حيث تحدّث عن الضفدع والفأر.

٧ – إذ لا تتشابه «الآن» و «حاليا» أكثر من مشابهة إحداهما للأخرى، إذا أحسنت الجمع بذهن واع بين البداءة والنهاية.

١٠ ـ وكما تتفتق فكرةٌ عن أخرى كذلك تولد من هذه غيرها بعدُ، فضاعفت من خوفى الأول،

١٣ ـ وفكرتُ هكذا: «لقد هزئ بهؤلاء بسببنا، ونالهم الضرر والسخرية، على صورة أعتقد أنها تزعجهم كثيرا.

١٦ ـ وإذا ما أضيف الغضب إلى نيتهم الخبيثة، فإنهم سيأتون من ورائنا بوحشية أشدّ من الكلب وراء ذلك الأرنب البرىّ الذى ينهشه».

١٩ ـ أحسستُ أن شعرى كله قَفَّ من الرعب، ووقفتُ إلى الوراء منتبهًا، حينما قلت: «أستاذى، إذا لم تُخف

٢٢ ـ نفسك وإياى سريعًا، فإنى أفزع من الشياطين: إنهم من ورائنا: وإنى أتخيلهم تماما، حتى لأسمعهم فعلا».

٢٥ – فقال: «لو كنت من زجاج يستبطن الرصاص، لما رسمت صورتك الظاهرة، بأسرع مما أرسم صورتك الباطنة.

٢٨ – الآن فحسب جاءت أفكارك بين أفكارى بفعل واحد ووجه متجانس، ولذلك جعلتُ من كلبهما رأيًا واحدًا.

٣١ – إذا كان الشاطئ الأيمن ينحدر بحيث نقدر على الهبوط إلى الوادى الآخر، فإننا سينجو من المطاردة الموهومة».

٣٤ ـ ولم يكد ينتهى من ذكر قراره، حتى رأيتهم قادمين نحونا بأجنحة ممتدة، غير بعيدن منا، يريدون الإمساك بنا.

٣٧ ـ أخذنى دليلى سريعًا كالأم التى تستيقظ على الضوضاء، فترى بقربها ألسنة اللهب المشتعل.

٤٠ ـ وتأخذ ابنها، وتهرب ولاتتوقف، وهى حريصة عيله أكثر من ذاته: فلا ترتدي سوى قميص واحد.

٤٣ ـ ومن أعلى الشاطئ الوعر، ترك تفسه يهبط سريعا، فوق الصخر المنحدر، الذى يسدّ أحد جانبى الوادى التالى.

٤٦ ـ لم تجر أبدًا مياهٌ من مسقط بمثل هذه السرعة، لتدير عجلةَ طاحونٍ أرضى، حينما تزداد قربًا إلى أضراسها.

٤٩ – كما أسرع أستاذى على ذلك الشاطئ، وهو يحملنى فوق صدره، كأننى له ابنٌ، لا رفيق.

٥٢ ـ وما كادت تصل قدماه تحتُ إلى قاع المنخفض فى أسفل، حتى صاروا فوقنا على المرتفع، ولكن ذلك لم يعره اضطرابًا.

٥٥ – لأن الحكمة العليا التى أرادت أن تضعهم حراسًا للخندق الخامس، نزعت منهم جميعا القدرة على مغادرته.

٥٨ – وهناك فى أسفل وجدنا قوما يعلوهم الطلاء، كانوا يدورون كثيرًا بخطى بطيئة، وهم يبكون، وبدا على سيماهم الإعياء والوهن

٦١ ـ وكانت عليهم عباءات ذات قلانس تدلت أمام الأعين، وصُنعت على طراز ما يعمل للرهبان فى كلونى.

٦٤ ـ مذهبةٌ من الخارج حتى لتخطف الأبصار، لكن باطنها كان كلّه من رصاص شديد الثقل، حتى بدت قلانس فردريك من القش إلى جانبها.

٦٧ ـ واهًا لك أيها الثوب المعنى إلى الأبد! واتجهنا بعدُ إلى اليسار فى رفقتهم فحسب، ونحن صاغون إلى بكائهم الأليم.

٧٠ ـ ولكن هؤلاء القوم المجهدين بأثقالهم، ساروا ببطء شديد، حتى كانت لنا، كلما تحرّكت أعقابنا، رفقة جديدةٌ.

٧٣ ـ لذلك قلتُ لدليلى: «اعمل على أن تجد من يمكن معرفته بالاسم أو بالفعل، ونقل عينيك حولنا بينما نسير».

٧٦ ـ فصاح من خلفنا أحد المعذبين الذى سمع اللغة التسكانية: «احبسا أقدامكما يا من تعدوان هكذا، خلال الهواء المظلم!

٧٩ ـ فربما تنال منى ما تطلبه»، حينئذ استدار دليلى، وهو يقول لى: «انتظر، ثم تقدم وفق خطاه».

٨٢ ـ وقفتُ، ورأيتُ اثنين أظهر وجهاهما لهفة شديدة أن يكونا معى، ولكن عوّقهما الحملُ وضيق الطريق.

٨٥ ـ ولما وصلا، نظرا إلىَّ طويلا بأعين حولاء، دون أن ينبسا بكلمة، ثم اتجه كل منهما للآخر، وقالا فيما بينهما:

٨٨ ـ «هذا يبدو إنسانًا حيا من حركة الحنجرة، وإذا كانا ميتين فبأى فضل يسيران دون غطاء من الرداء الثقيل؟»

٩١ – ثم قالا لى: «أيها التسكانى الذى أتيت إلى جماعة المنافقين البائسين، لا تخجل أن تقول مَنْ أنت!».

٩٤ – وأجبتهما: «لقد ولدت ونشأتُ على ضفة الأرنو الجميل، فى المدينة العظيمة، وأنا هنا بالجسم الذى كان لى دائما.

٩٧ ـ ولكن من أنتما، وقد جعل الألم دموعكما كما أرى، تهطل على الخدود، وأىّ عذابٍ هذا الذى أراه يتلألأ عليكما؟

١٠٠ ـ فأجابنى أحدهما: « إن الأردية البرتقالية مصنوعةٌ من رصاص جدُ كثيف، حتى يجعل الثقلُ لموازينها مثل هذا الصرير.

١٠٣ ـ كنا رهبانًا ممتعين من بولونيا، وإنى أدعى كاتلانو، وهذا يُدعى لوديرينجو، وأخذتنا مدينتك نحن الاثنين معًا،

١٠٦ ـ وقد كان المألوف أن يُختار واحدٌ، ليحفظ فيها السلام، وتصرفنا بطريقة لا تزال بادية حول جاردينيو»

١٠٩ ـ بدأتُ «أيهذان الراهبان، إن شروركما ...» ولكنى لم أقل مزيدًا، إذا ابتدر لعينى معذب مصلوب فى الأرض بثلاثة أوتاد.

١١٢ ـ وحينما رآنى اختلجت كلّ أعضائه، وهو يصعد الزفرات فى لحيته، وكاتالانو الراهب، الذى انتبه إلى ذلك.

١١٥ – قال لى: «إن ذلك المثبت فى الأرض، الذى تُمعن فيه النظر، أشار على الفرّيسيين بضرورة تعذيب رجل واحد فى سبيل الشعب.

١١٨ ـ إنه ملقى عاريًا، كما ترى، فى عرض الطريق، وينبغى أن يُحس أولا كم يزن كل من يمر فوقه.

١٢١ ـ وبهذه الطريقة نال حموه التعذيب فى هذا الخندق، والآخرون من أعضاء المجمع الذى كان لليهود أصل النكبات».

١٢٤ ـ حينئذ رأيت فرجيليو يأخذه العجب، من أجل ذلك الممدد المصلوب، بهذا الوضع المزرى فى المنفى الأبدّ.

١٢٧ - ثم وجه إلى الراهب هذه الكلمات: «لعله لا يسوؤك، إذا كان مباحًا لك أن تقول لنا، أتوجد إلى اليمين ثغرة،

١٣٠ ـ نستطيع كلانا عن طريقها أن نخرج من هنا، دون أن نضطر الملائكة السود، إلى القدوم، لإخراجنا من هذا العمق؟».

١٣٣ ـ حينئذ أجاب: «توجد أقرب مما تأمل، صخرةٌ تخرج من الدائرة الكبرى وتمتّد فوق كل الأودية القاسية،

١٣٦ ـ غير أنها محطمةٌ فى هذا الخندق ولا تُغطيه، وتستطيع أن تصعد فوق الحُطام، الذى ينحدر على الجانب، ويعلو من القاع».

١٣٩ ـ وقف دليلى مطأطئ الرأس برهةً، ثم قال: «لقد قص علينا الأمر باطلاً، من يطعن الآثمين بخطافه فى الجانب الآخر».

١٤٢ ـ قال الراهب: «كنتُ قد سمعتُ فى بولونيا من يقول إن للشيطان رذائل كثيرة، وسمعت من بينها أنه كذوب، وأبوالأكاذيب».

١٤٥ ـ وعندئذ سار دليلى بخطى فسيحة، وقد بدت ملامحه مضطربة بالغضب قليلاِ، فابتعدت عن المعذبين بأثقالهم.

١٤٨ ـ وأنا أتابع مواطئ قدميه العزيزتين

***

الأنشودة

24

رسم دانتى بعض صور الريف الإيطالى، ووصف الفلاح وقد استولى عليه اليأس عند نزول الصقيع فيعوزه العشب، ثم يسترجع الأمل عندما تظهر أشعة الشمس فيأخذ عصاه ويسوق القطعان لكى ترعى الكلأ. وازن دانتى بين حال الفلاح فى هذين الموقفين وحاله وفرجيليو عندما أخذهما اليأس ثم تحوّل إلى الاطمئنان والرضى بزوال الخطر وصل الشاعران إلى جسر محطم، فرفع فرجيليو دانتى وساعده على اعتلاء الصخور، وجلس دانتى من الإعياء وقال له إن المجد لا يُنال فوق الفراش ولا تحت الأغطية وإن قوة الروح تظفر فى كلّ معركة، فنهض دانتى وقد استعاد قوته، ومضى الشاعران فى سيرهما سمع دانتى صوتًا ولكنه لم يفهمن مه كلامًا ونظر ولكنه لم يتبين شيئًا لشدّة الظلام، ولذلك طلب إلى فرجيليو أن يهبط إلى الخندق السابع حتى يرى ويسمع. ورأى دانتى حشدًا من الزواحف الرهيبة التى لم يوجد مثيلٌ لها فى ليبيا ولا فى إثيوبيا ولا فى البلاد الواقعة على ساحل البحر الأحمر، وجرى بين الزواحف جماعة اللصوص وهم عراة، وقد كانت أياديهم مربوطة إلى الخلف بالزواحف ورأى كيف تلدغ زاحفة أحد المعذبين وكيف يحترق ويتحوّل إلى رماد ثم يعود إلى شكله السابق، وكان ذلك المعذب هو فانى فوتشى، أحد اللصوص فى بستويا فى عهد دانتى، تولى فوتشى الخجل

للحال التى كان عليها ولم يشأ أن يترك دانتى يتمتع بالمشهد الذى رآه فتنبأ له بالأحداث التى ستقع بين السود والبيض وكيف يزول السود من بستويا، وتجدد فلورنسا شعبها وقوانينها، وتنشب معركة بيتشينو التى ينتصر فيها السود على البيض.

١ ـ فى ذلك الجزء من العام الناشئ، عندما تعتدل أشعة الشمس فى بُرج الدلو، وتكون الليالى وقد ولَّت عند منتصف اليوم.

٤ ـ وحينما يرسم الصقيع فوق الأرض صورة صِنوه الأبيض، ولكن تبقى آثار ريشته قليلا.

٧ - ينهض الفلاح الذى أعوزه العشب، وينظر، فيرى الحقول قد ابيضّت كلها، فيضرب فخذيه.

١٠ - ويعود إلى البيت، ويأسى جيئةً وذهابًا، كبائس لا يدرى ما يفعل ثم يعود إلى الخروج ويسترجع الأمل،

١٣ - عندما يرى أن قد تغيرت فى برهة معالمُ الأرض، فيأخذ عصاه، ويسوق القطعان لترعى الكلأ.

١٦ - هكذا جعلنى أستاذى أيأس، حينما رأيتُ وجهه يضطرب على هذا النحو، وهكذا سرعان ما جاء للداء الدواء.

١٩ - لأننا حينما جئنا إلى الجسر المحطّم، اتجه إلىّ دليلى بذلك الوجه الرقيق، الذى رأيته من قبل عند سفح الجبل.

٢٢ - وفتح ذراعيه بعد أن اختار فى نفسه خطة، وقد فحص أوّلا الحُطام بعناية، ثم أمسك بى.

٢٥ - وكذلك الذى يعمل ويُقدر، ويبدو دائما أنه أوّلا يتدبر، هكذا ـ بينما كان يرفعنى إلى قمة صخرة



٢٨ - كبيرة ـ تطلع إلى صخرة أخرى، وهو يقول: «تعلق الآن فوق تلك
ولكن جرب أولا أتستطيع مثلها أن تحملك».

٣١ - لم يكن طريقًا لمن يرتدى عباءة، لأننا بمشقة، وهو خفيف وأنا
إلى أعلى مدفوع، استطعنا أن نصعد من صخرة إلى صخرة.

٣٤ - ولو لم يكن المرتقى فى هذا الشاطئ، أقصر منه فى الآخر ولا
أعلم عنه شيئًا، لكنتُ سأنهزم حتمًا.

٣٧ ـ ولكن لما كانت منطقة «الماليبولجى» تميل كلها نحو مدخل البئر
السفلى، كان وضع كل واد بحيث

٤٠ - يرتفع أحد شاطئيه ويهبط الآخر، ومع ذلك فقد وصلنا فى
النهاية فوق الحافة، حيث تبرز منها آخر صخرة.

٤٣ - كان نفسى فى الرئتين مجهداً، حينما أصبحت فوق، حتى لم أقو
بعد على الصعود، بل جلستُ عند أوّل وصولى.

٤٦ - قال أستاذى: «الآن ينبغى أن تُحرر نفسك من هذا الإعياء، فلن
ينال المجد بالجلوس على الريش ولا تحت الأغطية،

٤٩ - ومن ينفق حياته دون مجد، يترك من نفسه أثرًا فى الأرض،
كدخان فى الهواء، أو زبد فى الماء.

٥٢ - وإذًا فانهض! واقهر الإعياء بالنفس، التى تظفر فى كل معركة
إذا لم تنؤ تحت جسدها الثقيل.

٥٥ - علينا أن نصعد مرتقى أطول، ولا يكفى أنك رحلت عن هؤلاء
إذا كنت تفهمنى، فاعمل الآن بما يفيدك».

٥٨ ـ نهضتُ حينئذ، وقد بدوت بالهواء مزودًا بأفضل مما كنت أشعر
وقلت: «سرْ، فإنى قوى جرىء».

٦١ ـ وأخذنا فوق الجسر الطريق الذى كان وعرًا ضيقًا صعب المسلك، وأشدّ انحدارًا من الطريق الأول.

٦٤ ـ وبينما كنت أتكلم مضيتُ، حتى لا أبدو متهالكًا، وهنا خرج صوت من الخندق الآخر، غير صالح لتكوين كلمات.

٦٧ – لا أعلم ماذا قال، مع أنى كنت قد أصبحت فوق ظهر الجسر، الذى يعبر هنا، ولكن من تكلم بدا منفعلا بالغضب.

٧٠ – وكنت قد اتجهت إلى أسفل، ولكن العينين القويتين لم تستطيعا من الظلام أن تبلغا العمق، ولذلك قلت: «أستاذى، اعمل على أن تبلغ

٧٣ ـ الشاطئ الدائرى الآخر، ولنهبط عن هذا الحائط، لأنى كما أسمع هنا ولا أفهم، كذلك أنظر إلى أسفل ولا أتبين شيئا».

٧٦ ـ قال: «لا أعطيك ردًا غيره سوى الفعل، لأن المطلب العادل، ينبغى أن يتبعه العمل فى صمت».

٧٩ – نزلنا على الجسر عند الرأس، حيث يلتقى بالشاطئ الثامن، وعندئذ انكشف لى الوادى.

٨٢ – ورأيت هناك بداخله حشدًا مخيفًا من الأفاعى العجيبة الأنواع، حتى لايزال يهرب دمى لذكراها.

٨٥ ـ ألا لا تفخر ليبيا برمالها بعدُ: لأنها إذا كانت تُنتج دخّانات، وقفّازات، وحفّارات ورقطاوات، وأفاعين كذلك،

٨٨ – فإن مثل هذه الطواعين الكثيرة القاتلة، لم تظهر فيها أبدا، ولا فى إثيوبيا كلها ولا فى البلاد التى تقع على ساحل البحر الأحمر.

٩١ – وبين هذا الحشد البئيس القاسى، جرى قومٌ ملكهم الرعب، دون أمل فى مخرج أو طلسم.



9 ـ اللصوص والأفاعي

٩٤ - ربطت زواحفُ أيديهم إلى الوراء، وثبتت فوق أعجازهم الرأس والذنب، وتجمعت إلى الأمام فى عُقد.

٩٧ - ها هو ذا واحدٌ كان قريبًا إلى شاطئنا، وقد هاجمته زاحفةٌ ولدغته، حيث ترتبط الكتفان بالعنق.

١٠٠ ـ لم يُكتب أبدًا حرف «ا» أو «و» بسرعة هكذا، كما اشتعل هو واحترق، وكان عليه أن يتحول كله إلى رماد وهو يسقط،

١٠٣ - وبعد انحلاله هكذا فوق الأرض، تجمع الرماد من تلقاء نفسه، واسترجع توًا شكله الأول.

١٠٦ ـ وهكذا يؤكّد كبار الحكماء، أن العنقاء تموت ثم تولد من جديد، عندما تقترب من تمام الخمسمائة عام،

١٠٩ ـ ولا تتغذى فى حياتها بالعشب ولا الحب، ولكن بقطرات البان، والحمامى وحدها، والمرّ والناردين هما آخر لفائفها.

١١٢ ـ وكمن يهوى، ولا يعرف كيف هوى، بقوة شيطان يجذبه إلى الأرض، أو بتقلص آخر يقيد الإنسان،

١١٥ ـ وعندما ينهض ينظر حوله بإمعان، وقد زاغ بصره لفرط ما عاناه من ألم، ويتنهد وهو يبُصر.

١١٨ - هكذا كان ذلك المعذّب حينما نهض، أيتها القوّة الإلهية! كمّ أنت قاسية، إذْ تصبين انتقامك بمثل هذه الضربات!

١٢١ ـ ثم سأله دليلى من كان؟، فأجابه حينئذ: لقد سقطتُ من تُسكانا منذ عهد قريب، إلى هذه الهوة القاسية.

١٢٤ ـ ولمّا كانت لى صفات البغل، فقد لذّت لى حياة البهائم لا البشر، اننى المتوحش فانى فوتشى، وكانت بستويا جحرًا يناسبنى».

١٢٧ ـ فقلتُ لدليلى: «قُل له ألا يهرب، وسله أية خطيئة ألقت به هنا فى أسفل، فقد رأيته رجل دماء وغضب».

١٣٠ ـ لم يتظاهر ذلك الآثم بأنه لم يفهم ما سمعه، ولكنه اتجه نحوى بوجهه وفكره، وقد ارتسم عليه خجل حزين.

١٣٣ ـ ثم قال: «مفاجأتك لى فى البؤس حيث ترانى، تُؤلمنى أكثر مما أحسسته، حينما انتُزعت من الحياة الأخرى.

١٣٦ – ولا أستطيع أن أرفض ما تطلبه: لقد وُضعتُ طويلا فى أسفل، إذْ كنتُ لصا فى خزانة الكنيسة ذات الكنز الجميل،

١٣٩ – وكان غيرى قد اتهم باطلا، ولكن كيلا تتمتع بمثل هذا المشهد، إذا كنت ستصبح خارج الأماكن المظلمة أبدا،

١٤٢ ـ فافتح أذنيك لنبوءتى واستمع: ستخلو بستويا أولاً من السود، ثم تُجدد فيورنتزا شعبها والقوانين

١٤٥ ـ وسيأتى مارس من وادى ماجرا، بصاعقة مطوية فى سحب مضطربة، وبعاصفة هوجاء جامحة سيثير

١٤٨ ـ معركة فى أرض بيتشينو، وهنا سيشق الضباب فجأة، حتى ينال كل أبيض منها جراح.

١٥١ ـ قلت: لك هذا ليحق عليك الألم».

***

الأنشودة

25

اجترأ اللص فانى فوتشى على الله، فهاجمته الزواحف والتفت حوله حتى إنه لم يستطع حراكًا، وبذلك أصبحت الزواحف صديقة لدانتى لأنها صبّت على اللص الجزاء الذى يستحق وأعلن دانتى غضبه على بستويا لأنها أخرجت مثل هذا اللص المتغطرس، رأى دانتى كاكوس اللص المشهور فى الميتولوجيا اليونانية، الذى سكن بعض الوقت فى جبل أفنتينو، حيث قتله هرقل جزاء سرقة ثيرانه، والتف حول كاكوس أفاع تفوق ما وُجد فى ماريما وكان فوق كتفيه تنين يحرق كلّ من يلاقيه. رأى دانتى نبلاء فلورنسيين اشتهروا بأعمال السلب والنهب والاعتداء على الناس، وهم أنيليّو برونلسكى وبووزو دلّى أباتى وكاينفا دوناتى وفرنتشسكو كالفالكانتى وبوتشو تشانكاتو دى جاليجاى. وشهد كيف وثبت زاحفة على أنيليو والتفت حوله كالتفاف اللبلاب، وامتزجا معًا وتحولا إلى كائن مسيخ له وجه واحد واختفت فيه معالم الاثنين ثم رأى زاحفة تهاجم بووزو دلى أباتى وتلدغه فى سرته ووجد أن كلا منهما بدأ يتحول، الزاحفة إلى إنسان، والإنسان إلى زاحفة وحبددث هذا تدريجيًا وعلى توافق بالنسبة لكل الأعضاء، فتحول ذنب الزاحفة إلى قدمين، وقدما اللص إلى ذنب زاحفة، وتحوّل جلد الزاحفة إلى جلد إنسان، على حين أصبح جلد اللص

جلد زاحفة، واندمجت القدمان الخلفيتان عند الزاحفة ونشأ للص قدما زاحفة، ونبت الشعر على جانب ونُزع من الآخر، وتحوّل رأس الزاحفة إلى رأس إنسان وبالعكس، وتقدمت الزاحفة الجديدة وهى تُطلق صفيرها، بينما أخذ الإنسان الجديد يبصق وهو يتكلم. تولى دانتى لذلك بعض الاضطراب والقنوط.

١ ـ حينما انتهى اللص من كلامه، رفع كلتا يديه على هيئة التين صارخًا: «خذهما يارب، فإليك أوجههما!».

٤ – ومنذ ذلك اليوم كانت الزواحف صديقة لى، لأن إحداها التفت حينئذ حول عنقه، وكأنها تقول: «لاأريد أن تقول مزيداً».

٧ ـ وأحاطتْ أخرى بالذراعين، فضاعفت من قيده، وقد عقدت نفسها إلى الأمام، حتى لم يستطع أن يتحرك بهما.

١٠ ـ واها لك يا بستويا! يا بستويا، لم لا تُقررين أن تتحولى إلى رماد فلا يكون لكِ بقاء بعد، مادمت تسبقين نواتك فى ارتكاب الشر؟

١٣ ـ لم أر فى كل حلقات الجحيم المظلمة، روحًا متعالية على الله هكذا، ولا حتى من سقطت فى طيبة عن الأسوار.

١٦ – لقد ولى هاربًا دون أن ينبس بكلمة، ورأيت قنطروسًا، مليئا بالغضب يجىء صائحا: «أين هو، أين الوغد؟».

١٩ ـ لا أعتقد أن ماريما حازت من الأفاعى، بقدر ما كان منها فوق ظهره، إلى حيث يبدأ وجهنا الآدمى.

٢٢ – وعلى الكتفين وخلف الرأس استلقى تنينٌ مفتوح الجناحين يحرق كلّ من يلاقيه.

٢٥ – قال أستاذى: «هو ذا كاكوس الذى صنع مرات عديدة بحيرة دمٍ، تحت صخرة من جبل أفنتينو.

٢٨ – إنه لا يسير مع رفاقه فى طريق واحدٍ، لسرقة ماكرةٍ، فعلها بالقطيع الكبير الذى كان منه قريبا.

٣١ – ولذلك كف عن أعماله الشريرة، تحت هراوة هرقل، الذى ربما ناوله منها مائة، ولم يشعر بعشرة».

٣٤ – وبينما كان يتكلم هكذا، ومضى القنطروس إلى الأمام، جاء من تحتنا ثلاثة أشباح، لم أنتبه إليهم أنا ولا دليلى،

٣٧ – إلا عندما صاحوا: «من أنتما؟» فتوقف بذلك حديثنا، وأنصتنا بعد إليهم فحسبُ.

٤٠ – لم أعرفهم، ولكن حدث كما يحدث عادة فى بعض الأحيان، أن نطق واحدٌ باسم آخر.

٤٣ – وهو يقول: «أين وقف كاينفا؟» ولكى يقف دليلى منتبهًا، أقمتُ إصبعى حينئذ بين الذقن والأنف.

٤٧ ـ وإذا كنت الان، أيها القارئ متأخرًا عن تصديق ما سأقول، فلن يكون عجيبًا، لأنى أنا الذى رأيته، لا أكاد أجده مقبولا.

٤٩ – وبينما أبقيتُ أهدابى مرفوعةً إليهما، وثبتْ زاحفةٌ بست أقدامٍ أمام أحدهما، وعقدت نفسها على كلّ جسمه.

٥٢ – وأمسكت بطنه بقدميها الوُسطيين، وبالأماميتين قبضتْ الذراعين، ثم أنشبت أسنانها فى كلا الخدّين،

٥٥٨ – ومدّت الخلفيتين على الفخذين، ووضعتْ الذنب بين كلا الاثنين، ثم رفعته إلى الخلف على الكليتين.

٥٨ ـ لم يتعانق لبلابٌ وشجرةٌ أبدًا، كما لف الوحش الرهيب أعضاءه حول أعضاء الآخر.

٦١ ـ والتصقا بعد كما لو كانا من شمع ساخن، وامتزج لوناهما، فلم يبد هذا ولا ذاك على ما كان.

٦٤ – كما يمتدّ أمام النوار لونٌ داكنٌ على الورق، فلا يصير أسود بعدُ، ويختفى اللون الأبيض.

٦٧ – نظر الآخران إليه، وصاح كل منهما: «أوّاه يا أنيلّيو، كيف تتبدل! انظر، إنك لم تعد بعدُ الواحد ولا الاثنين».

٧٠ – كان الرأسان قد أصبحا واحدًا، حينما بدا لنا وجهان امتزجا فى وجه واحد، ضاعت فيه معالم الاثنين

٧٣ – وتكون ذراعان من الأطراف الأربعة، وتحول الفخذان والساقان والبطن والصدر إلى أعضاء لم يرها أحدٌ أبدًا.

٧٦ – اختفى فيهما كلّ شكل سابق: وبدا الوحش المسيخ اثنين، ولم يعد واحدًا منهما، وسار هكذا بطىء الخطو.

٧٩ ـ وكالعظاية، تحت وطأة القيظ فى أيام برج الكلب، إذْ تنتقل من عوسج لآخر، فتبدو كومض البرق إذا عبرت الطريق،

٨٢ – كذلك بدت زويحفة غاضبة، وهى تتقدم نحو بطنى الاثنين الآخرين وكانت سوداء داكنة كحبات الفلفل.

٨٥ – وفى ذلك الموضع الذى نستمد منه الغذاء لأول مرة، لدّغت واحدًا منهما، ثم سقطت ممددة أمامه إلى أسفل.

٨٨ ـ نظر الملدوغ إليها ولم يقل شيئًا، بل تثاءب ثابت القدمين، كمن هاجمه النعاس أو الحمى.

٩١ ـ نظر الزاحفة ونظرت إليه، وأخرجا دخانًا كثيفًا، واحدٌ من جرحه والأخرى من الفم، والتقى الدخان بالدخان

٩٤ ـ ألا فليسكت الان لوكانوس، إذ يتناول البائس سابيلّوس وناسيديوس، وليحرص على أن يسمع ما يُروى الآن.

٩٧ ـ وليسكت أوفيديوس عن كاد موس وأريتوزا، لأنه إذا كان وهو يقرض الشعر، يُحول ذلك إلى أفعى وهذه إلى ينبوع، فإنى لا أحسده.

١٠٠ ـ فإنه لم يحوّل أبدًا طبيعتين وجهًا لوجه، حتى كان كلا الشكلين مستعدًا أن يُبادل الآخر مادته.

١٠٣ – لقد استجابا معًا لمثل هذه الصورة، فشقت الزاحفة ذنبها إلى شوكتين، وضمّ الجريح قدميه معا.

١٠٦ ـ وتلاصق الساقان ومعهما الفخذان الواحد بالآخر، حتى إنه فى لحظات قصار، لم يترك الالتحام علامة بادية

١٠٩ ـ والذنب المشقوق أخذ الشكل، الذى فقده الآخر، وأصبح جلدُ هذه لينًا، على حين جف الجلد هناك.

١١٢ – رأيت الذراعين يدخلان عند الإبطين، وقدما الوحش، اللتان كانتا قصيرتين، رأيتهما تستطيلان بقدر قصر الذراعين.

١١٥ – ثم اندمجت القدمان الخلفيتان معا، وأصبحتا ذلك العضو الذى يُخفيه الرجل، وظهر البائس من عضوه قدمان.

١١٨ – وبينما كان الدخان يكسو كليهما بلون جديد، وينبت شعرًا على جانب، وينزعه من الجانب الآخر

١٢١ ـ نهض الواحد، وسقط الآخر إلى أسفل، ومع ذلك لم تتحول أبصارهما اللعينة، التى بدل كل منهما فمه أمامها.

١٢٤ – وذلك الذى انتصب قائما، جذب فمه نحو صدغيه، ومن المادة الكثيرة التى ذهبت هناك، خرجت الأذنان من الخدّين الأملسين:

١٢٧ – وما لم يذهب إلى الخلف وبقى من هذه الزيادة، جعل للوجه أنفًا، وتضخمت الشفتان إلى الحجم المناسب.

١٣٠ – وذلك الذى كان مستلقيا، يدفع فمه إلى الأمام، ويسحب الأذنين إلى الرأس، كما يفعل القوقع بالقرنين،

١٣٣ ـ واللسان الذى كان من قبل واحدًا ومستعدًا للكلام، ينقسم اثنين، وعند الآخر يعلق اللسان المشقوق، ثم ينقطع الدخان.

١٣٦ – والروح التى تحوّلت إلى وحش، تهرب إلى الوادى وهى تُطلق صفيرها، ويبصق الآخر من ورائه وهو يتكلم.

١٣٩ – ثم أدار له كتفيه الجديدتين، وقال للاخر: «أريد أن يجرى بوُوزو زحفًا فى هذا الطريق، كما فعلتُ أنا».

١٤٢ ـ هكذا رأيت أثقال الوادى السابع تتغير وتتبدّل، ولتكن غرابة المشهد هنا عذرًا لى، إذا طاش القلم قليلاً

١٤٥ ـ ومع أن عينى قد أصابهما بعض الاضطراب، وأصاب النفس القنوط، فلم يستطع هذان أن يهربا فى خفية مُحكمة.

١٤٨ ـ حتى تبينتُ جيدا بوتشو تشانكاتو، ومن بين الرفاق الثلاثة الذين جاءوا أولا، كان هو وحده الذى لم يتغير:

١٥١– وكان الآخر هو من تبكينه يا قلعة جافيلى

***

الأنشودة

26

وجّه دانتى كلمات الغضب والسخرية إلى وطنه، عندما أثارته رؤية بعض اللصوص من نبلاء فلورنسا، وقال إن فلورنسا لن تصعد بها سلم المجد، وإنه لابد من عقاب الآثمين، صعد دانتى فوق الصخور، ويعاونه فرجيليو، للوصول إلى الوادى التالى. وصف دانتى بعض مظاهر الريف الإيطالى، ووازن بين ذلك وما شهده من شعلات النار التى كانت تتسلل فى عنق الوادى الثامن، وقد أخفت بداخلها واحدًا من اللصوص. رأى دانتى شعلة تسير ولها قرنان، فاستفسر عنها، فأجابه فرجيليو بأنها تضم أوليسيس وديوميد من أبطال الميتولوجيا اليونانية. وألجف دانتى فى الرجاء لكى ينتظر حتى تأتى تلك الشعلة ذات القرنين، فقبل فرجيليو الرجاء وسأله أن يدع له الكلام. تحدث فرجيليو إلى الآثمين حديثًا رقيقا قال أوليسيس إن الروابط الأسرية لم تغلب شوقه إلى أن تزيد معرفته بالدنيا والبشر، وإنه خرج مع جماعة صغيرة فى سفنية واحدة، ورأى جزرًا غربى البحر الأبيض المتوسط، وشاطئ أوروبا حتى إسبانيا وشاطئ إفريقيا حتى مراكش، ووصل إلى ما بعد «بيلية وسبتة وهناك حفز رفاقه لمتابعة الرحلة فى المحيط المجهول، وقال لهم إنهم لم يُخلقوا لكى يعيشوا كالوحوش ولكن ليتبعوا الفضيلة والمعرفة، فساروا فى البحر متحفزين،

وجعلوا من مجاديفهم أجنحة، واجتازوا خطّ الاستواء، وبعد سير خمسة شهور رأوا جبلا شاهق الارتفاع، فتولاهم الفرح، ولكن سرعان ما انقلب إلى بكاء، لأنه هبت ريح عاتية دارت بسفينتهم وأغرقتها فابتلعهم اليم.

١ ـ انعمى يافيورنتزا ما دمت جدّ عظيمة، حتى لتضربين أجنحتك فوق البحر والبرّ، ويشيع اسمك فى الجحيم!

٤ ـ رأيت خمسة بين اللصوص من مواطنيك هؤلاء، الذين يجيئنى منهم العار، ولن تصعدى بهم إلى المجد العظيم.

٧ ـ ولكن إذا كان الإنسان يحلم بالصدق قبيل الصباح، فستشعرين فى وقت قليل بما ترجوه لك براتو، ولا أذكر غيرها.

١٠ ـ وإذا كان هذا قد وقع، فلم يكن قبل الأوان: هكذا حدث، مادام ينبغى حقا أن يكون! إذ سيزيد على الثقل كلما تقدّمت بى السنون.

١٣ - وهنا رحلنا، وفوق الدرجات التى صنعتها أضراس الصخر، لنهبط عليها أولا، عاد دليلى إلى الصعود وجذبنى إلى أعلى،

١٦ ـ وبينما نحن نتقدّم فى الطريق المنعزل، بين الصخور المدببة وصخور الجسر، لم تسر قدماى دون ارتكاز اليدين.

١٩ - حينئذ تألمتُ، وأنا أتألم الآن بعدُ، عندما أوجه فكرى إلى ما رأيت، وأشتدّ فى كبح نفسى بما ليس لى به عهد،

٢٢ - لكيلا تجرى دون نبراسٍ من فضيلة حتى إذا كان نجمٌ بعيدٌ أو ما هو أفضل قد منحنى الخير، فلن أحرم منه نفسى بنفسى.

٢٥ ـ عندما يستريح الفلاح فوق التل ـ فى الوقت الذى لا تُوارى وجهها عنا كثيرًا تلك التى تُضىء الدنيا.

٢٨ - وحينما يتنحىّ الذبابُ للبعوض - يرى الفلاح الحُباحب فى أسفل الوادى، هناك إذْ يمكن أن يجمع الكرم ويحرث الأرض -

٣١ - بمثل هذه الشعلات الكثيرة أضاء الوادى الثامن كله، كما تبينتُ سريعًا حينما كنتُ هناك حيث بدا لى القاع،

٣٤ - وكذلك الذى انتقم له برجا الدبّين، وقد أرى عربة إيليا عند الرحيل، حينما ارتفعتْ الجياد منتصبة إلى السماء،

٦٣٧ - ولم يستطع أن يُتابعها بعينه، حتى لم ير سوى شعلة النار وحدها، كسحابة صغيرة تصعد إلى أعلى؛

٤٠ - هكذا تحرّكت كل منها فى عنق الوادى، إذ تسلّلت كل شعلة منها بآثم، دون أن تكشف إحداها عن سرقتها.

٤٣ - وقفتُ فوق الجسر لكى أنظر أسفل؛ ولو لم أكن قد أمسكت بصخرة، لهويتُ إلى أسفل دون أن أدفع.

٤٦ - ودليلى الذى رآنى مأخوذًا هكذا، قال لى: «إن الأرواح بداخل النيران، وقد التف كل منها بما يحرقها».

٤٦ - فأجبته: «أستاذى، باستماعى إليك أزداد يقينًا، ولكن الأمر كان قد وضح لى على هذا النحو، وكنت أودّ أن أقول لك:

٥٢ - من ذا فى تلك النار التى تأتى منقسمة هكذا فى أعلى وتبدو أنها تندلع من الحطب، إذ وضع إتيوكليس مع أخيه؟»

٥٥ - فأجابنى: «هناك يُعذب فيها أوليسيس وديوميد، وهكذا يذهبان معًا إلى العقاب، كما أثارا معًا غضب الإله

٥٨ - وهما فى باطن شعلتهما يُعولان لخدعة الحصان، التى صنعت بابًا خرجت منه بذرة الرومان النبيلة.

٦١ - ويبكيان بداخلها على حيلة، لا تزال ديداميا وهى ميتةٌ، تحزن
بسببها من أخيل، وينالان هناك العقرب من أجل بالاديوم».

٦٤ ـ فقلتُ: «إذا استطاعا الكلام وسط هذه النيران، فإنى أرجوك
ملحًا يا أستاذى، وأرجو ثانية أن يعدل الرجاء ألفًا،

٦٧ ـ ألا تمنعنى من الانتظار، حتى تأتى هنا الشعلة ذات القرنين: إنك
ترى كيف أندفع إليها برغبة جامحة!»

٧٠ - قال لى: «إن ضراعتك جديرةٌ بالثناء الوافر، ولذلك فإنى أقبلها
ولكن احرص على أن تمسك لسانك

٧٣ ـ دع لى الكلام، فإنى أدركت ما تريد، وربما احتقرا حديثك إذ كانا
من الإغريق».

٧٦ ـ وبعد أن جاءت الشعلة هنا، حيث بدا الوقت والمكان سانحًا
لدليلى، سمعته يتكلم بهذا الأسلوب.

٧٩ - «أيها الاثنان فى بطن نار واحدة، إذا كنتُ أستحق منكما وقد
كنتُ حيًا، إذا كنتُ أستحق منكما كثيرا أو قليلا.

٨٢ - حينما كتبتُ فى الدنيا أشعارى الرفيعة، فلا تُبديا حراكًا، ولكن
فليقل لى أحدكما، أين ذهب ليموت حينما فقد نفسه».

٨٥ ـ بدأ يهتز القرنُ الأكبر فى الشعلة القديمة، وهو يدوى مثل تلك
التى تُرهقها الريح.

٨٨ - وبينما هو يحرّك طرفه من ناحية لأخرى، كأنه اللسان الذى
يتكلم، أطلق صوته وقال: «حينما

٩١ ـ رحلتُ عن تشيرتشى، التى احتجزتنى أكثر من عام هناك بقرب
جاييتا، قبل أن يسميها كذلك إينياس.

٩٤ ـ لم يكن شغفى بابنى، ولا العطف على أبى الشيخ، ولا الحب الواجب الذى كان ينبغى أن يجعل بنيلوب سعيدة ـ

٩٧ – لم يكن ـ بمستطيع أن يغلب فى نفسى الحماسة التى كانت لدىّ، لكى أصبح خبيرًا بالدنيا، وبمساوئ البشر وفضائلهم.

١٠٠ – ولكنى وضعتُ نفسى على البحر، العميق المفتوح، فى سفينة واحدة، مع تلك الجماعة القليلة التى لم تتخلّ عنى.

١٠٣ ـ رأيتُ هذا الشاطئ وذاك، حتى إسبانيا، وحتى مراكش، وجزيرة السردينيين، والجزر الأخرى، التى يغسل ما حولها ذلك البحر.

١٠٦ ـ كنتُ ورفاقى شيوخا بطاء، حينما بلغنا ذلك الممر الضيق حيث اتخذ هرقل علامتيه

١٠٩ ـ كى لا يسير الإنسان قدمًا: وتركتُ إلى اليمين إشبيلية، وفى الجانب الآخر كنت قد خلفتُ سبتة.

١١٢ ـ قلتُ: «أيها الإخوان الذين وصلتم إلى الغرب، خلال مائة ألف من المخاطر إنكم لن تريدوا فى هذه اللحظة القصيرة

١١٥ – من يقظة الحواسّ المتبقية لنا، منع اختبارنا العالم الخالى من البشر، فيما وراء الشمس.

١٨ ـ ارعوا أصلكم، إنكم لم تخلقوا لتعيشوا كالوحوش، ولكن لتبتغوا الفضل والمعرفة».

١٢١ – بهذا الحديث القصير، جعلتُ رفاقى متحفزين للرحلة هكذا، حتى كاد يتعذر علىّ أن أكبح جماحهم.

١٢٤ ـ وحينما أدرنا مؤخر السفينة فى الصباح، جعلنا من المجاديف أجنحة، فى هذا الطيران المجنون، ونحن نسير إلى اليسار دوامًا.

١٢٧ ـ كلّ النجوم فى القطب الآخر كان الليل قد رآها، وازداد نجمنا هبوطا، حتى لم يعد يظهر فوق سطح البحر.

١٣٠ ـ أضاء النور خمس مرّات وأظلم مثلها، فى أسفل القمر، منذ أن دخلنا الرحلة الصعبة.

١٣٣ حينما لاح لنا جبلٌ داكنٌ على البعد، وبدا لى شاهق الارتفاع، إلى حد لم أر له مثيلاً،

١٣٦ ـ داخلنا الفرح، وسرعان ما انقلب إلى بكاء، إذ هبت عاصفةٌ من الأرض الجديدة، وضربت مقدم السفينة.

١٣٩ ـ فجعلته يدور ثلاث مرّات مع المياه كلها: وفى الرابع رفعتْ مؤخرها إلى أعلى، وهبطتْ بالمقدمة إلى أسفل، كما راق للغير،

١٤٢ ـ حتى انسدّ من فوقنا البحر».

***

الأنشودة

27

ابتعدت شعلة النار التى احتوت روح أوليس، وظهرت شعلة أخرى خرج منها صوت غريب، يشبه صوت بيريلّوس داخل الثور النحاسى فى الميتولوجيا اليونانية وبعد قليل سمع دانتى صوتًا من شعلة النار يعبر عن رغبة صاحبه فى التحدث إلى من سمع كلامه اللمباردى. تساءل صاحب الصوت عن أحوال رومانيا، وهل تعيش فى حرب أم سلام. دعا فرجيليو دانتى إلى إجابة ذلك المعذب، فقال دانتى إن قلوب طغاة رومانيا لم تخل أبدًا من الحرب، ولو أنه لم يتركها فى قتال سافر. وقال له إن رافنا تحت حكم آل بولنتا، وفورلى تحت حكم آل أورديلافى، وإن المالاتستيين ينهشان مونتانيا دى بارتشيتانى، وماجيناردوا دا سوزينانا يحكم فاينتزا وإيمولا. لم يعرف ذلك المعذب أن دانتى إنسان حى، ولذلك أعلن استعداده للإفصاح عن شخصه دون أن يخشى سوء الأحدوثة فى الدنيا قال المعذب جويدوا دا مونتفلترو إنه كان من رجال الحرب ثم أصبح من الرهبان الكرديليين، ولكن القسيس الأعظم بونيفاتشو الثامن أعاده إلى سابق آثامه كان جويدو يقوم بأعمال الثعالب واتخذ الحيل والخداع لبلوغ مآربه، وأراد التوبة، ولكن بونيفاتشو بحث عنه ودعاه كطبيب لكى يخلصه من حمى كبريائه سأله الرأى فيما يفعل لكى يهدم قلعة بينسترينو ومنحه

الغفران مقدمًا، فأشار عليه جويدو بأن يبذل الوعود العريضة مع الوفاء بالقليل منها. وهكذا لم تنفع جويدو التوبة لأنه لا يمكن الجمع بينها والرغبة فى الإثم. وهبط إلى مينوس الذى أرسله إلى هذا الموضع من الجحيم لكى يلقى جزاءه الحق، ثم تحركت شعلة النار وهى تتألم وتتمايل وتهز قرنها المدبب وسار فرجيليو ودانتى لبلوغ الخندق التاسع.

١ ـ كانت الشعلة عندئذ منتصبة إلى أعلى وهادئة، إذ لم تتكلم مزيدًا وكانت قد ابتعدت عنا بالإذن من الشاعر الحبيب.

٤ – حينما جعلت أخرى، وقد جاءت من ورائها، عيوننا تتجه إلى طرفها بالصوت المضطرب الذى خرج منها.

٧ – وكالثور الصقلى، الذى أرسل خواره أولا، فى عويل ذلك الذى سوّاه بمبرده، وكان ذلك من العدل.

١٠ ـ واستمر يخور بصوت المعذب، ومع أنه كان ثورًا مصنوعًا من نحاسٍ، فقد بدا بالألم مطعونًا.

١٢ ـ هكذا عندما لم تجد الكلمات الحزينة، من البدء، طريقًا فى النار ولا مخرجًا، تحولت إلى حسيس النار.

١٦ ـ ولكن بعد أن وجدت الكلمات طريقها إلى أعلى فى طرف الشعلة، وهى تسبب لها تلك الهزات، التى تحدث للسان عند مرورها.

١٩ – سمعناها تقول: «أنت يا من أوجه إلى صورتى، وقد تكلم بلهجة لمبارديا وهو يقول: «والآن اذهب، فلست أطلب منك مزيداً»

٢٢ ـ إنى وإن كنت ربما تأخرت قليلاً، فلاسؤك البقاء للتحدث معى: فإنك ترى أنى غير مستاء وأنا أحترق!

٢٥ ـ إذا كنت قد هبطت الآن توا، إلى هذا العالم الأعمى من تلك الأرض اللاتينية العزيزة التى حملت منها كل خطيئتى.

٢٨ ـ فقل لى أهل رومانيا فى حرب أم سلام، إذْ كنت من الجبال الواقعة هناك، بين أوربينو والقمة التى ينبع منها التيبر».

٣١ ـ وكنت لاأزال منتبهًا إلى أسفل ومنحنيًا، عندما لمس دليلى عِطفى، وهو يقول: «تكلم أنت، فهذا من اللاتين».

٣٤ ـ وأنا الذى كنت حاضر الجواب، بدأت الكلام دون إبطاء: «أيتها النفس المختفية هناك فى أسفل،

٣٧ – إن وطنك رومانيا، ليس الآن ولم يكن أبدًا دون حرب فى قلوب طغاته، بيد أنى لم أتركه الآن فى قتال سافر.

٤٠ – ورافنا قائمةٌ كما كانت منذ سنوات كثيرة: ويجثم فوقها نسر بولنتا، بحيث يغطى تشيرفيا بجناحيه.

٤٣ ـ والمدينة التى قاست قبلُ تجربة طويلة، وجعلت من الفرنسيين أكداسًا دامية، تجد نفسها بعدُ تحت المخالب الخضراء.

٤٦ ـ ودِرواسا فيروكيو: العجوز والشاب، اللذان وضعا مونتانيا فى حالٍ سيئة، هناك حيث اعتادا يجعلان من الأسنان مثقبًا.

٤٩ ـ ويحكم مدينتى لامونى وسانتيرنو، الشبل ذو العرين الأبيض، الذى يغيّر حزبه من الصيف إلى الشتاء.

٥٢ ـ وتلك المدينة التى يبلّل جانبها السافيو، كما هى تقع بين السهل والجبل، كذلك تعيش بين الطغيان والحرية.

٥٥ ـ والآن أرجو أن تخبرنا من أنت: ولا تكن أقسى مما كان عليه غيرك، وليحفظ اسمك فى الأرض صداه».

٥٨ ـ وبعد أن زمجرت النار على أسلوبها قليلاً، خفق طرفها المدّبب من ناحية لأخرى ثم أرسلت هذه الأنفاس:

٦١ - «لو أنى اعتقدت أن إجابتى كانت لشخص سيعود إلى الدنيا أبدًا، لبقيت هذه الشعلة دون أن تحرك ساكنا.

٦٤ - ولكن لمّا لم يكن قد رجع أبدًا من هذا العمق إنسان حىّ، إذا صح ما أسمع، فإنى أجيبك دون أن أخشى سوء السمعة.

٦٧ - كنت من رجال الحرب، ثم أصبحت راهبًا كرديليًا، معتقدًا أنى أكفر عن خطيئتى وقد تمنطقت هكذا، ومن المؤكد أن اعتقادى كان سيتحقق.

٧٠ ـ لولا القسيس الأعظم، فليُصبه الشرّ! فهو الذى أعادنى إلى آثامى الأولى، وأرجو أن تسمع منى كيف ولماذا

٧٣ ـ بينما كنت صورة من عظم ولحم، كما منحتنى إياها أمى، لم تكن أعمالى أعمال أسدٍ، بل ثعلب.

٧٦ ـ كل الحيل والطرق الخفية عرفتُ، وهكذا استخدمت فنونها، حتى خرج صداها إلى أطراف الأرض.

٧٩ ـ وحينما رأيت أنى بلغت تلك الفترة من عمرى، التى ينبغى على كل إنسان أن يخفض فيها أشرعته ويجمع حباله.

٨٢ - وأن ما كان من قبل يسرنى أصبح حينئذ يحزننى، جعلت نفسى راهبًا وأنا نادمٌ بالإثم، ويا بؤسًا لى! كان ينبغى أن ينفعنى هذا!.

٨٥ ـ إن أمير الفرّيسيين الجدد ـ وقد أعلن الحرب على مقربةٍ من لاتيرانو لا على العرب ولا على اليهود،

٨٨ – لأن كل عدوٍّ له كان مسيحيًا، ولم يذهب أحدهم لفتح عكا، ولم يتّجر فى بلاد السلطان.

٩١ – إنه لم يُراع فى شخصه المركز الرفيع، والنظم المقدسة، ولا فى شخصى ذلك الحبل، الذى اعتاد أن يجعل من تمنطقوا به أنحف جسمًا.

٩٤ ـ ولكن كما بحث قسطنطين عن سلفسترو فى داخل جبل سيراتّى، ليشفيه من البرص، كذلك دعانى هذا طبيبًا.

٩٧ ـ لكى أشفيه من حمّى كبريائه: وسألنى الرأى فلزمت الصمت، لأن كلماته بدت لى سكرى.

١٠٠– ثم استأنف القول: «لا يأخذن قلبك الشك، إنى أخلّصك من الآن، ولتعلمنى ماذا أفعل لكى ألقى ببينسترينو إلى الأرض.

١٠٢ ـ إننى مستطيع أن افتح السماء وأغلقها، ولذلك فالمفتاحان اللذان لم يكونا عزيزين لدى سلفى هما اثنان.

١٠٦ ـ وحينئذ دفعتنى الكلمات الخطيرة إلى حيث بدا لى أن الصمت أسوأ، فقلت: «أبتاه» مادمت تُطهرّنى

١٠٩ ـ من تلك الخطيئة، التى على الآن أن أقع فيها، فإن الوعد العريض مع الوفاء القليل، سيجعلك مظفرًا فوق الكرسى الرفيع.

١١٢ ـ ثم جاءنى القديس فرنتشيسكو عند موتى، ولكن قال له أحد الشياطين السود: «لاتأخذه: ولا ترتكب معى خطأ.

١١٥ ـ إنه ينبغى أن يهبط إلى أسفل بين مساكينى، لأنه بذل خادع الرأى، ومنذ ذلك الوقت وأنا ممسكٌ به من شعره،

١١٨ ـ لأنه لا يمكن غفران ذنوب من لا يندم، ولا الجمع بين التوبة وإرادة الشرّ، للتعارض الذى لا يبيح ذلك»

١٢١ ـ وابؤسًا لى! كيف تولانى الرعب، حينما أمسك بى وهو يقول: «ربما لم تفكر أنى كنت من أهل المنطق!».

١٢٤ ـ ثم حملنى إلى مينوس، ولفف ذنبه ثمانى مراتٍ حول ظهره المتصلب، وبعد أن عضه وهو فى شدة الغضب

١٢٧ ـ قال: «هذا من الآثمين فى النار السارقة»، ولذلك فإنى مفقود حيث ترانى وفى هذا الرّداء أتألّم وأنا أسير».

١٣٠ ـ وحينما أنهى كلامه هكذا، ارتحلتْ شعلة النار وهى تتألّم، وتتمايل وتهزّ قرنها المدبب.

١٣٣ ـ مضينا إلى الأمام أنا ودليل، فوق الصخر إلى أعلى حتى الجسر الآخر، الذى يغطّى خندقًا يؤدى فيه الحساب،

١٣٦ ـ لأولئك الذين يزرعون الفتن فيحصدون الأوزار.

***



الأنشودة

28

يعلن دانتى عجزه عن وصف ما شهده من الدماء والجروح فى الوادى التاسع الرهيب، الذى يفوق مظهره كل ما شهدته أرض أبوليا وضحايا حرب طروادة من الجرحى والقتلى ورأى معذبًا مقطوع الحنجرة والأنف وبأذن واحدة جزاء ما أثاره من الشقاق فى رومانيا، وكان هو بيير دى مديتشينا، الذى تنبأ لدانتى بما سيرتكبه مالاتستينو حاكم ريمينى من الغدر بخصومه، وسيجعلهم يأتون للتفاوض معه، ثم يغرقهم فى البحر، بحيث لن يصبحوا أمام ريح فوكارا فى حاجة إلى ضراعة أو قسم، ورأى دانتى أيضا كورويون مقطوع اللسان، لأنه كان سببًا فى قيام الحرب الأهلية فى عهد قيصر وشهد موسكا دى لامبرتى مقطوع اليدين، وقد حمل رأسه المقطوع فى يده كأنه مصباح يتدلى وكان هو برتران دى بورن شاعر التروبادور، الذى أوقع بين هنرى ملك إنجلترا وابنه الشاب.

١ - من ذا يستطيع أبدًا ولو بمنثور الكلام، وكثرة تكرار القول، أن يشبع الحديث عن الدم والجروح التى رأيتها الآن؟

٤ - حقا إن كل لسان سيناله الإخفاق، أن عقولنا وألفاظنا تعوزها الكفاية لإدراك هذا كله.



٧ ـ وإذا اجتمع بعد كل الناس، الذين كانوا قد بكوا دماءهم، فوق أرض أبوليا المشؤومة،

١٠ - بسبب الطرواديين والحرب الطويلة، التى جعلت من خواتم الذهب، غنائم عظيمة ـ كما يكتب ليفيوس الذى لا يخطئ -

١٢ ـ إذا اجتمعوا مع أولئك الذين أحسوا بآلام الطعنات، وهم يقاومون روبرتو جويسكاردو، والآخرين الذين لا تزال عظامهم تُجمع

١٦ ـ فى أرض تشيبيرانو، حيث كان كلّ مواطن أبوليا كاذبًا، وهناك فى تاليا كرتزو، حيث انتصر دون سلاح الاردو العجوز.

١٩ ـ وإذا أظهر أحدهم عضوه الجريح، وكشف آخر عن عضوه المقطوع، فلن يساوى هذا شيئًا إلى مظهر الوادى التاسع الرهيب.

٢٢ ـ ومعذّب، وقد كان مجروح الحلق، مقطوع الأنف حتى أسفل الحاجبين، ولم تكن له سوى أذن واحدة،

٢٥ ـ وقف مع الآخرين ينظر إلىّ فى عجب، وفتح قبل غيره قصبة الهواء، التى كان كل جزء فيها أحمر اللون من الخارج،

٢٨ ـ وقال: «أنت يا من لاتصمه خطيئةٌ، ومن رأيته فوق فى أرض اللاتين، إذا لم يخدعنى فرط التشابه،

٣١ ـ فلتذكر بيير ذا مديتشينا، إذا كنت ستعود يومًا لرؤية الوادى الجميل، الذى ينحدر من فيرتشيلى إلى ماركابو،

٣٤ - وعرف أفضل اثنين فى مدينة فانو: السيد جويدو وأنجوليلّو كذلك، بأنه إذا لم يكن تنبّؤنا هنا باطلاً،

٣٧ - فسيقذف بهما خارج سفينتهما، وسيغرقان بالقرب من كاتّوليكا بخيانة طاغية خبيث.

٤٠ - بين جزيرتى قبرص وميورقة، لم يشهد نبتون أبدًا جريمة نكراء مثلها، لا من القراصنة ولا من أهل أرجو.

٤٣ - وذلك الخائن، الذى لايرى سوى بعين واحدة، ويحكم المدينة التى يودّ معذب معى هنا، أن لم يكن قد رآها أبدًا،

٤٦ - سيجعلهم يأتون للتفاوض معه، وسيعمل بعد على أن يكونوا أمام ريح فوكارا فى غير حاجة إلى قسم أو ضراعة».

٤٩ - فقلت له: «إذا أردت أن أحمل أنباءك إلى أعلى، فأرنى وفسر لى من ذاك صاحب النظرة المريرة».

٥٢ - عندئذ وضع يده على فك أحد رفاقه، وفتح له فمه، وهو يصيح: «إن هذا صامت لا يتكلم

٥٥ - قضى هذا المنبوذ على شكوك قيصر، وهو يؤكد أن من أعد العدة لا يناله من الانتظار دائما سوى الخسران».

٥٨ - أواه، كم بدا لى كوريون خائر النفس، بلسانه المقطوع فى حلقه، وقد كان فى قوله شديد الجرأة!

٦١ - وأحدهم، وكانت كلتا يديه مقطوعة، بينما هو يرفع ساعديه فى الهواء المظلم، حتى لوث الدم وجهه،

٦٤ - صاح قائلا: «ألا فلتذكر موسكا كذلك، الذى قال واأسفاه «إن ما وقع قد وقع»، وكان بذلك أصل الفساد لشعب تسكانا».

٦٧ - وأضفت إليه: «والموت لعشيرتك» ولذلك سار كإنسان بائس مجنون، وهو يجمع ألمًا إلى ألم.

٧٠ - ولكنى بقيت لكى أنظر إلى الجماعة، فرأيت مشهدًا كان من شأنه أن يخيفنى، عند مجرد ذكره، ودون مزيد من تجربة،

٧٣ ـ لولا الضمير الذى يجعلنى مطمئنا، ذلك الرفيق الطيب الذى يشدّ أزر الرّجل، تحت درعٍ من إحساسه بالطهر

٧٦ ـ رأيت حقًا، ويبدو لى أنى لا أزال أرى، جذعًا بغير رأس، يذهب كما ذهب الآخرون فى هذا القطيع البائس.

٧٩ ـ وأمسك الرأس المقطوع من الشعر، وقد تعلق فى يده على صورة مصباح، وذلك نظر إلينا وقال: «واهًا لى!».

٨٢ ـ ومن نفسه جعل لنفسه مصباحًا، وكانا اثنين فى واحد، وواحدًا فى اثنين: وكيف يمكن هذا، يعرف ذاك من يحكم هكذا.

٨٥ ـ وحينما أصبح عند أسفل الجسر، رفع ذراعه عاليًا بكل رأسه، لكى يقرب إلينا كلماته،

٨٨ ـ التى كانت: «الآن انظر إلى العذاب الأليم، يا من تسير لكى ترى الموتى وأنت تتنفس: انظر أهناك لهذا العذاب الشديد مثيل!.

٩١ ـ ولكى تحمل الأنباء عنى، اعرف أنى برتران دى بورن، ذلك الذى بذل الآراء الشريرة للملك الشاب.

٩٤ - لقد جعلت الأب والابن يثور أحدهما على الآخر: ولم يفعل يخيتوفيل بأبشالوم وداود، أكثر من هذا بتحريضه الخبيث.

٩٧ ـ أما وقد فرقتُ بين قومٍ متحدين هكذا، فإنى واأسفاه أحمل مخى المفصول عن أصله، الذى هو فى هذا الجذع!

١٠٠- وهكذا يُلاحظ القصاص فى شخصى».

***

الأنشودة

29

اغرورقت عينا دانتى بالدمع حزنًا على الهالكين فى الأنشودة السابقة حتى آثر البقاء للبكاء عليهم، وحاول فرجيليو أن يهدئ من روعه ويحمله على متابعة السير لطول الطريق، وقد تأخر الوقت وعليه أن يرى أشياء أخرى كثيرة دانتى يبرر ذكاءه ورغبته فى التوقف بأنه شهد روحًا من دمه تبكى خطيئتها، وكانت روح جيرى دل بلّو، وهو من أقربائه الذين أثاروا الدسائس، وأحس دانتى بالعطف عليه، أنه قتل دون أن ينتقم أحد لمقتله وتقدم الشاعران، فأصابت دانتى صرخات عجيبة كأنها سهام والأسى حديدها، فغطى بالكفين وقال إن مرضى الصيف فى وادى كيانا وماريما وسردينيا لم يزد عذابهم عما شهده فى الوادى العاشر من الحلقة الثامنة كان هؤلاء هم مزيفى المعادن بالسيمياء والسحر، ورآهم دانتى فى أوضاع مختلفة، فاستلقى هذا على بطنه وزحف بعضهم على أربعة، وأصابهم الجرب والبرص والشلل، جزاء ما ارتكبوا من غش وخداع، ورأى اثنين متساندين وهما يحكان بعنف قروحهما الأليمة. حادثهما فرجيليو وسأل أحدهما هل يوجد هنا واحد من اللاتين، فاعترفا بأنهما منهم، وقال فرجيليو إنه جاء لكى يقود إنسانًا حيا من هاوية لأخرى لكى يظهره على الجحيم فتولاهما وسائر المعذبين الدهشة والرهبة وسألهما دانتى عن

شخصيهما كان أحدهما جريفولينو داريتزو، وكان الآخر كابوكيو دا سينيا وقد أحرقا لمارستهما أعمال السحر والكيمياء. انتهز دانتى هذه الفرصة فتكلم فى تهكم وسخرية عن شعب سيينا الذى اشتهر بالبذخ والزهو والخيلاء

١ ـ الحشد الكبير والجروح العجيبة، بللت عينى كثيرًا، حتى أصبحتا راغبتين فى البقاء لكى تبكيا.

٤ – ولكن فرجيليو قال لى: «ما هذا الذى تنظر؟ لماذا يبقى بصرك محملقًا هناك فى أسفل، بين الأشباح البائسة الممزقة؟

٧ ـ إنك لم تفعل كذلك فى الأودية الأخرى: واعلم، إذا فكرت أن تحصيها، أن الوادى يدور اثنين وعشرين ميلا.

١٠– وها قد أصبح القمر تحت أقدامنا: وقليل الآن ما مُنحناه من الوقت، وعليك أن ترى أشياء أخرى لم ترها بعد».

١٣ ـ عندئذ أجبته: «إذا فهمت السبب الذى نظرتُ من أجله، فربما كنت منحتنى من البقاء مزيدًا».

١٦ – وبينما كان دليلى يسير، ومضيت أنا من ورائه، كنت أقدم له الجواب، وأضيف: «بداخل ذلك الكهف،

١٩ – الذى أنعمت الان فيه النظر هكذا، أعتقد أن روحًا من دمى تبكى خطيئة، تكلفها كثيرًا هناك فى أسفل».

٢٢ ـ حينئذ قال أستاذى: «لا تُجهد فكرك؛ من الآن بشأنه: وانتبه إلى شىء غيره، وليظل هو باقيًا هناك،

٢٥ – فإنى قد رأيته عند أسفل الجسر الصغير، وهو يشير إليك ويتهددك فى عنف بإصبعه، وسمعت من يسميه جيرى دل بلّو.

٢٨ ـ وقد كنت وقتئذ مشغول الخاطر تماما، بمن حكم القلعة العالية، حتى إنك لم تنظر هناك، وهكذا ارتحل».

٣١ ـ فقلت: «يا دليلى، إن موته القاسى، الذى لم ينتقم له بعد أحد ممن كان فى العار رفيقه،

٣٤ ـ جعله يشعر بالخزى، ولذلك ذهب دون أن يكلمنى، كما أظن: وبهذا جعلنى أزداد عليه إشفاقا»

٣٧ ـ هكذا تحدثنا حتى أول موضع، يظهر فيه الوادى التالى إلى قاعه من الجسر إذا ازداد فيه الضياء.

٤٠ – وحينما أصبحنا فوق آخر ديرٍ، فى «الماليبولجى» حتى أمكن أن يبدو لأنظارنا رجاله،

٤٣ – رمتنى صرخاتٌ عجيبةٌ بسهام كان الأسى حديدها، وعندئذ غطيت الأذنين بالكفين.

٤٦ – وكالألم الذى يوجد إذا أمست الأمراض بين يوليو وسبتمبر ـ فى مارستانات وادى كيانا، وفى ماريما وسردينيا ـ

٤٩ ـ مجتمعة كلها معًا فى خندق واحد، كان الأمر هناك كذلك، وخرجت منه ريح «كريهة» كالتى اعتادت أن تنبعث من الأعضاء العفنة.

٥٢ ـ ونزلنا فوق آخر شاطئ من الجسر الطويل، إلى اليسار دوامًا، وحينئذ صار نظرى أشد قوة،

٥٥ ـ صوب القاع فى أسفل، حيث العدالة المنزهة، يد السيد الأعلى، تعاقب المزيفين الذين تسجلهم ها هنا.

٥٨ - لا أعتقد أنه هناك بؤسٌ أشدّ ـ حينما أرى فى إيجينا كل الشعب صريع المرض، وقد امتلأ الهواء هكذا بالوخم.

٦١ ـ حيث سقط كلّ حيوان إلى صغار الدود، وبغدُ، كما يؤكد الشعراء، بُعث الأقدمون إلى الحياة

٦٤- من بيض النمل ـ ممّا كان علىّ أن أراه فى ذلك الوادى المظلم، من أرواحٍ تتعذب فى أكوام عجيبة،

٦٧ ـ استلقى هذا فوق بطنه، واستند ذاك بكتفيه إلى الآخر، وزحف بعضٌ على أربعة فى الطريق الرهيب.

٧٠ - سرنا خطوةً خطوةً دون كلام، ونحن ننظر ونُصغى إلى المرضى، الذين لم يقووا على رفع أجسادهم

٧٣ ـ ورأيت اثنين جالسين، مستندًا أحدهما إلى الآخر، كما يُسند وعاء إلى وعاء للتسخين، وترقش جسداهما بالقشور من الرأس إلى القدم .

٧٦ ـ لم أر أبدًا سرجًا يحمله فتى، وسيده فى انتظاره، ولا من يبقى يقظان وهو غير راغب.

٧٩ - كما انهال كل منهما على نفسه بعض الأظافر، لما تولاهما من حرقة الأكلان، ولم يكن لهما من عون سواه،

٨٢ - هكذا أسقطت أظفارها القشر، كما تفعل السكين بزعانف الشلبة، أو بأسماك أخرى ذات زعانف أكبر.

٨٥ ـ بدأ دليلى يخاطب أحدهما: «أنت يا من تنزع قشورك بالأصابع، وتجعل منها كلبتين أحيانا.

٨٨ ـ قل لنا أيوجد لاتينىٌ بين هؤلاء الذين هم هنا فى الداخل، ألا فلتكفك الأظفار إلى الأبد فى هذا العمل».

٩١ ـ فأجاب أحدهما وهو يبكى: «إننا من اللاتين، يا من ترانا نحن الاثنين مشوهين هنا هكذا، ولكن من أنت يا من تستفسر عنا؟»

٩٤ – قال دليلى: «إننى روح أهبط مع هذا الإنسان الحى، من إفريز إلى إفريز وقصدى أن أظهره على الجحيم».

٩٧ – حينئذ انفصل المسند المزودج، واتجه كل منهما نحوى وهو خائف، ومعهما آخرون، سمعوه برجع الصدى.

١٠٠ ـ واتجه إلى الأستاذ الطيب بكليته، وهو يقول: «قل لهما ما تريد»، فبدأت الكلام وفقًا لما رغب:

١٠٣ – «ألا لاتزولنّ ذكراكما فى العالم الأول من عقول البشر، ولكن لكى تعيشا تحت شموس كثيرة

١٠٦ – خبرانى من أنتما ومن أى قوم: لا تدعا منظركما المشوه وعذابكما الأليم يخيفكما فلا تفصحان لى عن شخصيكما».

١٠٩ ـ فأجاب أحدهما: «قد كنت من أريتزو، ووضعنى ألبرتو دا سينيا فى النار، ولكن ما مت من أجله لا يأتى بى هنا.

١١٢ ـ وفى الحق أنى قلت له مازحًا: «إنى عارفٌ كيف أرفع نفسى فى الهواء طائرًا، وذاك الذى كان ذا فضول وفهم قليل،

١١٥ ـ أرادنى أن أظهره على هذا الفن ولمجرد أنى لم أصنع منه ديدالوس، جعل من كان له ابنا يحرقنى بالنار.

١١٨ – ولكن إلى آخر خندق من العشرة، ومن أجل الكيمياء، التى مارستها فى الدنيا، قضى بإرسالى مينوس، الذى ليس له أن يخطئ.

١٢١ ـ فقلت للشاعر: «هل وُجد أبدًا قوم مزهوون هكذا كشعب سيينا؟ فى الحق لم يبلغ الفرنسيون ذلك الشأو!».

١٢٤ ـ حينئذ أجاب قولى الأبرص الآخر الذى سمعنى: «فيما عدا استريكا الذى عرف كيف يعتدل فى النفقات.

١٢٧ ـ ونيقولا، الذى كشف أولا عادة القرنفل الباهظة الثمن، فى الحديقة، حيث تتخذ جذورها مثل هذه الحبات،

١٣٠ ـ وفيما سوى الجماعة التى أضاع كاتشا دا شانو من أجلها الكرم والغابة الكبيرة، وأظهر الأبالياتو ذكاءه.

١٣٣ ـ ولكن كى تعرف من الذى يسندك هكذا تجاه شعب سيينا، أنعم فى النظر، حى يحسن وجهى إجابتك:

١٣٦ – وبهذا سترى أنى شبح كابوكيو، الذى زيّف المعادن بالكيمياء: وعليك أن تذكر إذا كنت أحسن النظر إليك.

١٣٩ ـ كيف كانت لى طبيعة القرد تماما»

***

الأنشودة

30

يذكر دانتى بعض مظاهر العنف فى الميتولوجيا اليونانية، كما حدث من أتاماس لابنه، وكما وقع لهيكوبا حينما رأت ابنتها وابنها صريعين، ويقول إن هذا لا يدانى فى العنف والقسوة ما شهده فى هذا الوادى الرهيب، رأى دانتى شبحين عاريين ينهشان بعنف كل من حولهما مثل خنزير جائع انطلق من حظيرته كان أحدهما شبح ميرا الفاجرة التى عشقت أباها متجاوزة فى ذلك كل شريعة، وذهبت لكى تأثم معه بعد أن تنكرت فى صورة غيرها من النساء، كما جاء فى الميتولوجيا اليونانية، وكان الآخر شبح جانتى اسكيكى المواطن الفلورنسى الذى تنكر فى صورة بووزو دوناتى وأملى وصية زائفة لمصلحة سيمون دوناتى ولمصلحته هو، فكسب فرسًا تسمى ملكة القطيع. ورأى دانتى معذبًا مريضًا بالاستسقاء منتفخ البطن أحس بالعطش الشديد كالمصاب بالحمىّ، وكان ذلك هو أدامو دا بريشا الذى زيف عمله فلورنسا الذهبية، وقد تذكر تلال كازنتينو الخضراء بنهيراتها التى تهبط إلى الأرنو، فزاده ذلك عطشًا، وكان يرجو أن يسير البحث عمن حرضوه على تزييف العملة هنا، ولكن مرضه يمنعه عن الحركة. شهد دانتى زوجة فرعون مصر التى اتهمت يوسف باطلا بمحاولة اغتصابها عندما لم يستجب لإغرائها ورأى سينون إغريقى

طروادة الكذوب، صاحب خدعة الحصان الخشبى فى حرب طروادة، واستمع دانتى إلى عراك سينون وأدامو وتضاربهما وتعيير أحدهما الآخر بما ارتكبه من الإثم، وظل دانتى مصغيًا إليهما بانتباه، حتى أظهر له فرجيليو الغضب لطول توقفه، فأحس بالخجل الشديد ، وأراد الاعتذار لأستاذه، لكنه عجز عن الكلام، وكان صمته خير اعتذار، فطمأنه فرجيليو وطيب خاطره.

١ ـ فى الوقت الذى كانت فيه يونون ثائرة على الدم الطيبى، من أجل سيميلى، كما هى أظهرت ذلك غير مرة،

٤ – جن جنون أتاماس، حتى إنه عندما رأى زوجته تسير بطفلين وقد حملت واحدًا فى كل من اليدين ـ

٧ ـ صاح : «فلنحل الشباك، لكى أمسك فى الطريق باللبؤة والشبلين، ثم مد مخلبيه القاسيين.

١٠ ـ وأخذ الطفل المسمى ليركوس، وأداره، وحطمه على صخرة فأغرقت هى نفسها بحملها الثانى.

١٣ – وحينما هوى الحظ إلى الحضيض بكبرياء الطرواديين، الذى اجترأ على كل شىء، حتى هلك الملك مع الملكة.

١٦ ـ وهيكوبا الحزينة البائسة الأسيرة، بعد أن رأت بوليكسين صريعة، وكشفت الوالهة عن جدث ابنها

١٩ ـ يوليدورس على شاطئ البحر، نبحت كالكلب، وهى طائرة اللب إذ كان الألم قد أفقدها الصواب.

٢٢ ـ ولكن لم تُر أبدًا ربات الانتقام فى طيبة ولا فى طروادة، بمثل هذه القسوة على أحد، لا عند نهش الوحوش أو حتى أعضاء البشر،

٢٥ ـ كما رأيت فى شبحين عاريين شاحبى اللون، جريا ينهشان، كما يفعل الخنزير، حينما ينطلق من الحظيرة.

٢٨ ـ جاء أحدهما إلى كابوكيو، وأنشب نابيه فى عقدة عنقه، حتى إنه وهو يجره، جعل الأرض الصلدة تسحج بطنه.

٣١ – والأريتزوى الذى ظل يرتجف، قال لى: «ذلك المسعور هو جانى اسكيكى، إنه يمضى غاضباً وهو ينهش الآخرين هكذا».

٣٤ ـ فقلت له: «أواه، لعلّ الاخر لا ينشب أسنانه فيك، ولعله لا يضيرك أن تخبرنا من هو، قبل أن يبتعد من هنا».

٣٧ ـ قال لى: «تلك هى الروح القديمة لميرّا الفاجرة، التى أصبحت لأبيها عاشقة متجاوزة كل حب شرعى.

٤٠ ـ إنها جاءت هكذا لكى تأثم معه، وقد زيفت نفسها فى صورة غيرها، كما حرص الآخر الذى يذهب هناك.

٤٣ ـ على أن يتنكر فى صورة بووزو دوناتى، وكتب وصية أعطاها مظهر الحق، لكى يكسب ملكة القطيع».

٤٦ ـ وبعد أن مضى الغاضبان، اللذان كنت قد أنعمت النظر فيهما، أدرتُ عينى لكى أرى سائر الملعونين.

٤٩ ـ ورأيت واحداً كان يبدى صورة الطنبور لو كان حِقوه مفصولاً عما هو عند الإنسان مشقوق.

٥٢ ـ الاستسقاء الثقيل ـ الذى يجعل الأعضاء غير متناسقة بسائل لا يمتصه الجسم، حتى يصبح الوجه غير متناسب مع البطن ـ

٥٥ ـ جعله يبقى شفتيه مفتوحين، كما يفعل المحموم، الذى يدير إحداهما إلى الذقن والأخرى إلى أعلى، بفعل العطش.

٥٨ ـ قال لنا: «أنتما يا من تبقيان بغير عذاب فى العالم الأغبر، ولست أعرف السبب، انظرا وتأملا.

٦١ ـ فى بؤس السيد أدامو: لقد نلت وأنا حى كثيرا مما رغبت، والآن، واأسفاه، أشتهى قطرة ماء!

٦٤ - النهيرات التى تهبط إلى الأرنو، من تلال كازينتينو الخضراء، جاعلة قنواتها باردة ندية

٦٧ ـ تبدو أمامى أبدا، وليس هذا بغير طائل، لأن صورة مجاريها تشعرنى بجفاف، يفوق السقام الذى ينزع عن وجهى اللحم.

٧٠ - والعدالة الصارمة التى تلاحقنى، تتخذ من الموضع الذى ارتكبت فيه الخطيئة، سبيلا للمزيد فى إطلاق زفراتى

٧٣ ـ هناك رومينا، حيث زيفتُ سبيكة مختومة بصورة المعمدان ومن أجلها تركت جسمى يحترق فى أعلى.

٧٦ - ولكنى لو رأيت هنا الروح البائسة، لجويدو أو إسكندر أو أخيهما، لما وجهن النظر إلى نبع براندا.

٧٩ ـ هناك واحدةٌ منها فى الداخل، إذا صدقت الأشباح الغاضبة التى تدور من حولنا، ولكن ما يفيدنى هذا، وقد قيدت أعضائى؟

٨٢ - ولو كنت حقا لا أزال خفيفًا، فأقدر على التقدم فى مائة عام بوصة واحدة، لكنت قد وضعت نفسى فى الطريق

٨٥ ـ باحثا عنها بين هؤلاء القوم المشوّهين مع أنه يدور أحد عشر ميلاً، ولا يقل عرضه عن نصف ميل.

٨٨ - بسببهم أصبحتُ بين مثل هذه الأسرة: إنهم حملونى على أن أضرب الفلورينات التى تحوى ثلاثة قراريط من زائف المعدن».

٩١ ـ فقلت له: «من الحسيسان اللذان يصعّدان دخانًا كيدين ابتلتا فى الشتاء، وقد استلقيا متلاصقين إلى حدود يمينك؟»

٩٤ - أجابنى: «هنا وجدتهما، حينما هبطت إلى هذه الهاوية، ولم يتحركا بعد، ولا أعتقد أنهما سيتحركان إلى الأبد.

٩٧ - فواحدةٌ هى الزائفة التى اتهمت يوسف، والآخر هو إغريقى طروادة سينون الكذوب: إنهما يطلقان بوطأة الحمى دخانًا كثيرًا».

١٠٠ ـ وأحدهما، الذى ربما أزعجه أن يُدعى بمثل هذا السوء، ضرب بقبضة اليد بطنه المتيبس.

١٠٣ ـ ودوى هذا كأنه طبلة، وضربه السيد أدامو على الوجه بذراعه التى لم تبد أقل صلابة،

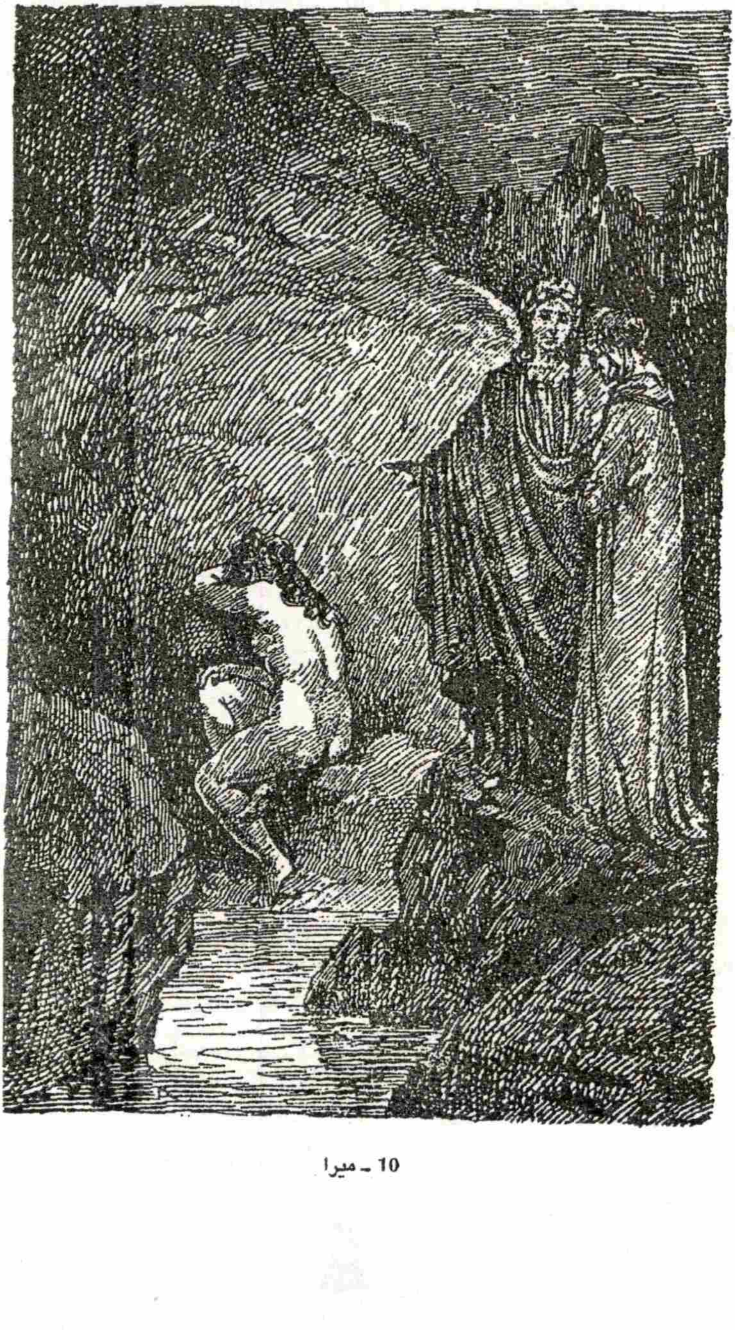
١٠٦ ـ وهو يقول له: «إنى وإن كنت مُنعت عن الحركة بالطرفين الثقيلين فلى ذراع طليقةٌ لمثل هذه المهمة».

١٠٩ - عندئذ أجاب: «حينما كنت ذاهبًا إلى النار، لم تكن ذراعك بهذا التأهب: ولكنها كانت كذلك، بل أكثر، عند ما قمت بالتزييف»

١١٢ ـ قال مريض الاستسقاء: «أنت فى هذا تنطق بالحق، ولكنك لم تكن شاهد عدل، حينما سئلت هناك فى طروادة عن الصدق».

١١٥ - قال سينون: «إذا كنتُ قد قلت زيفًا، فإنك زيفت المال، وأنا هنا لخطيئة واحدة، وأنت لأكثر مما فعل كل شيطان!».

١١٨ ـ أجاب ذلك الذى كان منتفخ البطن: «فلتذكر الجواد يا من حنثت بالقسم، وليكن عذابك أن كل العالم يعرف ذلك».



10 ـ ميرا

١٢١ ـ قال الإغريقى: «وليكن عذابك فى عطش يشقق لسانك، وماء كريه، يجعل بطنك هكذا حجابًا أمام عينيك!».

١٢٤ ـ قال عندئذ مزّيف النقد: «هكذا يفغر فوك لقول السوء كالعادة، لأنى إذا كنت عطشًا وممتلئًا بسائل خبيث،

١٢٧ ـ فأنت محموٌّ، ويوجعك رأسك، ولكى تلعق مرآة نارسيس، لست محتاجًا أن تدعى بكلمات كثيرة».

١٣٠ ـ كنت منتبهًا تمامًا للاستماع إليهما، حينما قال لى أستاذى: «الآن امض فى النظر! فلم يبق إلا قليل حتى أشتبك معك».

١٣٣ – ولما سمعته يكلمنى فى غضب، اتجهت إليه وقد تولانى من الخجل، ما لا يزال يدور فى خاطرى.

١٣٦ – وكمن يحلم بخطر يصيبه، وفى حلمه يرجو أن يكون حالمًا، ويرغب أن يصبح ما هو واقع كأنه لم يقع،

١٣٩ هكذا أصبحت راغبًا فى الاعتذار وأنا عاجزٌ عن الكلام، ولكنى اعتذرت، ولم أعتقد أنى فعلت ذلك.

١٤٢ ـ قال أستاذى: «إن أقل من خجلك يمحو خطيئة أكبر مما لم يكن مثلها ذنبك، ولذلك أبعد عن نفسك كل أسف:

١٤٥ ـ واذكر أنى سأكون دائمًا إلى جانبك، إذا حدث بعد أن ساقك القدر إلى موضع، به قوم فى عراك مماثل،

١٤٨ ـ فإن رغبتك أن تسمعه رغبةٌ وضيعة».

***

الأنشودة

31

قارن دانتى بين ما لقيه من لسان فرجيليو من جرح ودواء وبين ما كان من رمح أخيل وأبيه من جرح وبلسم وتقدم الشاعران قاصدين منطقة الحلقة التاسعة. كان الوقت بين الليل والنهار، فلم تكن الرؤية واضحة، وظن أنه رأى أبراجًا عالية، ولكن فرجيليو أوضح له أن ما رآه ليس أبراجًا ولكن جماعة من المردة، وقفوا حول شاطئ البئر وتبين دانتى أجسامهم عند اقترابه منهم، فزايله الخطأ ولكن زادت مخاوفه. رأى دانتى أحدهم وكان ذا حجم ضخم من الرأس إلى سرة البطن، وقد أحسنت الطبيعة صنعًا عندما وقفت عن خلق مثل هذه الكائنات كان ذلك نمرود ملك بابل، الذى أخذ يصرخ بفمه المتوحش ويهذى بكلام غير مفهوم، عند رؤية الشاعرين، وعمل فرجيليو على إسكاته، وأشار على دانتى بأن يدعه وشأنه لأنه لا جدوى فى التحدث إليه ووصل الشاعران إلى إفيالتس المارد الذى ثار على جوبتر، وهو يعاقب هنا بتقييده بالأغلال، غضب إفيالتس عندما سمع فرجيليو يقول إن برياروس أقسى المردة وأشدهم وحشية، فاهتز كزلزال عنيف، وخشى دانتى الموت كما لم يخشه أبدًا. وصل الشاعران إلى المارد أنتيوس الذى لم يثر على الآلهة، ولذلك فهو يتكلم بغير قيود سأله فرجيليو أن يحملهما إلى الحلقة

التاسعة، لأن دانتى الذى ينتظر حياة طويلة سوف يُكسبه الشهرة فى الأرض. حملهما المارد بيديه، وقد أصبحا كأنهما حزمة واحدة، وبدا المارد لدانتى وهو ينحنى كبرج كاريزيندا، ووضعهما برفق فى حلقة يهوذا، ثم ارتفع كسارية فى سفينة.

١ ـ هذا اللسان نفسه جرحنى من قبل مرة، حتى علت حمرة الخجل كلا الخدّين، ثم قدم لى الدواء:

٤ ـ وهكذا سمعت أنّ رمح أخيل وأبيه اعتادا أن يكون مصدر الحزن أولاً، وهبة طيبة بعدُ

٧ ـ أولينا ظهرينا للوادى البائس، فوق الشاطئ الذى يحيط من حوله، ونحن نعبره دون كلام.

١٠ ـ كان الوقت هنا أقل من ليل وأدنى من نهار، فامتدّ بصرى إلى الأمام قليلاً ولكنى سمعت بوقًا عاليًا يدوى،

١٣ ـ حتى ليجعل كل رعد بإزائه خافت الصوت، وقد وجه كلتا عينى إلى موضع واحد، وهما تتبعان طريقه المقابل.

١٦ ـ بعد الهزيمة الأليمة، حينما فقد شارلمان جيشه المقدس، لم ينفخ أورلاندو بمقل هذا العنف.

١٩ - وما إن اتجهت برأسى هناك قليلا، حتى بدا لى أنى أرى أبراجًا كثيرة عالية، فقلت: «أستاذى، خبرنى، أية مدينة هذه؟»

٢٢ ـ فأجابنى: «لانك تنظر خلال الظلمات من بُعد شاسع، يحدث بعد أن تخطئ التصور،

٢٥ ـ وسترى جليًا، إذا وصلت هناك، كيف تُخدع الحواس من بعيد، ولذلك فلتدفع نفسك إلى الأمام قليلا».

٢٨ ـ ثم أخذنى بيده بكلّ إعزاز، وقال: «قبل أن نمضى فى سيرنا، وحتى يبدو لك الأمر أقلّ غرابة

٣١ ـ اعلم أنها ليست أبراجًا، ولكن مردة، وهم جميعًا فى البئر حول الشاطئ، من سرة البطن إلى أسفل».

٣٤ ـ وكما يحدث عندما ينقشع الضباب، فتتبين العين قليلاً قليلاً، ما يُخفيه البخار الذى يكثّفه الهواء،

٣٧ ـ هكذا بينما كنا نخترق الهواء المظلم الكثيف، ونحن نقترب رويدًا رويدًا من الشاطئ زايلنى الخطأ وزاد عندى الخوف.

٤٠ ـ فإنه كما فوق الحلقة الدائرية، تتوج مونتير يدجونى نفسها بالأبراج كذلك على الشاطئ الذى يحيط بالبئر.

٤٣ ـ وقف، كالأبراج بنصف أجسامهم، المردة المرعبون الذين لايزال جوبيتر يهدّد بهم من السماء، حينما يُرعد.

٤٦ ـ وكنت تبينت وجه أحدهم، والكتفين والصدر وجزءًا كبيرا من البطن، وعلى الجانبين تدلت كلتا الذراعين.

٤٩ ـ وفى الحق أن الطبيعة حينما أقلعت عن فن يصنع مثل هذه الكائنات، فعلت خيرًا كثيرًا، كى تمنع عن مارس مقاتلين مثلهم.

٥٢ ـ وإذا هى لم تكن على الفيلة والحيتان نادمة، فإن من ينظر بإمعان يجدها فى ذلك أعدل وأحكم.

٥٥ - لأنه إذا انضمت أداة الفكر إلى إرادة الشرّ والقوة الغاشمة، فلن يقوى البشر على مواجهتها.

٥٨ ـ بدا لى وجهه ضخمًا طويلاً كصنوبر القديس بطرس فى روما، وتناسبت معه سائر عظامه.

٦١ - حتى إن الشاطئ الذى كان له مئزرًا، من وسطه إلى أسفل، أظهر جزءًا كبيرًا من أعلاه، بحيث يبطل إدعاء ثلاثة

٦٤ - فريزيين أنهم يبلغون شعره؛ لأنى رأيت منه ثلاثين شبرًا كبيرًا، من الموضع الذى يربط الإنسان عنده الثوب حتى أسفل.

٦٧ - «رافيل ماى أميخ زانى ألمى»، هكذا بدأ يصرخ الفم المتوحش، الذى لم يكن يليق به كلماتُ أعذب.

٧٠ - فقال له دليلى: «أيتها الروح الحمقاء، الزمي بوقك ولْتفرِّجي به عن نفسك، عندما ينالك الغضب أو انفعالٌ غيره!

٧٣ - تلمسّى رقبتك، وستجدين الحبل الذى يقيدها، أيتها النفس المضطربة، وانظرى إلى ما يطوّق صدرك الضخم».

٧٦ - ثم قال لى: «إنه يتهم نفسه بنفسه؛ هذا هو نمرود الذى كان فكره الخبيث سببًا فى ألا يتخذ العالم بعدُ لغةً واحدة.

٨٢ - وعندئذ سرنا شوطًا أبعد، متجهين صوب اليسار، وعلى مرمى قوسٍ، وجدنا الآخر أضخم كثيرًا وأشد وحشية.

٨٥ - مَنْ كان المعلم الذى قيده، لا أستطيع قولاً، ولكنه كان مقيدًا - وذراعه اليمنى إلى الخلف والأخرى إلى الأمام -

٨٨ - بسلسلةٍ ربطته من الرقبة إلى أسفل، حتى التفَّتْ حول جزئه المكشوف إلى خامس دورة.

٩١ - قال دليلى: «أراد هذا المتغطرس، أن يختبر قواه مع جوبيتر العظيم، وبذلك نال مثل هذا الجزاء.

٩٤ - إن اسمه إفيالتس، وقد قام بمحاولات جريئة، حينما أخاف المردةُ الآلهة: والذراعان اللتان حركهما وقتئذٍ، لا يحركهما بعدُ أبدًا».



٩٧ - فقلت له: «أرجو إن كان هذا أمرًا مستطاعًا، أن تنال عيناى خبرةً ببرياروس الهائل».

١٠٠ - أجابنى عندئذ: «سترى قريبًا من هنا أنتيوس، الذى يتكلم وهو طليقٌ، وسيحملنا إلى أصل كلِّ خطيئة.

١٠٣ - إن مَنْ ترغب فى رؤيته بعيدٌ كلّ البعد ومقيدٌ، وفى صورة هذا المارد، سوى أن وجهه يبدو أكثر وحشية».

١٠٦ - لم يحدث أبدًا أن هز زلزالٌ شديدُ العنف برجًا بمثل هذه القوة، كما كان إفيالتس سريعًا إلى هزّ نفسه.

١٠٩ - خشيت الموت وقتئذٍ كما لم أخشه أبدًا، ولم يكن يلزم له سوى الخوف، لولا أنى رأيت أغلاله.

١١٢ - عندئذٍ تابعنا المسير إلى الأمام، وبلغنا أنتيوس الذى ظهر منه خارج البئر، فيما عدا الرأس، خمس أذرعٍ كاملة.

١١٥ - «أنت يا مَنْ أخذت ألف سبعٍ غنيمة فى الوادى المحتوم، ومَنْ أورث شيپيون المجد، حينما ولَّى.

١١٨ - هانيبال ظهره مع رجاله، وإذا كنت اشتركت فى حرب إخوتك الكبرى، فيبدو أنه لا يزال هناك مَنْ يعتقد.

١٢١ - أن أبناء الأرض كانوا سيظفرون؛ ضعنا أسفل، حيث يحبس الزمهرير مياه كوتشيتوس، ولا يأخذنَّك الخجل من ذلك.

١٢٤ - ولا تجعلنا نذهب إلى تيتوس ولا تيفون: يستطيع هذا الرجل أن يُعطي بعض ما يُتمنى هنا؛ ولذلك أحن قامتك، ولا تلوِ شفتيك.

١٢٧ - إنه لا يزال قادرًا على أن يكسبك الشهرة فى الأرض: لأنه يعيش، وينتظر بعدُ حياةٌ مديدة، إذا لم تستدعه رحمة الله إليها قبل الأوان».

١٣٠ - هكذا قال أستاذى؛ فمدّ هذا بسرعةٍ يديه، اللتين كان هرقل قد أحس بضغطهما الشديد، وأخذ دليلى.

١٣٣ ـ وحينما شعر فرجيليو أنه قد أُخذ، قال لى: «اقترب هنا، حتى يمكننى أن أحملك»، ثم جعل من نفسه ومنى حزمة واحدة.

١٣٦ ـ وكما يبدو برج كاريزيندا عند النظر، تحت الجانب المائل، حينما تمرّ فوقه سحابة هكذا، فيميل فى الاتجاه المقابل،

١٣٩ ـ هكذا بدا لى أنتيوس، حينما وقفت أرقبه لأراه منحنيًا، وكانت تلك لحظة وددت فيها لو اتخذت طريقًا آخر.

١٤٢ ـ ولكنه وضعنا برفق فى الهاوية، التى تلتهم لوتشيفيرو مع يهوذا ولم يبق هناك منحنيًا هكذا،

١٤٥ ـ بل رفع نفسه كسارية فى سفينة.

***

الأنشودة

32

عندما وصل دانتى إلى الحلقة التاسعة وجد أنه قد استعصت عليه القوافى لوصف هذه الهوّة البائسة، واستنجد بربات الشعر لكى يساعدنه على القول وكانت هذه منطقة دائرة قابيل حيث يعذّب خونة الأهل والأقارب. قال دانتى إنه أولى بالآثمين أن يكونوا نعاجًا أو ماعزًا وجد دانتى نفسه وإلى جانبه فرجيليو على سطح بحيرة متجمدة، لم يكن مثلها الدانوب أو الدون فى الشتاء وبرز فوق الجليد رءوس الخونة مثل الضفادع، وبدا عليهم أمارات البؤس. رأى دانتى معذبين انهمر الدمع من عيونهما وتحوّل إلى ثلج فاستحال عليهما النظر، وكانا هما إسكندر ونابليون ابنى ألبرتو دى مانونيا وقد قتل أحدهما الآخر ثم انتقل الشاعران إلى منطقة الأنتينورا حيث يعذّب خونة الوطن والمبدأ السياسى، واصطدم دانتى برأس أحد المعذّبين الذى ظنه رسول مونتابرتى آتيا للانتقام منه، فتبادلا الكلام القاسى وحاول دانتى أن يعرف شخص ذلك الآثم وجذبه من شعر رأسه ونزع بعضه، ولكنه ظلّ يقاوم محاولة دانتى التعرّف عليه. وصاح معذّب آخر ونادى ذلك الممتنع باسمه، فعرف دانتى أنه بوكّا دلى أباتى الذى خان قوات الجلف الفلورنسية فى معركة مونتأبرتى. قال دانتى إنه سيحمل عنه فى الدنيا أنباء صحيحة تجلب

عليه العار، فلم يعبأ بوكا بذلك وأشار إلى بووزو دا دوفيرا الذى خان الجبلين فى لمبارديا، كما أشار إلى تيزاورو دى بيكيريا الذى خان الجلف فى فلورنسا وشهد دانتى عن بُعد رأسى آثمين يخرجان معًا من ثغرة واحدة وسط الجليد، وعندما اقترب منهما وجد أحدهما ينهش مؤخر رأس الآخر حاول دانتى أن يعرف حقيقة الأمر من صاحب الرأس الأعلى واعدًا اياه بالتشهير بعدوّه فى الدنيا

١ - لو كانت لى قوافٍ لاذعةٌ خشنةٌ، تناسب الهوة البائسة، التى ارتكزت فوقها سائر الصخور.

٤ - لوفيت التعبير عن عصارة فكرى، ولكن مادمتُ لا أملكها، فلن أحمل نفسى على القول دون رهبة.

٧ - لأنه ليس مقصدًا يؤخذ مأخذ اللهو، أن يوصف مركز العالم كله، وليس هذا للسان يدعو أباه وأمه.

١٠ - ولكن فلتساعد شعرى أولئك الربّات، اللائى ساعدن أمفيون فى إغلاق طيبة، حتى لا يختلف القول عن الواقع

١٢ ـ يا من تجاوزتم أسوأ حُثالة خُلقت، يا مَنْ هُم فى الموضع الذى يصعب الكلام عنه، كان خيرًا لكم أن تكونوا هنا نعاجًا أو معزًا

١٦ ـ حينما صرنا فى قاع البئر المظلمة، تحت قدمى المارد، بل أدنى منهما كثيرًا، وكنتُ أتطلع بعدُ إلى السور العالى.

١٩ ـ سمعت من يقول: «انظر كيف تسير، واحرص ألا تطأ بقدميك رأسى الأخوين البائسين المعذّبين».

٢٢ ـ عندئذ استدرُت ورأيتُ أمامى وتحت القدمين بحيرة، كان لها من التجمد صورة الزجاج لا الماء.

٢٥ ـ لم يصنع الدانوب فى النمسا وقت الشتاء لمجراه غطاء بهذه الكثافة، ولا الدون هناك تحت سماء الزمهرير.

٢٨ ـ كما كان هنا، فإنه لو سقط عليه جبل تمبرنك أو بيترابياتا، لما أحدث حتى بحافته صريراً.

٣١ ـ وكما يقف الضفدع للنقيق بخيشومه خارج الماء، حينما تحلم فتاة الريف كثيراً بالتقاط فضلات الحصاد.

٣٤ – كان الشجعان المعذّبان منغمسين فى الثلج إلى الجزء الذى يبدو عليه الخجل، وقد ازرقّ لونها، وردّدا بأسنانهما صفير اللقلق.

٣٧ ـ كلاهما أبقى وجهه مصوبًا إلى أسفل: الزمهرير من الفم، وأسى القلب على العينين بدا واضحًا بينهما.

٤٠ ـ وحينما أجلتُ بصرى حوالى قليلاً، نظرت إلى موطئ قدمىّ، فرأيتُ اثنين متلاصقين هكذا، حتى اختلط بينهما شعر الرأس.

٤٢ ـ قلتُ: «خبرانى من أنتما يا من تضغطان صدريكما على هذا النحو، فمالا بالعنقين إلى الوراء، ولما ارتفع وجهاهما نحوى،

٤٦ ـ تقطّر الدمعُ على الخدود من عيونهما، التى لم يمسّها البللُ، من قبل إلا فى الداخل، فجمده الزمهرير بينها، وأعاد إغلاقها.

٤٩ ـ لم يَقرنْ أبدًا رباطٌ من حديد قطعة خشب بأخرى بمثل هذا العنف، وهنا تناطحا معًا كعنزين، وقد غلبتهما شدة الغضب.

٥٢ ـ وواحدٌ كان الزمهرير قد أفقده كلتا الأذنين، قال لى وهو مايزال مطأطئ الرأس: «لماذا تطيل النظر إلينا؟

٥٥ ـ إذا أردت أن تعرف مَنْ هذان الاثنان، فالوادى الذى تهبط منه مياه بيزنتزيو، كان لهما ولأبيهما ألبرتو.

٥٨ ـ لقد خرجا من صلب واحد، ويمكنك أن تبحث فى دائرة قابيل
كلها فلن تجد شبحًا أجدر منهما أن يستقر فى الجمد.

٦١ ـ لا الذى حُطِّم صدره وظله معه بضربة من يد أرتو، ولا فوكاتشا،
ولا هذا الذى يعترضنى

٦٤ ـ برأسه هكذا، حتى لم أعد أرى إلى الأمام مزيدًا، وكان يدعى
ساسّول ماسكيرونى، وإذا كنت تسكانيًا فإنك تعرف الآن جيدًا
من كان.

٦٧ ـ ولكيلا تحملنى أكثر على الكلام، اعلم أنى كنت كاميتشون دى
باتزى، وإنى أنتظر كارلينو ليظهر عذرى».

٧٠ ـ بعدئذ رأيت ألف وجه جعلها البرد مثل الكلاب، ومن ذلك
يعرونى الرعب، وسيعرونى دائما من الغدران المتجمدة

٧٣ ـ وبينما كان نسير نحو الوسط، الذى تجمع عنده كل ثقل، كنتُ
أرتعد فى الزمهرير الأبدى،

٧٦ ـ وهل كان ذلك برغبتى أم بتصريف القدر أم بالمصادفة، لست
أدرى ولكن عند مرورى بين الرؤوس، اصطدمت قدمى عنيفًا
بوجه أحدهم

٧٩ – فصاح بى وهو يبكى: «لماذا تطؤنى» إذا كنت لم تأت لتزيد فى
الانتقام لمونتأبرتى، فلم تعذبنى؟»

٨٢ ـ قلتُ: «أستاذى، انتظرنى هنا الآن، حتى أخلص من شكٍ فى
أمره، ولتحملنى بعدئذ على الإسراع كما ترغب».

٨٥ ـ وقف دليلى، وقلت للذى استمر بعنف يلعن : «من أنت يا من
تسب سواك هكذا؟».

٨٨ ـ أجابنى: «بل من أنت يا من تسير فى الأنتينورا ضاربًا وجوه الآخرين، ولو كنت حيا لكان هذا أمرًا إدًا».

٩١ ـ فكان ردّى: «إننى حى، وإذا كنت تطلب الشهرة، فقد يكون عزيزًا لديك، أن أضع اسمك فى أبياتى الأخرى».

٩٤ ـ قال لى: «بى ظمأ إلى العمس، فارحل عنى ولا تزد فى تعذيبى، إذ إنك لا تحسن الإغراء فى هذا المستنقع».

٩٧ ـ عندئذ أمسكت به من مؤخر رأسه وقلت: «سيكون حتما أن تفصح عن اسمك، أو لن تبقى لك شعرة هنا فوق».

١٠٠ – قال لى «وإن نزعت شعرى كله، فلن أخبرك من أنا ولن أدلك، ولو هويت على رأسى ألف مرة».

١٠٣ ـ كان شعره فى يدى ملفوفًا، وكنت قد نزعت منه أكثر من خصلة، على حين أطلق صرخاته خفيض العينين،

١٠٦ ـ حينما صاح آخر: «ماذا بك يابوكا؟ ألا يكفيك أن تعزف بالفكّين، وهل ينبغى أن تنبح؟ أىّ شيطان ركبك؟»

١٠٩ ـ قلتُ: «لا أريدك الآن أن تتكلم أيها الخائن الخبيث، إذ سأحمل عنك أنباء صحيحة تجلب عليك العار».

١١٢ ـ أجاب: «اذهب عنى وتحدّث بما تريد، ولكن إذا خرجت من هنا، فلا تسكت عن ذلك الذى كان لسانه الآن مستعدًا هكذا.

١١٥ ـ إنه يندب هنا فضة للفرنسيين، ويمكنك القولُ إننى قد رأيت ذلك الدوفيرى، حيث يبقى الآثمون فى جو رطيب.

١١٨ ـ وإذا سئلت عمن كان هنا سواه، فعندك قريبًا منك ذلك البيكتيرى، الذى ضربت فيورنتزا عنقه.

١٢١ ـ وأعتقد أن جانتى دى سولدا نييرى فى موضع أبدع ومعه
جانيلّونى، وتيبالدييلّو، الذى فتح فاينتزا وقد كانت نائمة».

١٢٤ ـ وكنا قد ابتعدنا عنه، عندما رأيت اثنين متجمدين فى ثغرة
واحدة، حتى كان رأس أحدهما قلنسوة للآخر.

١٢٧ ـ وكما يلتهم الخبزُ من الجوع، هكذا أنشب الأعلى أسنانه فى
الآخر، حيث يتلقى الرأس ظهر العنق.

١٣٠ ـ لم ينهش تيديوس صدغى ميناليبتوس وهو حنقٌ، على غير
مافعل ذلك الجمجمة وسائر الأجزاء:

١٣٣ ـ قلتُ: «أنت يا من تبدى بمثل هذا العمل الوحشى الكراهية لمن
تلتهمه، اذكر لى السبب، على شرط

١٣٦ ـ أنك إذا كنت تشكو منه بحق، وعلمتُ من أنتما وعرفتُ خطيئته،
فسأعوضك بعدُ فى العالم أعلى

١٣٩ ـ إذا لم يجفّ هذا الذى أتكلم به».

***

الأنشودة

33

رفع أوجولينو فمه عن رأس غريمه رودجيرى عندما أدك أن دانتى سوف يُشهر بعدوّه فى الأرض، وأخبره عن شخصيهما وشرح له الدافع إلى قيامه بهذا العمل الوحشى، قال إنه وقع أسيرًا فى يد عدوّه بسبب الغدر، وإنه وُضع وأولاده فى برج الجوع فى بيزا، وعرف الوقت فيه بأشعة القمر، وإنه نام فرأى حلمًا بغيضًا بدا فيه رودجيرى قائدًا لحملة صيد فوق جبل سان جوليانو وقال إنه عندما استيقظ من نومه سمع أولاده يبكون فى نومهم ويطلبون الخبز، وسمع صوت إغلاق باب البرج فى أسفل، فنظر إلى أولاده دون كلام وفى اليوم التالى تبين ما يعانيه أولاده، فعضّ كلتا يديه فى حركة عصبية، فظنوا أنه فعل ذلك بسبب الجوع، فنهضوا وسألوه أن يأكل لحمهم! وظل أوجولينو يكتم مشاعره فى صدره حتى لا يزيد فى بؤس أبنائه الأبرياء وفى اليوم الرابع سأله جادّو العون ثم سقط ميتًا، وتلاه بقية الأبناء وبموتهم تحرّر أوجولينو من قيد الأبوة الرهيب، وسقط فوق أبنائه وأخذ يتلمسهم وهو أعمى، وظل يناديهم بأسمائهم يومين كاملين، حتى فعل به الجوع ما لم يفعله الألم رأى دانتى أوجولينو يعود إلى نهش رأس رودجيرى الخائن، فأخذه الغضب، وصبّ لعنته على بيزا وشعبها وتمنى هلاكه غرقًا فى نهر الأرنو وسار الشاعران فوق الثلج فى منطقة بطليموس حيث يعذب خونة الأصدقاء

والضيوف، الذين استحال عليهم البكاء لتجمد الدموع فى مآقيهم، وتهبط هنا أرواح الخونة قبل موت أجسادهم فى الأرض. رأى دانتى بين هؤلاء ألبريو دى مانفريدى وبرانكا دوريا الجنوى وكان دانتى قاسيًا على ألبريجو حينما اختلف وعده ولم يُزل عن عينه الثلج، ثم صبّ لعناته على شعب جنوا

١ ـ رفع الفم عن الطعام الخبيث ذلك الآثم، وهو يمسحه فى شعر الرأس الذى أفسد مؤخره نهشًا.

٤ ـ ثم بدأ: «إنك تريد أن أجددّ الألم اليائس، الذى يعصر قلبى مجرّد التفكير فيه من قبل أن أتكلم عنه.

٧ ـ ولكن إذا كانت كلماتى بذورًا تثمر سوء السمعة للخائن الذى أنهشه، فإنك سترى الكلامّ والبكاء معًا.

١٠- أنا لا أعرف من أنت، ولا بأية طريقة أتيت هنا فى أسفل، ولكنك تبدو لى فى الحقيقة فلورنسيًا، حينما أسمعك.

١٣ ـ فلتعلم أنى كنتُ الكونت أوجولينو، وهذا هو الأسقف رودجيرى: وسأخبرك الآن لم أنا له مثل هذا الجار.

١٦ ـ ليس ضروريًا أن أقول إنه بتأثير أفكاره الخبيثة، إذ وضعت ثقتى فيه، وقعتُ أسيرًا وقتلت بعدُ:

١٩ ـ ولكنك ستسمع ما لا يمكن أن تكون سمعته، أعنى كيف كان موتى وحشيًا، وستعرف ما إذا كان عذّبنى.

٢٢ ـ إن فتحة ضيقة فى القفص الذى يسمّى من أجلى برج الجوع، وعلى آخرين أن يحبسوا فيه بعدُ،

٢٥ ـ قد أظهرتْ لى من خلال منفذها أقمارًا كثيرة، حينما نمتُ النومَ البغيض، الذى هتك لى حجاب المستقبل.

٢٨ ـ وفى الحلم بدا لى هذا رئيسًا وقائدًا، فى صيد الذئب وجرائه فوق الجبل، الذى لا يستطيع أهل بيزا أن يروا لوكّا خلاله.

٣١ ـ ومع كلاب ضامرة متحفزة مدّربة، وضع أمامه فى المقدّمة آل جوالاندى وآل سموندى وآل لانفرانكى.

٣٤ – وبعد شوط قصير بدا لى الأب والأبناء متعبين، وظهر لى أنى رأيتُ الأنيابَ الحادّة قد مزّقت جوانبها.

٣٧ ـ وحينما استيقظتُ قبيل الفجر سمعت أولادى، الذين كانوا معى، يبكون فى نومهم ويطلبون الخبز.

٤٠ ـ إنك لشديد القسوة، إذا كنتَ لم تتألم بعدُ وأنت تفكر فيما وضح لقلبى، وإذا كنت لهذا لا تبكى، ففيم اعتدت البكاء؟

٤٣ ـ وكانوا قد استيقظوا واقتربت الساعة التى اعتاد أن يقدم لنا فيها الطعام، وكان كل منا فى شك من رؤياه،

٤٦ ـ وسمعت إغلاق باب البرج الرهيب فى أسفل، وعندئذ نظرتُ إلى وجوه أبنائى دون أن أنطق بكلمة.

٤٩ ـ ولم أبك بل تحجرت هكذا فى باطنى، وبكوا هم، وقال صغيرى أنسلموتشو: «أبتاه، إنك تنظر هكذا، ماذا بك؟»

٥٢ ـ ولكنى لم أبك ولم أجب ذلك النهار كله ولا الليل التالى، حتى بزغت على الدنيا الشمس الجديدة.

٥٥ ـ وحينما تسلل شعاع قليلٌ إلى السجن الأليم، وتبينت فى وجوه أربعة صورتى ذاتها منعكسة.

٥٨ ـ عضضتُ كلتا اليدين من الألم، وفى ظنهم أنى فعلتُ ذلك رغبةً فى الطعام، نهضوا فجأة

٦١ ـ وقالوا: «أبتاه! سيخفّ ألمنا كثيرًا إذا طعمتَ منا: أنت كسوتنا هذا اللحم البائس، فاخلعه عنا».

٦٤ ـ عندئذ هدأت نفسى كيلا أجعلهم أشدّ حزنًا، وخرسنا جميعًا ذلك اليوم وما يليه، أواه أيتها الأرض الصلدة لم لم تنشقى؟

٦٧ ـ وحينما جئنا لليوم الرابع، رمى جادّو نفسه عند قدمى قائلاً: «أبتاه لم لا تساعدى؟»

٧٠ ـ وهناك مات، وكما أنت ترانى، رأيتُ الثلاثة يسقطون واحدًا واحدًا، بين اليوم الخامس والسادس، وحينئذ أخذتُ،

٧٣ ـ وقد صرت أعمى، أزحف فوق كل واحد منهم، وناديتهم مدّة يومين، بعد أن أصبحوا موتى: ثم كان الجوع أقدر من الألم».

٧٦ ـ وحينما قال هذا، وبعينين منحرفين، أمسك الجمجمة البائسة ثانيًا بأسنانه، التى كانت على العظم قوية، كأسنان الكلب.

٧٩ ـ أوّاه منك يابيزا، يا وصمة فى جبين شعب البلد الجميل حيث تصدح اللغة الحلوة، مادام جيرانك مُتباطئين فى عقابك،

٨٢ ـ فلتتحرّك كابرايا وجورجونا، ولتصنعا سدًا فى الأرنو عند المصبّ، حتى يغرق فيك كلّ إنسان حىّ!

٨٥ ـ لأنه إذا اشتهر الكونت أوجولينو بأنه خدعك فى شأن القلاع، فما كان ينبغى أن تضعى أبناءه فى مثل هذا العذاب.

٨٨ ـ لقد جعلتهم حداثة السن أبرياء يا طيبة الجديدة: أوجوشتونى وبريجاتا، والاثنين الآخرين اللذين تذكرهما أنشودتى من قبل.

٩١ ـ ومضينا إلى الأمام، حيث أطبق الجليد على قوم غيرهم، لم يتجهوا إلى أسفل ولكن انقلبوا كلهم.

٩٤ ـ بكاؤهم نفسه لم يدع للبكاء هناك سبيلاً، والأم الذى يجد عائقًا فى عيونهم، يرتدّ إلى الداخل ليزيدهم تعذيبًا،

٩٧ ـ إذْ إن أولى دموعهم تصنع عقدة، تملأ محجر العينين كله، كقناع من البلور تحت الحاجب.

١٠٠ ـ ومع أن كلّ حس فى وجهى قد توقف بفعل الزمهرير، كما يحدث من نبرة القدم،

١٠٣ ـ بدا لى أنى أشعر ببعض الريح: ولذا قلتُ: «أستاذى، هذه من ذا يحركها؟ ألا يتلاشى هنا فى أسفل؟»

١٠٦ ـ قال لى: «ستصبح سريعًا فى موضع تعطيك فيه عينك جواب هذا، حينما ترى المصدر الذى يصبّ الريح»

١٠٩ ـ وصاح بنا واحدٌ من بؤساء القشرة الباردة: «أيهاتان النفسان الشديدتا القسوة، حتى لقد أعطيتما آخر موضع،

١١٢ ـ ارفعا عن وجهى النقب الصلبة، لكى أفرح قليلا عن الألم الذى يملأ قلبى، قبل أن يعود دمعى إلى التجمّد».

١١٥ ـ قلتُ له: «إذا أردت أن أعاونك فخبرنى من أنت، وإذا لم أخلصلك فلأذهب إلى قاع الجليد».

١١٨ ـ أجاب عندئذ: «أنا الراهب ألبريجو، أنا صاحب الفاكهة من الحديقة الخبيثة، الذى آخذ هنا البلح بدل التين».

١٢١ ـ قلت له: «أوّاه! أأنت الآن ميتٌ هنا؟» قال لى: «كيف يبقى جسمى أعلى فوق الأرض، ليس لى علم بذلك.

١٢٤ ـ ولمنطقة بطليموس مثل هذه الميزة، ففى مرات كثيرة تهبط الروحُ هنا، قبل أن يدفعها أتروبوس.

١٢٧ ـ ولكى تكون كثر رغبة فى أن تُزيل عن وجهى الدموع المتجمدة، اعلم أن الروح حينما ترتكب الخديعة،

١٣٠ ـ كما فعلتُ أنا، ينزع شيطانٌ منها الجسد، ويتحكم فيه بعدٌ، حتى ينقضى كل زمانه.

١٣٣ - وتهوى هى إلى مثل هذه الهاوية، وربما لايزال يبدو فى أعلى جسم الشبح الذى يتجمد من ورائى هاهنا.

١٣٦ ـ ولابدّ أن تعرفه إذا جئت الآن فحسبُ إلى أسفل: إنه السيد برانكا دوريا، وقد مضت سنواتٌ كثيرةٌ منذ أن حبس هكذا».

١٣٩ ـ قلتُ له: «أعتقد أنك تخدعنى، لأن برانكا دوريا لم يمت، وهو يأكل ويشرب وينام ويرتدى الثياب».

١٤٢ ـ قال: «هناك أعلى فى خندق ماليبرانكى، حيث يغلى القطران الكثيف، لم يكن ميكيل زانكى قد وصل بعدُ،

١٤٥ ـ حينما ترك هذا الرجل بدلاً منه شيطانًا فى جسده وفى جسد أحد أقاربه، الذى ارتكب وإياه الغدر.

١٤٨ ـ ولكن امدد يدك إلىّ هنا الآن وافتح عينى»، فلن أفتحهما له،
وكان من الكياسة أن أكون قاسيًا معه.

١٥١ ـ آه لكمْ يا أهل جنوا! أيها الرجال الغرباء عن كلّ فضيلة،
والحافلون بكلّ رذيلة، لماذا لم تزولوا من الدنيا؟

١٥٤ ـ فإنى قد وجدتُ واحدًا منكم مع أخبث روح فى رومانيا، وهو
لسوء فعله يغطس الآن بروحه فى كوتشيتوس،

١٥٧ ـ ولايزال يبدو فى أعلى حيًا بجسمه.

***

الأنشودة

34

رأى دانتى عن بُعد هيكلاً يشبه طاحونة يحركها الريح وسط الضباب الكثيف، وكانت هذه دائرة يهوذا حيث يعذّب الخائنون إلى من أحسنوا إليهم. اعتصم دانتى وراء دليله وقد اعتراه الخوف، وشهد المعذّبون فى أوضاع مختلفة، وظهروا وكأنهم أعواد قش وضعت فى زجاج شفاف أشار فرجيليو إلى لوتشيفيرو - إبليس - وسأل دانتى أن يتذرع برباطة الجأش زاد خوف دانتى حتى لم يعد حيًا ولا ميتا، حينما رأى لوتشيفيرو وبحجمه الهائل وكان له ثلاثة وجوه، الأمامى منها أحمر اللون والأيمن والأيسر أسود، وكان له تحت وجهه جناحان هائلان أضخم من أشرعة البحر، وجمّد لوتشيفيرو بحركة أجنحته مياه كوتشيتوس وحوّلها إلى ثلج ومضغ بأفواهه الثلاثة يهوذا وبروتس وكاسياس الذين ارتكبوا الخيانة. هبط فرجيليو فوق جسم لوتشيفيرو مستعينًا بشعره كأنها درجات السلم، وتعلق دانتى بعنقه، وخرج الشاعران من ثغرة فى صخرة. بدا لدانتى أن فرجيليو قد تحوّل من الهبوط إلى الصعود عندما رأى ساقى لوتشيفيرو قد اتجهتا إلى أعلى. تساءل دانتى أين ذهب الثلج، وكيف انقلب لوتشيفيرو رأسًا على عقب، وكيف سارت الشمس من المساء إلى الصبح فى وقت قصير. وفسر فرجيليو لدانتى ما غمض عليه، وأوضح له أنهما

اجتازا مركز الأرض وانتقلا من نصف الكرة الأعلى إلى نصفها الأدنى الذى تغطى بالماء عندما هبط لوتشيفيرو من السماء إلى الأرض، وانتقل أغلب اليابس إلى النصف الأعلى، وأصبح جزء منه جبل المطهر فى النصف الأدنى، وصعد الشاعران فى كهف طويل، وخرجا إلى الفضاء حيث شهدا النجوم تتألق فى كبد السماء.

١ ـ قال أستاذى: «إنّ ألوية ملك الجحيم تتقدّم نحونا، فانظر إلى الأمام إذا كنت تتبينه».

٤ ـ وكما إذا انتشر ضبابٌ كثيفٌ ، أو حينما يخيم الليل على نصف كرتنا، فتبدو على البعد طاحونة تديرها الرياح،

٧ ـ بدا لى عندئذ أنى أرى مثل هذا البناء، فاحتميتُ وراء دليل خشية الريح، إذ لم يكن هناك من معتصم سواه.

١٠ ـ وكنت قد بلغتُ موضعًا، يعترينى الخوف إذْ أصوغه شعرًا، حيث كنت مغطاة كل الأشباح، وشفت كقش فى زجاج.

١٣ ـ بعضٌ استلقى، وانتصب آخرون قيامًا، هذا على رأسه، وذلك على عقبيه، ومال آخر بوجهه نحو ساقيه كالقوس.

١٦ ـ ولما تقدمنا إلى الأمام كثيرًا حتى راق لأستاذى أن يرينى الكائن الذى كان يزينه الوجه الجميل.

١٩ ـ تراجع من أمامى، واستوقفنى قائلاً: «ها هو ذا ديس، وانظر الموضع الذى يجب أن تتسلح فيه بقوةّ البأس».

٢٢ ـ لاتسألنى أيها القارئ، كيف أصبحتُ عندئذ خائر القوى مقرورًا، فلن أكتب ذلك ولأن كل قول سيكون قاصرًا عنه.

٢٥ ـ لم أمتْ ولم أبق حيًا، وفكّر لنفسك الآن، إذا كنت ذا حصاة من الحجى، كيف أصبحت محرومًا من هذا وذاك.

٢٨ ـ لقد خرج بنصف صدره من الثلج إمبراطور العالم الأليم، وإنى بالنسبة إلى طول ماردٍ لأقربُ.

٣١ ـ من المردة إلى حجم ذراعيه: فانظر الآن كم ينبغى أن يكون ذلك الكلّ الذى يناسب مثل هذه الأجزاء!

٣٤ ـ ولئن كان ذات يوم فائق الجمال كما هو قبيحٌ الآن، ورفع عينيه على خالقه، فهو جديرٌ أن يصدُر عنه كلّ حزنٍ

٣٧ ـ آه، كم بدا لى من عُجاب العجب، حينما رأيت رأسه ثلاثة وجوه! كان أحمر اللون ذلك الأمامىّ منها،

٤٠ ـ والآخران كانا وجهين، اتصلا به على وسط كلتا الكتفين، واتحدتْ جميعًا فى مكان اليافوخ:

٤٣ – وبين البياض والصفرة بدا الأيمن، وكانا الأيسر حين تراه مثل أولئك الذين يأتون من هنالك، حيث تنحدر مياه النيل.

٤٦ – ومن تحت كل منهما خرج جناحان كبيران، كما يُناسب مثل ذلك الطائر: ولم أر أبدًا أشرعة بحر مثلها.

٤٩ ـ لم تكن ذات أرياش، بل كانت فى صورة جناحى الخفاش، وأخذ يحركها حتى خفقت عنه ثلاث رياحٍ:

٥٢ ـ وبذا تجمّد سائر كوتشيتوس وبكى هو بستّ أعين، فتقاطر على أذقانه الثلاثة الدمعُ والرغوةُ الدامية.

٥٥ ـ وفى كلّ فم مضغ بأسنانه أحد الآثمين، على طريقة دواليب الكتان، حتى جعل ثلاثة منهم يتألمون على ذلك النحو.



٥٨ ـ وللذى فى الأمام لم يكن العضّ شيئًا يذكر إلى إنشاب المخالب، إذْ بقيت فقاره عارية كلها من الجلد أحيانًا.

٦١ ـ قال أستاذى: «تلك النفس التى هناك عاليًا أشد العذاب، هى يهوذا الإسخريوطى، الذى رأسه فى الداخل ويحمل ساقيه إلى الخارج.

٦٤ ـ ومن الاثنين الآخرين اللذين يوجد رأساهما إلى أسفل، بروتس هو ذلك الذى يتدلّى من الوجه الأسود، انظر كيف التوى ولا ينطق حرفًا!

٦٧ ـ والآخر هو كاسيوس، الذى يبدو هكذا غليظ الأعضاء ولكن الليل يعلو، وعلينا الآن أن نرحل، فقد رأينا كلّ شىء».

٧٠ ـ وكما طاب له احتضنتُ عنقه، واختار هو المكان والزمان الملائم، ولما امتدت الأجنحة بعيدًا

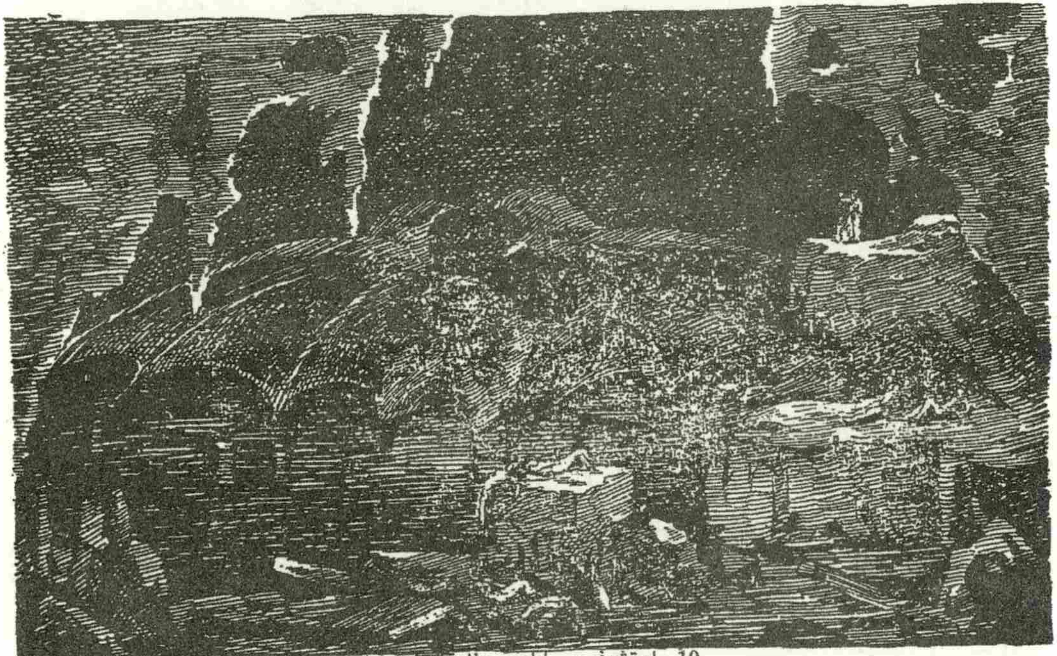
٧٣ ـ علق نفسه بالجوانب الشعراء: ثم من شعرة لأخرى نزل إلى أسفل، بين الشعر الملبَّد والقشر المتجمد.

٧٦ ـ ولما وصلنا إلى موضع ينحنى فيه الفخذ عند ضخم الردف، اتجه دليلى برأسه فى صعوبة

٧٩ ـ وجهد، حيث كانت هناك ساقاه، وتشبث بالشعر كرجل يذهب صعدًا حتى ظننت أننا نعودُ ثانية إلى الجحيم

٨٢ ـ قال أستاذى وهو يلهث كإنسان متعب: «تعلق جيدا، لأن علينا أن نرحل بمثل هذه الدرجات عن شرور كثيرة».

٨٥ ـ ثم خرج من ثغرة فى صخرة ووضعنى على حافتها لكى أجلس، وتقدم بعد نحوى بخطى المتئد.



10 - لوتشيفيرو - إبليس عذاب الجليد

٨٨ ـ رفعت عينى، وظننت أنى أرى لوتشيفيرو كما كنتُ قد تركته، ورأيته قد جعل ساقيه إلى أعلى.

٩١ ـ وإذا كنت قد أصبحت عندئذ مبلبل الاطر، هكذا فليفكر الدهماء الذين لا يرون، كيف كان ذلك الموضع الذى عبرته.

٩٤ ـ قال أستاذى: «قُم، وانهض على قدميك: إن الطريق طويل والسير وعرٌ، وقد توسطت الشمس دورة الصباح».

٩٧ ـ لم تكن ردهة قصر هناك حيث كنا، بل كهف طبيعى، ذو أرض وعرة يعوزه الضياء.

١٠٠ ـ قلت حينما نهضت واقفًا: «قبل أن أنزع نفسى من الهاوية، حدثنى قليلا أستاذى كى تخرجنى من الخطأ:

١٠٣ ـ أين الثلج وكيف زُرع هذا رأسًا على عقب هكذا، وكيف سارتُ الشمس من المساء إلى الصباح، فى مثل هذا الوقت القصير؟»

١٠٦ ـ قال لى: «إنك ما زلت تتخيل أنك فى الجانب الآخر من المركز، حيث تعلقتُ بشعر الدودة الخبيثة التى تخترق الدنيا

١٠٩ ـ لقد كنت فى ذلك الجانب، طالما كنت أهبط، وحينما استدرتُ عبرت الموضع الذى تنجذب إليه الأثقال من كلّ جانب.

١١٢ ـ وقد وصلت الآن تحت نصف الكرة، المقابل للنصف الذى يغطى كتلة اليابس الكبرى، وقد قضى تحت قمته

١١٥ ـ الرجل الذى ولد وعاش دون خطيئة، إن قدميك فوق مساحة صغيرة تكون الوجه المقابل لدائرة يهوذا.

١١٨ ـ وهنا يصبح النهار، حينما يكون هناك مساء: وهذا الذى جعل لنا من شعره سلمًا، لايزال مثبتًا كما كان من قبل.

١٢١ ـ لقد سقط على هذا الجانب من السماء إلى أسفل، والأرض التى كانت ممتدة هنا أولاً، اتخذت خشية منه نقاباً من البحر.

١٢٤ ـ وجاءت إلى نصف كرتنا، وربما لكى تهرب منه تركت هنا المكان الخالى، الذى يبدو من هذا الجانب ويندفع إلى أعلى».

١٢٧ ـ هناك فى أسفل مكانٌ يبعد كثيراً عن بعل زبوب كامتداد قبره، ولا يعرف بالنظر ولكن بخرير

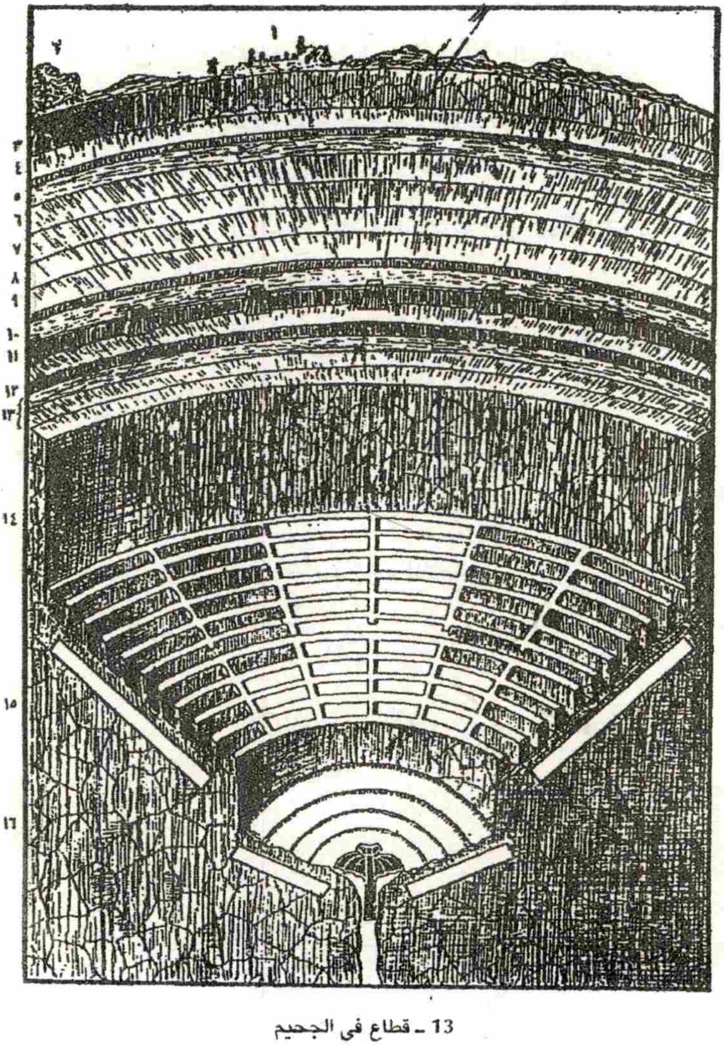
١٣٠ ـ جدول، يهبط هنا خلال فتحة الصخرة التى نحتها فى مجراه، الذى ينعرج فيه وينحدر قليلاً.

١٣٣ ـ دخلتُ ودليلى ذلك الطريق الخفىّ، لكى نعود إلى عالم الضياء، ودون أن نحفل بقسط من راحة.

١٣٦ ـ صعدنا إلى أعلى، هو الأول وأنا الثانى، حتى رأيت خلال ثغرة مستديرة، الكائنات الجميلة التى تحملها لسماء،

١٣٩ ـ وهناك خرجنا لكى نستعيد رؤية النجوم.

***



13 ـ قطاع فى الجحيم

شرح قطاع في الجحيم

١ ـ أورشليم	
٢ ـ الغابة المظلمة	أنشودة ١، ٢
٣ ـ باب الجحيم:	أنشودة ٣
٤ – مقدمة الجحيم: من لم يفعلوا الخير ولا الشر	أنشودة ٣
٥ ـ نهر أكرونتى	
٦ ـ الحلقة الأولى: اللميو: غير المؤمنين بالمسيحية والأطفال الذين لم يعمدوا	أنشودة ٤
٧ ـ الحلقة الثانية: أصحاب شهوة الجسد	أنشودة ٥
٨ ـ الحلقة الثالثة: الشرهون	أنشودة ٦
٩ – الحلقة الرابعة: البخلاء والمسرفون	أنشودة ٧
١٠ – الحلقة الخامسة: نهر استيكس: الغاضبون والكسالى	أنشودة ٧، ٨
١١ ـ الحلقة السادسة: مدينة ديس: الهراطقة	أنشودة ٩، ١٠، ١١
١٢ ـ حائط	
١٣ – الحلقة السابعة: مرتكبو العنف:	
(أ) نهر فليجيتونى (نهر الدماء): القتلة وقطاع الطرق	أنشودة ١٢
(ب) المنتحرون والمبددون	أنشودة ١٣

(ج) المتكبرون على الله والملوطون والمرابون — أنشودة ١٤، ١٥، ١٦، ١٧

١٤ ـ الشاطئ الوعر المنحدر

١٥ ـ الحلقة الثامنة: الخادعون:

الوادى أو الخندق الأول: من أغروا النساء	أنشودة ١٨
الخندق الثانى: الزناة	أنشودة ١٨
الخندق الثالث: المرتشون	أنشودة ١٩
الخندق الرابع: المنجمون	أنشودة ٢٠
الخندق الخامس: مثيرو الخصام	أنشودة ٢١، ٢٢
الخندق السادس: المنافقون	أنشودة ٢٣
الخندق السابع: اللصوص	أنشودة ٢٤، ٢٥
الخندق الثامن: مشيرو السوء	أنشودة ٢٦، ٢٧
الخندق التاسع: مروجو الفتن	أنشودة ٢٧، ٢٨
الخندق العاشر: المزيفون	أنشودة ٢٩، ٣٠
العبور بين الحلقة ٨ والحلقة ٩	أنشودة ٣١

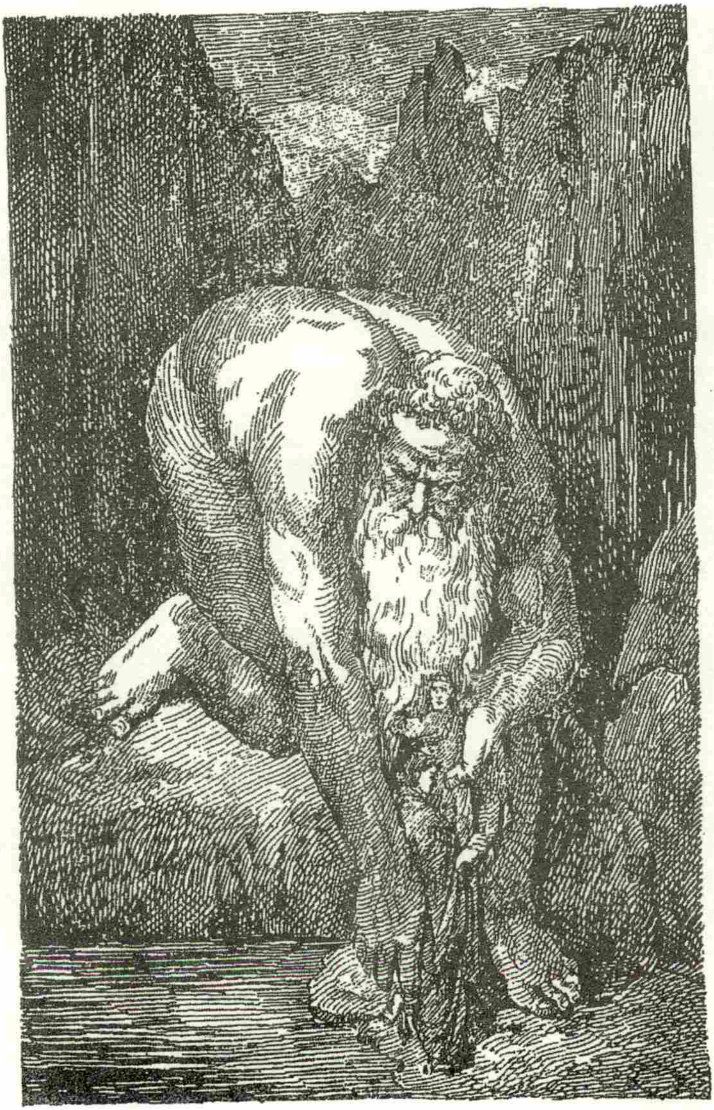
١٦ ـ الحلقة التاسعة: بئر المردة ومياه كوتشيتوس المتجمدة:

الخونة:

الدائرة الأولى: دائرة قابيل: خونة الأقارب	أنشودة ٣٢
الدائرة الثانية: دائرة الأنتينورا: خونة الوطن	أنشودة ٣٢، ٣٣
الدائرة الثالثة: دائرة بطليموس: خونة الأصدقاء	أنشودة ٣٣
الدائرة الرابعة: خونة من أحسنوا إليهم	أنشودة ٣٤

لوتشيفيرو ـ إبليس ـ فى أسفل الرسم ويليه
الممر الذى يؤدى إلى جبل المطهر بعد عبور
مركز الأرض عند دانتى

***



11 ـ المارد أفنيوس